التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٥)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الثالث

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جدة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعـوة للطبـع والنشـر والتوزيـع
١ شـارع منشـا - محـرم بك - الإسـكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضـراء للنشـر والتوزيـع
حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف/ فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الزاهد والخليفة الراشد

عمر بن عبد العزيز

مواقف إصلاحية

- إرهاصات بين يدي خلافته -

لقد تم في فصـول ماضية عـرض مواقف الفتوح الإسـلامية التي انتهـت تقريبا فـي عهد الوليـد بن عبـد الملك ، وسيـتم - بإذن الله تعـالى- في هذه الفـصول عـرض مواقف مـن نوع آخر حـيث تولى الخلافة بعد سليمان بن عبـد الملك الإمام العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي جدد الله تعالـى به لهذه الأمة أمر دينها حيث أرسى قواعد العدل وطبق السياسة الإسلامية .

لقد كان الخلفاء الذين عاصرهم عمـر وكثير من ولاتهم قد كثرت في عهودهم المظالم ، وعمل الولاة بأهوائهم أحـيانًا من غير نظر إلى الأحكام الشرعـية فورث عمـر تلك التركة الثـقيلة ، وأحس من أول ساعـة أنه يجب عليه أن يعدِّل سـياسة الدولـة لتتفق مع شـريعة الله تعالى، ولكن ذلك يصطدم بأهواء أفراد أسرته الحاكمة والمستفيدين من ورائهم ، فلم يخش في الله لومـة لائم، وشمَّـر عن ساعـد الجد في إصلاح الأمة وإحـقاق الحق ورد المظالم ، وكان حكيما ونزيهـا حينما طبق الحق على نفسـه أولا وعلى أفراد أسرته الأقربين ثانيا، فـساعده ذلك في تطبـيق الحق على بقـية أفـراد عشـيـرته من بني أميـة وعلى المستفيدين من الوضع السابق .

فراسة صادقة من جده عمر رضي الله عنه :

وقبل أن نتـحدث عن مـواقف عمـر في الإصلاح والعـدل نذكر موقفـا كريما لجدته من أمه وفـراسة صادقة من جده عـمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد أخرج أبـو محمد عبد الله بن عبـد الحكم فيما

يرويه عن شيوخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى في خلافته عن مذق اللبن بالماء ، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة فإذا بامرأة تقول لابنة لها : ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت ؟ فقالت الجارية : كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق ؟ فقالت : قد مذق الناس فامذقي فما يُدري أمير المؤمنين، فقالت : إن كان عمر لايعلم فإله عمر يعلم، ماكنت لأفعله وقد نهى عنه، فوقعت مقالتها من عمر، فلما أصبح دعا عاصما ابنه فقال : يابني اذهب إلى كذا وكذا فاسأل عن الجارية - ووصَفَها له - فذهب عاصم، فإذا هي جارية من بني هلال، فقال له عمر : اذهب يابني فتزوجها ، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب، فتزوجها عاصم بن عمر ، فولدت له أمَّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأتت بعمر بن عبد العزيز (١) .

وهكذا رأينا موقف تلك الفتاة التقية حيث راقبت الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى ، وأدركت أن حفظ الأمانة وأداء حقوق الناس ليس الدافع إليه والوازع من ضده هو الخوف من السلطان في الأرض، لأن السلطان ونوابه قد يغفلون عن مراقبة الناس فتتهيأ

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٢ ، وابن عبد الحكم هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المصري ، من كبار العلماء في مصر، ومن أجلة أصحاب الإمام مالك ، ولما قدم الإمام الشافعي إلى مصر صاحبه وتتلمذ عليه، وقد ذكر شيوخه في هذا الكتاب في المقدمة وهم علماء أجلاء من أمثال الأئمة مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان بن عيينة ، ولكنه لما ساق الأخبار لم يذكر شيوخه من باب الاختصار .

الفرصة لمن التزم بالحـق من أجلهم أن ينتهز فرصة غفلتـهم عنه فيتبع هواه وينطلـق في غش المسلمين وظلمـهم، بـل أدركت أن الدافع إلى الاستقامة على الحق هو خشية الله تعالى ، ومن استقرت هذه الخشية في قلبه فإنها تحول بينه وبين اتِّباع الهوى المنحرف لأن رقابة الله تعالى دائمة ، وعلمه لطيف دقيق لاتخفى عليه خافية .

ولقد كان هذا الفـهم الثاقب والإيمان القوي مثار إعجـاب عمر، ورغبته في أن يزوج ابنه عـاصما من تلك الفتاة الزكيـة رغبة في نجابة الولد، وصلاح المحضن الأول الذي تصاغ فيه تربية الأولاد ، ليكونوا رجال خير وإصلاح .

وكانت فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أنجبت تلك الفتـاة بنتا شرفت بإنجاب إمـام من أعظم أئمة الإسلام في العدل والإصلاح .

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم يلتـزمون بالمقياس الإسلامي وهو التقوى ، فيجعلونه مقـياسًا لعظمة الناس وتفوقهم، ويبنون على هذا المقياس آمالا مستقبلية عالية كـما فعل عمر حينما أمر ابنه عاصما بالزواج من تلك الفتاة التقية .

رؤيا صالحة من جده عمر رضي الله عنه :

وعمر بن عبـد العزيز هو الأشجُّ من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رأى فيه الرؤيا الصالحـة ، وقد ذكر هذه الرؤيا ابن عبد الحكم فقال : واستـيقظ عمر من نومه فمـسح النوم عن وجهه وعرك

عينيه وهو يقول : من هذا الذي من ولد عمر يُسمَّى عمر يسير بسيرة عمر؟ يردِّدها مرات [1] .

ورواه ابن سعد في طبقاته من خبر نافع عن ابن عمر وعن نافع عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلا كما ملئت جورا ، ذكره ابن الجوزي ، وذكر من رواية مبارك بن فضالة عن عبد الله بن عمر أنه كان كثيراً مايقول: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا [2] .

مولده ونشأته :

ذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم أنه ولد في المدينة[3] وذكر محمد بن سعد أنه ولد سنة ثلاث وستين للهجرة، وهي السنة التي توفيت فيها أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها [4].

وذكر ابن عبد الحكم أنه - وهو غلام صغير - كان يأتي عمه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كثيرا، لمكان أمه منه [5].

ثم ذكر أن أمه لما أرادت اللحاق بزوجها في مصر قال لها عبدالله ابن عمر : خَلِّفي هذا الغلام عندنا- يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥ ، وانظر البداية والنهاية ٩ / ١٩٦ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤ .

(٤) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٣٠ .

(٥) يعني لكون أمه ابنة عاصم أخي عبد الله بن عمر .

البـيت ، فخلفـته عنده ولم تخـالفه ، فلمـا قدمت على عـبد العـزيز اعترض ولده فإذا هو لايرى عـمر ، فقال لها : وأين عمـر ؟فأخبرته خبـر عبد الله وما سـألها من تخليفـه عنده لشبهه بهم ، فـسرّ بذلك عبدالـعزيز وكتب إلى أخيـه عبد الملك بن مروان يخـبره بذلك فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر [١] .

وقد جاء في خبر آخر أن عمر طلب من أبيه عبد العزيز أن يرسله إلى المدينة ليتعلم على علمائها، وذلك فيما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبـر العتـبي قال : إن أول مـااستُـبين من عمـر بن عبد الـعزيز وحرصه عـلى العلم ورغبته في الأدب أن أباه ولي مـصر وهو [يعني عمـر] حديث السن يُشكّ في بلوغـه ، فأراد إخراجـه معه ، فـقال [يعني بعدما خرج] : ياأبة أوَ غير ذلك لعله أن يكون أنفع لي ولك، ترحِّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بآدابهم .

فوجّهه إلى المدينة فقعد مع مشايخ قريش وتجنب شبابهم، وجاءته ألطاف أبيه من مصر فـجعل يقسمها بينهم، فشـهره أهل المدينة بعلمه وعقله مع حداثةسنه فـحسده فتيـان قريش فقعدوا إليه فـقالوا : كيف أصبحت يا أبا تخفص ؟ فقال : مهـلا ، إياي وكلام المَجَعَة، فشُهرت منه بالمدينة حتى كُتب بها إلى أبيه بمصـر - والمجعة :القليلة عقولهم، الضعيفة آراؤهم -.

قال: ثم بعث إليه عبْـد الملك عند وفاة أبيه[٢] فخلطه بولده وقدمه

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤ .

(٢) أي أبي عمر بن عبد العزيز بن مروان .

على كثير منهم، وزوَّجه بابنته فاطمة، وهي التي يقول فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها ... أخت الخلائف والخليفة زوجها

فلم تكن امرأة تستحق هذا البيت إلى يومنا هذا غيرها .

قال : وكان الذين يعيبون عمر ممن يحسده لايعيبونه إلا بشيئين: إلا بالإفراط في النعمة والاختيال في المشية، ولو كانوا يجدون ثالثا لجعلوه معهما ، وهو قول الأحنف : الكامل من عُدَّتْ هفواته، ولاتُعَدُّ إلا من قِلَّة (١) .

فيكون على هذا قد بقي في المدينة بطلب من عمه عبد الله بن عمر، ثم سافر إلى أبيه في مصر ، ثم عاد إلى المدينة .

وجاء في رواية أخرى بيان سبب آخر لقناعة أبيه بعودته إلى المدينة ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن بعض أهل بيته كانوا يؤملون أن يكون هو الحاكم العادل الذي رآه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المنام لتحقق بعض الأمارات فيه ، فلما سقط من الدابة فشُجَّ في وجهه زاد أملهم ذلك فقال أبوه : ماينبغي لمن كان يُرجى لما يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة ، فبعثه إليها (٢).

وتربى عمر في أحضان العلماء الأتقياء حتى صار متفوقا في العلم ، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (٣).

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/١٣٧ - ١٣٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/١١٧ .

(٢) سير عمر بن عبد العزيز / ٢٥ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٥/١٣٩ .

رؤيا صادقة وعزم على الاستقامة والعدل :

ذكر سعيد بن صفوان وفادة رجاء بن حيوة على عمر بن عبدالعزيز قبل خلافته إلى أن قال : وأقام عنده أياما ، فكان كلما أصبح دخل على عمر بعد صلاة الصبح، فيتحدثان لايدخل عليهما أحدٌ حتى يخرج رجاء من عنده ، قال : فبينما رجاء ذات يوم عنده– وقد رأى رؤيا فأصبح وقد حفظها – قال فجعل يحدث نفسه وعمر يحدثه ، فأنكره عمر فقال : ياأبا المقدام إني لأنكر بعض حالك اليوم فما شأنك ! قال : إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيتها الليلة، فأنا أعجب وأحدث بها نفسي ؟ فقال عمر : اقصصها رحمك الله فقال: نعم وإن لك فيها نصيبا : رأيت الليلة كأن أبواب السماء فتحت، فبينا أنا أرمقها إذ أقبل ملكان يهويان ، معهما سريرٌ لم أرَ مثله حسنًا ، حتى وضعاه بالمدينة ، ثم صعدا وأنا أنظر إليهما حتى دخلا أبواب السماء ، فلبثا مليّا ، ثم أقبلا ومعهما ثياب بيض لم أرَ مثلها، وشمَمْتُ عَبَق مسك لم أشمّ مثله قط، فمهداها على ذلك السرير فدنوت منهما فقلت . ماهذه الثياب ؟ قالا : هذا السندس والاستبرق الذي ذكر في القرآن ، ثم صعدا فلبثا مليّا ، ثم أقبلا معهما برجل أَدعج العينين ، ذي وَفْرة شديد سواد الشعر، بعيد ما بين المنكبين، مربوع الجسم، عليه هيبة ووقار، حتى أقعداه على ذلك السرير من فوق تلك الفرُش، فدنوت منهما فقلت: من هذا الرجل؟ فقالا هذا محمد ﷺ ، قال : فهبْتُه هيبةً شديدةً : وتأخرت ناكصًا على عقبي، حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع،فبينا أنا كذلك إذ أتى

برجلٍ قد نهزه القتير[١]، ضَرْب الجسم، حسن اللحم، مشدودة يداه إلى عنقه، حتى وُقف بين يديه ، فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه فيما كان من فعاله في الإسلام، ويقول أنت صاحبي في الغار، وأنت أبوبكر الصديق ، والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئا، فلم يزل قائمًا بين يديه ، ثم أمر به فأُطلق عنه، وأجلس عند رأس السرير على الأرض، ثم أُتي برجل حسن اللحم، نهزه القتير، مجموعة يداه إلى عنقه، حتى وُقف بين يديه، فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه بفعاله في الإسلام، ويقول: أما إنك الفاروق الذي أعز الله عز وجل به الدين، وأنت صاحب اليهودي. والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئا ، فلم يزل قائمًا بين يديه مليّا ، ثم أُطلق عنه وأجلس مع أبي بكر، فما زال كذلك يؤتي بخليفة خليفة حتى أفضى الأمر إليك، فلما سمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالسًا ثم قال : ياأبا المقدام فماذا صُنع بي ؟ قال : أُتي بك مجموعةً يداك إلى عنقك ، ثم وُقفت بين يديه طويلاً ثم أُمر بك فأطلق الغُل، ثم أُجلست مع أبي بكر وعمر بن الخطاب فاشتد عجب عمر بن عبدالعزيز لرؤيارجاء بن حيوةَ ثم قال : ياأبا المقدام والله لولا ماأثق به من صحبتك وورعك، وجدك واجتهادك ، ووفائك وصدقك، لأنبأتك أني لا ألي شيئًا من أمر الخلافة أبدًا، ولكني قد سمعت كلامك ورؤياك ، وما أخلق بي ، سوف أبتلى بأمر هذه الأمة. فوالله لئن ابتُليت بذلك وإنها شرف الدنيا لأطلبن بها شرف الآخرة[٢].

(١) القتير هو الشيب .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٩ - ١٤١ .

– من مواقفه في إمارته على الحجاز –

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (١) .

استشارته فقهاء المدينة :

قال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنا عبدالرحمن بن أبي الزّناد عن أبيه قال: لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة واليًا عليها كتب حاجبُه الناسَ ثم دخلوا فسلموا عليه، فلما صلّى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد : عُرْوة بن الزبير وعبيدالله بن عبد الله بن عُتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمّ قال: إني دعوتكم لأمر تُؤجَرون عليه وتكونون فيه أعوانًا على الحقّ، ماأريد أن أقطع أمرًا إلاّ برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحدًا يتعدّى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأُحَرّج بالله على أحد بلغه ذلك إلاّ أبلغني . فجزّوه خيرًا وافترقوا (٢) .

وهذا الخبر يدلنا على قوة إيمان عمر بن عبد العزيز وحبه البالغ لتطبيق الإسلام كاملا، حيث إن علماء الدين هم أخبر الناس

(١) تاريخ دمشق ٤٥/١٣٩ .

(٢) طبقات ابن سعد /٥/ ٣٣٤ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥ / ١٤١ .

بالإسلام، ففي استشـارتهم والأخذ بحكمهم أمان من الوقوع في الخطأ والانحراف .

إجلاله سعيد بن المسيب :

قال ابن عبد الحكم : وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب رحمه الله يسأله عن مسألة، وكان سعيد لايأتي أميرا ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك فأخذ نعليـه وقام إليه من وقته، فلمـا رآه قال له : عزمت عليك ياأبا محمد إلا رجـعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حـاجتنا فإنا لم نرسله ليدعوك ، ولكنه أخطـأ إنما أرسلناه ليسألك ، ولـم يَرَ سعيد أنه يسعه التخلف عنه [1] .

وهذا موقف عظيم من عمر بن عبـد العزيز رحمه الله في تعظيم علمـاء الدين ورعاية حـقـهم، فالعلم يُؤتَـى إليه ولايأتي ،والعلمـاء يُقصـدون ، ولايَقصدون غـيرهم، لأن العلم لايؤثِّر ولايُعطي نتـائجه المطلوبة إلا إذا تواضـع له طالبـوه ، وأصبـح جَوُّه مُـفـعـمًـا بالحب والاحترام لحملة العلم .

ولقد كان عمر موفقا حينما اعتذر للعالم الرباني سعيد بن المسيب وأصر على أن يذهب إليـه رسوله ليسـأله وهو في مجلسه احتـراما له والتماسا لبركة العلم إذا أحيط بما يلزم له من ظروف وأسباب .

كما كان سعيد بن المسيب موفقا حينما استجاب لدعوة عمر وهو

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٦ .

الذي لم يستجب لدعوة أحد قبله ولابعده. . كان موفقا لأنه أظهر توقير الوالي العادل وتفخيم أمره ، وفي ذلك مافيه من عونه على الاستقامة على العدل ، ودفع الناس إلى طاعته وتثبيت أمره في الولاية.

استخلافه وموقف لرجاء بن حيوة :

قال ابن سعد رحمه الله تعالى : أخبرنا علي بن محمد عن جرير ابن حازم عن هزّان بن سعد قال : حدثني رجاء بن حيوة قال: لما ثقل سليمان بن عبد الملك رآني عمر في الدار أخرج وأدخلُ وأتردد فدعاني فقال لي : يارجاء أذكرك الله والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك، فو الله ماأقوى على هذا الأمر، فأنشدك الله إلا صرفت أمير المؤمنين عني. فانتهرته وقلتُ: إنّك لحريص على الخلافة لتطمع أن أشير عليه بك . فاستحيى ودخلتُ، فقال لي سليمان : يارجاء من ترى لهذا الأمر وإلى من ترى أن أعهد ؟ قلت : ياأمير المؤمنين اتق الله فإنّك قادم على الله وسائلك عن هذا الأمر وما صنعت فيه. قال : فمن ترى ؟ فقلت: عمر بن عبد العزيز . قال : كيف أصنع بعهد أمير المؤمنين عبد الملك إلى الوليد وإليَّ في ابنَي عاتكة أيهما بقي؟ قلت: تجعلهما من بعده . قال: أصبتَ ووفقتَ ، جئني بصحيفة . فأتيته بصحيفة فكتب عهد عمر ويزيد من بعده وختمها ، ثم دعوتُ رجالاً فدخلوا عليه فقال لهم : إني قد عهدتُ عهدي في هذه الصحيفة ودفعتُها إلى رجاء وأمرتُه أمري وهو في الصحيفة ، اشهدوا واختموا الصحيفة. فختموا

عليها وخرجوا فلم يلبث سليمـان أن مات فكففتُ النساء عن الصياح وخرجتُ إلى الناس فـقالوا : يارجاء كيف أمـير المؤمنين ؟ قلت: لم يكن منذ اشتـكى أسكنَ منه الساعةَ . قـالوا : لله الحمـد ! فقلت: ألستم تعلمون أن هذا عهد أمير المؤمنين وتشهدون عليه؟ قالوا: بلى ، قلت : افترضون به ؟ قال هشام : إن كان فيه رجل من ولد عبدالملك وإلاّ فلا . قلت: فإنْ فيه رجل من ولد عبد الملك ؟ قال : فنعم إذًا. قال فدخلتُ فمكثتُ ساعةً ثم قلتُ للنساء اصرخن، وخرجتُ فقرأتُ الكتاب والناس مجتمعون وعمر في ناحية الرواق .

وقال : أخـبرنا عليّ بن محمـد عن يعقوب بن داود الثـقفي عن أشياخ من ثقيف قال: قُرئ عهد عمر بعد وفاة سليمان بالخلافة وعمر ناحيـةً وهو بدابق . فقـام رجل من ثقيـف يقال له سالـم من أخوال عمر. فأخذ بضـبعه فأقامه فقال عمـر : أما و الله ما الله أردتّ بهذا ولن تصيب بها مني دنيا (١) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٣٩ - ٣٤٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٧.

تقديره ولد قتادة بن النعمان :

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وأُصيبت يومئذ[1] عين قَتادة بن النُّعمان حتى وقعت على وَجْنَته . قال قتادة بن النعمان: فجئت رسول الله ﷺ فقلت : أي رسول الله ، إنَّ تحتي امرأةً شابة جميلة أحبّها وتُحبني وأنا أخشى أن تقذَر مكان عيني . فأخذها رسول الله ﷺ فردّها فأبصرت وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليه ساعةً من ليل ولانهار ، وكان يقول بعد أن أسنَّ : هي والله أقوى عينَيّ! وكانت أحسنَهما [2] .

وقال الحافظ ابن حجر : أخرج الدارقطني وابن شاهين من طريق عبد الرحمن بن يحيى العذري عن مالك عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد فوقعت على وجنته فردها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه .

قال : وأخرجه الدارقطني والبيهقي في الدلائل من طريق عياض ابن عبد الله بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري وذكر نحوه [3] .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر

---

(١) يعني يوم معركة أحد .

(٢) مغاري الواقدي ١/ ٢٤٢ .

وأخرجه ابن هشام مختصرا – سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣ – .

(٣) الإصابة ٣/ ٢١٧ ، رقم ٧٠٧٨ .

ابن عبد العزيز فقال له : من أنت ؟ فقال مرتجلا :

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه
فـرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الـرَّدِّ
فعادت كما كـــانت لأول أمـرهـا
فياحُسْنَها عـينًا ويـاحُسْنَ مـــارَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك :

تـلك المكـارم لاقَـعْبان مـــن لبن
شِـيْبَـا بمــاء فـعـادا بَـعْـدُ أبــوالا

ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه (١) .

وولد قتادة هذا لم يُذكر اسـمه في هذه الروايات ، لكن جاء في رواية ذكرها الحـافظ ابن حجر : قال عـاصم : فحدثت به عـمر بن عبدالعزيز ، فذكر البيت الذي تمثل به عمر (٢) ، وهذا يعني أن عاصم ابن عمـر بن قتـادة المؤرخ المشهور هو صـاحب القصـة ، ويكون قد انتسب إلى جده .

ففي هذا الخـبر موقف لأميـر المؤمنين عمر بن العزيز رحـمه الله تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيـه رضي الله عنه في هذا الخبـر على يد رسول الله ﷺ ،

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٥ ، وانظر عيون الأثر ٢/ ١٤، وسيـرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /١٩٦ .

(٢) الإصابة ٣/ ٢١٧ ، رقم ٧٠٧٨ .

وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ماحدث لقتادة رضي الله عـنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شـاهد على إيغاله في القتـال وتعرضه للمـهالك، كمـا أنه شرف له أن تمثلت فـيه تلك المعجزة النبوية .

ولقد كان ولده بارعًـا حينما صور هذا المشهـد بذينك البيتين من الشعر اللذين ارتجلهما في الرد على أميـر المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما سأله عن اسمه ، وكان عمر أيضا بارعًا في جوابه واستشهاده ببيت الشعر الذي استشهد به .

تقديره زياد مولى ابن عياش :

إن من مـواقف أميـر المؤمنين عمـر بن عبـد العزيز في التـواضع وتقدير العلمـاء ماجاء في رواية ابن عـبد الحكم أنه قال: وقـدم عليه زياد مولى ابن عياش وأصحاب له ، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم ، فـدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخـلافة، ثم ذكر فقـال : السلام عليك ياأمـير المؤمنين ، فـقال له عـمر : والأُولى لم تضرني ، ثم نزل عـمر عن موضع كان عليـه إلى الأرض وقال: إني أُعْظِم أن أكون في موضع أعلو فيـه على زياد، فلما قضى زياد مايريد خرج ، فأمر عـمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومـن معه يأخذون منه حاجتهم ، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمَتْه عينه أن يكون يُفْتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه - وهو به غير عارف - ففعل الخازن ماأمر به ، فدخل زياد فـأخذ لنفسـه ولأصحابـه بضعا وثمـانين درهما، أو

بضعا وتسعين درهما ، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال [1] .

ففي هذا الخبـر صور من تواضع عمر بن عبد العـزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين، فهـو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين ، والمناصب لهـا فتنة يقع في حـبائلها من اغـتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية ، أما أقوياء الإيمان فإن شخـصيتهم لاتتغير بعد المنصب بل يظلون على ماهم عليه من الـتواضع ، وربما زادوا تواضعا في مقابلة احترام الناس لهم .

ثم هو ثانيًـا نزل عن مكانه حتى لايعلو ذلك العـالم الرباني زياد ابن أبي زياد مـولى عبد الـله بن عيـاش بن أبي ربيعـة ، وكون ذلك العالم من الموالي لايُنزل من قدره عند عمر فـإن العبرة بالعلم والتقوى لابشرف النسب .

وموقف كـريم لذلك العالم الرباني حيـث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مُكِّن منه ، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع .

وحينما تكون النفوس كبيرة والعـقول راجحة فإنها تعفُّ عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار ، وتطمح ببـصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنافس فيه الكبار .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عـبد الحكم / ٥٣ ، وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه - الزهد/ ٢٩٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦١ .

إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني مـن خبر عيسى بن عبد الله بن محمـد بن عمر بن علي بن أبي طالب. قال : حـدثني يزيد بن عمر بن مـورق قال: كنت بالشـام وعمـر بن عـبد العـزيز يعطي الناس، فتـقدمت إليـه فقـال لي : ممن أنت ؟ قلت من قريـش، قال من أي قريش؟ قلت مـن بني هاشم . قال من أي بني هاشم ؟ قـال فسكت فقال من أي بني هاشم ؟ قلت مولى علي . قال من علي : فسكت، قـال: فوضع يده علـى صدري وقـال: وأنا والله مـولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم قال: حـدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول : « من كنت مـولاه فعلي مولاه » ثم قـال: يامزاحم كم تعطي أمثاله ؟ قـال : مائة أو مائتي درهم، قال أعطه خـمسين ديناراً، وقال ابن أبي داود : سـتين ديناراً لولايتـه علي بن أبي طالب ، ثم قـال: الحق ببلدك فسيأتيك مثل مايأتي نظراءك [1] .

وهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز حيث حفظ حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عـنه فأكرم وفادة ذلك الرجل وفضله على غيره في العطية لكونه مولى لعلي، وفي هذا الخبر تصوير للإرهاب الذي بثـه بنو أمية في قلوب الناس فيمـا يتعلق بعلي ابن أبي طالب رضي الله عـنه وذريته ، حـيث لم يجـرأ ذلك المولى على ذكر انتسابه إليه في بادئ الأمر .

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٦٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٢.

- نماذج من جرأته في الحق وحزمه وحكمته -

إنكاره على الوليد بن عبد الملك في الحكم بالهوى :

قـال أبو محـمـد عبـد الله بن عـبد الحـكم : ودخل عمـر بن عبدالعـزيز على الوليد بن عبد الملك فقـال : ياأمير المؤمنين إن عندي نصيـحة فـإذا خلا لك عـقلك واجتـمع فهمـك فسلني عنهـا، قال: مايمنعك منهـا الآن ؟ قال : أنت أعلم إذا اجتمع لك مـاأقول، فإنك أحق أن تفهم .

قال : فمكث أيـاما ثم قال : ياغلام من بالباب ؟ فـقيل له ناس وفـيهم عـمر بن عـبد العـزيز فقـال: أدخله ، فدخل عليـه فقـال: نصيحتك ياأبا حفص فقـال عمر : إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون ويكتبون : إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسـؤول عنه ، والمأخوذ به . فـاكتب إليـهم أن لايقتل أحدٌ منهم أحدًا حتى يكتب إليك بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك قال: بارك الله فـيك ياأبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب فكتـب إلى أمراء الأمصار كلـهم فلم يَحْرَجْ من ذلك إلا الحجاج ، فـإنه أمضَّه ، وشقَّ عليـه وأقلقه . وظن أنه لـم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك فقال : من أين دُهينا ؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهـذا، فأُخبر أن عمر بن عبـد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال : هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره .

قال : ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حروري جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحـجاج : ماتقول في معـاوية ؟ فنال منه. قال له:

ماتقول في يزيد ؟ فسبَّه . قال : فما تقول في عبد الملك، فظلَّمه قال: فما تقول في الوليد ؟ فقال : أجورُهُم حين ولاَّك وهو يعلم عداءك وظلمك .

قال : فسكت عنه الحجاج وافترصها منه ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه : أنا أحوط لديني ، وأرعى لما استرعيتني وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد : ماتقول فيَّ؟ قال: ظالم جائرٌ جبار . قال : ماتقول في عبد الملك؟ قال جبار عات قال: فما تقول في معاوية ؟ قال : ظالم . قال الوليد لابن الريّان : اضرب عنقه فضرب عنقه .

قال : ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: ياغلام اردد عليَّ عمر، فرده عليه فقال: ياأبا حفص ماتقول بهذا ؟ أصبنا فيه أم أخطأنا؟ فقال عمر ماأصبت بقتله، ولغيرُ ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته ، فقال الوليد: شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفتستحلُّ ذلك؟ قال: لعمري ما استحلَّه ،لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مُغضبًا، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك ياأبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أن سيأمرني بضرب عنقك. فقال عمر: ولو أمرك كنت تفعل ؟ قال: إي لعمري قال عمر : اذهب إليك(١).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤ -١٣٦ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٢ .

فهذا موقف جليل من عمر بن عبد العزيز في الصدع بالحق أمام الوليد بن عبد الملك الذي كان شديد البطش وفي حال من الغضب الشديد، ولكنه كان بين أمرين : أن يتعرض لسخط الوليد وعذابه إن جهر بالحق، أو أن يتعرض لسخط الله جل وعلا وعذابه إن جهر بالباطل، فآثر طلب رضوان الله سبحانه واجتناب سخطه وعذابه فكفاه شر عباده .

مشورته على سليمان بن عبد الملك في الحكم :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وشاور سليمان بن عبد الملك عمر بن العزيز في رجل سب سليمان فقال: ماترى فيه؟ فقال من حوله: اكتب بضرب عنقه - وعمر بن عبد العزيز ساكت - فقال: مالك لاتتكلم ياعمر ؟! فقال: أما إذا سألتني فلا أعلم سبَّةً أحلت دم مسلم إلا سبة نبي ، قال: فقاموا وقام فقال سليمان: لله بلادك ياعمر لو قرشي طُبختَ في مرقته لأنضجَتها [١] .

ولقد حدث في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن رجلا من الخوارج شتمه ، كما ذكر ذلك ابن عبد الحكم قال: وحكَّم رجل في مسجد رسول الله ﷺ [٢] - وأبو بكر بن محمد في صلاته- فقطع عليهم الصلاة وشهر السيف. فكتب أبو بكر إلى عمر. فأُتي بكتاب عمر فقرئ عليه فشتم عمر والكتاب ومن جاء به . فهمَّ أبو

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣١-١٣٢ ، والمقصود بالمرقة اللحم، والمراد وصفه بالقوة والحزم .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا الله .

بكر بضـرب عنقه ثم راجع عـمر وأخـبره أنه شتـمه وأنه همَّ بقـتله . فكتب إليه عمر : لو قتلته لقـتلتك به، فإنه لايُقتل أحدٌ بشتم أحد إلا أن يشتم النبي ﷺ ، فإذا أتاك كتـابي هذا فاحبس عن المسلمين شره، وادُعهُ إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فـخلِّ سبيله . فلم يزل في الحبس حتى هلك عمر فضرب يزيد بن عبد الملك عنقه .

وهكذا كـان علم عمـر بن عبـد العزيز وورعـه عاصـمين له من الظلم، فـالورع وحده لايكفي في الـعصـمة بدون العلم بالشـرع لأن المسلم بدون العلم قـد يقع في المخـالفات عـن جهل، والعلم وحـده لايكفي لأن المسلم قد يعلم الحكم ولكنه لايطبقـه اتباعا للهوى، وقد تميز عمر بن عبد العزيز في معاملة الخوارج بالعدل والحكمة .

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم: وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بهـا مالا عظيـما، فقـال لعمر بن عـبد العـزيز : كيف رأيت مافعلنا ياأبا حـفص ؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم [1].

فهـذا تقويم جـيد من عـمر بن عـبد العزيز لـعمل سليـمان بن عبدالملك ، فقد كان سليمان – لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال الإنفـاق – يظن أنه بإنفاقـه ذلك المال الكثيـر على الرعـية قد عـمل صالحا، فـأفاده عمر بن عـبد العزيز بأنه قد أخطأ حـينما صرف ذلك المال لغير مستحقيه وحرم منه أهله .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١ .

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه :

ذكر ابن عبد الحكم رحمه الله في روايته عن شيوخه قال : وكلَّم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبدالعزيز من بني عبد الملك ، فقال له سليمان بن عبد الملك : إن عبد الملك كتب في ذلك كتابا منعهن ذلك، فتركه يسيرا ثم راجعه، فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر فقال سليمان لغلامه : إئتني بكتاب عبد الملك ، فقال له عمر: أبالمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين ؟ فقال أيوب بن سليمان : ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه ، فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر ، فزجر سليمان أيوب ، فقال عمر : إن كان جهل فما حلُمْنا عنه ؟[1] .

فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق التي يُحْمد لعمر حيث اعتبر سليمانُ بن عبد الملك كتابة أبيه شرعًا لايمكن تغييره، فنبَّهه عمر إلى أن الكتاب الذي لايُنقض ولايغيَّر هو كتاب الله تعالى وحده.

وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورَّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يَعتبرون فيه قضاءهم شرعا نافذا من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ٣١ وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٩ .

وموقف يذكر لسليمان حيث وبّخ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق ، وهذا يدل على مايتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له ، كما أن من فضائله جعل عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ومن خاصته الأقربين ، ثم عقد الخلافه له من بعده .

عزله ولاة السوء :

إن من أهم المواقف الجريئة التي قام بها أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إقدامه على عزل ولاة السوء الذين اشتهروا بالظلم، وكان أول عمل قام به عزل أسامة بن زيد التنوخي ويزيد بن أبي مسلم ، قال ابن عبد الحكم في ذلك : وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي ، وكان على خراج مصر ، وأمر به أن يحبس في كل جند سنة، ويقيد ويحل عن القيد عند كل صلاة، ثم يرد إلى القيد، وكان غاشما ظلوما معتديا في العقوبات بغير ماأنزل الله عز وجل يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ، ويشق أجواف الدواب فيدخل فيها القطائع [1] ويطرحهم للتماسيح ، فحُبس بمصر سنة ، ثم نقل إلى أرض فلسطين فحبس بها سنة ، ثم مات عمر رحمه الله وولي يزيد ابن عبد الملك فردّ أسامة على مصر .

قال : وكتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية وكان عامل سوء، يُظهر التألُّه والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جلَّ أو صغر من السيرة بالجور والمخالفة للحق، وكان في هذا يُكثر الذكر والتسبيح، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذَّبون وهو يقول : سبحان الله

---

(١) لعل المراد الأيدي المقطوعه .

والحمد لله ، شُدَّ ياغلام موضع كذا وكذا لبعض مواضع العذاب، وهو يقول : لا إله إلا الله والله أكبر شدَّ ياغلام موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك شر الحالات [1] .

وهكذا كان أول عمل قام به عمر هو عزل هذين الواليين الظالمين، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم أنه كتب كتابَيْ عزلهما بعد دفن سليمان بن عبد الملك وقبل رجوع عمر إلى بيته ، مما يدل على شدة اهتمامه بإقرار العدل ورفع الظلم .

فهذان الواليان قد نسيا عبوديتهما لله تعالى ، فلم يصاحبهما الشعور بأنهما ومن فوقهما في المسئولية منفذون لشريعة الله تعالى، مستسلمون لأوامره ، بل كان الشعور الذي يسيطر عليهما هو محاولة إرضاء طموحهما نحو الطغيان والتجبر على الرعية، وإرضاء من فوقهما من المسئولين لاعتقادهما بأن إذلال الناس يقربهما من المسئولين.

وهذا الشعور الضاغط الذي يلازم الطغاة ويهيمن على تفكيرهم ينسيهم أي تفكير نحو إصلاح الرعية والإحسان إليهم لأن همهم منصرف إلى مدى البراعة في إتقان مجال النفاق والمداهنة لمن هم فوقهم، وتحصيل رضاهم بأي ثمن ، وإن كان يترتب على ذلك سخط الله تعالى عليهم ، وكراهية الناس لهم .

وفي الخبر الأخير مثل من التضليل بالتظاهر بالتدين حيث يُكثر ذلك الوالي من التسبيح والتهليل والتكبير ، في الوقت الذي يتسلَّى

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز /٣٧ - ٣٨ .

فيه برؤية المعذبين ، ويُصدر أوامره بالتشديد في تعذيبهم ، وهذا جهل منه وضلال ، ففي الوقت الذي يقول فيه لا إله إلا الله ، ينطق عمله الظالم بتعظيم غير الله تعالى ، لأن الله جل وعلا لايرضى بالظلم، وإنما ينطوي فكر هذا الوالي الظالم على إرضاء شهوة الجبروت والطغيان في نفسه أو نفوس من يعمل لكسب رضاهم .

وإذا كان يقول: الله أكبر، فكيف لم يجعل الله تعالى نُصْبَ عينيه وهو يعذب الناس ؟ فهل كان الله عز وجل أكبر في فكره حقا، أم كان الأكبر هُمْ من يعظمهم من دون الله تعالى ؟

وهذا الاتجاه له نتائجه الخطيرة على عقيدة المسلمين وسلوكهم، ولهذا كان غضب الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، فإنه لم يكن بمعزل عن واقع الأمة قبل الخلافة ، فلما تولى أمر المسلمين سارع إلى عزل الولاة الظَّلَمة الذين يعرقلون سير المجتمع نحو الصلاح .

قوته في الرجوع إلى الحق :

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى بن سعيد وربيعة بن أبي عبدالرحمن قالا : كان عمر بن عبد العزيز يقول : ما من طينة أهون علي فكّا ، ولا من كتاب أيسر علي ردّا من كتاب قضيت به ثم أبصرت أن الحق في غيره فنسخته [1] .

فهذا يدل على تغليبه نداء العقل السليم على نداء العواطف، وذلك مبعثه قوة ملاحظة الهدف الإسلامي الأعلى وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة، فإذا كان الإيمان بهذا الهدف قويا فإنه يتكون

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٩٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦١ .

لدى صاحبه عزوف عن اتباع هوى النفس وقوة في الشخصية تبعث على عدم المبالاة بانتقادات الناس ولافيما قد يتعرض له الجاه من اهتزاز لدى بعض الناس .

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر حسن بن القاسم الأزرقي : أنه كان عند عمر بن عبد العزيز ونفر من قريش يختصمون إليه فقضى بينهم ، فقال المقضي عليه : أصلحك الله إن لي بينة غائبة، فقال عمر : إني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتني ببينة وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه [1] .

تلذذه بتنفيذ الحق :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي بكر بن عمرو بن حزم قال قال لي عمر بن عبد العزيز : ماوجدت في إمارتي هذه شيئا ألذ من حق وافق هواي [2] .

وهكذا يعلن العظماء عن مواقع ملذاتهم . . إنهم لايتلذذون بمتاع الدنيا الزائل مهما لمع بريقه وقويت جاذبيته ، ولكنهم يعشقون المعاني السامية والمثل العالية التي من أبرزها تنفيذ الحق مع انشراح النفس له . . إنها متعة روحية عالية لايتذوقها إلا من صفا فكره وسمت مطالبه .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٦ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٠٧ .

بيانه مهمة الحاكم :

من مواقفه رحمه الله في بيان مهمة الحاكم قوله في إحدى خطبه: أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل إليكم كتاب ، فما أحل الله تعالى على لسان نبيه ﷺ فهو حلال إلى يوم القيامة ، وماحرم الله على لسان نبيه ﷺ فهو حرام إلى يوم القيامة ألا إني لست بقاض ، وإنما أنا منفِّذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل، لست بخير منكم ، ألا وإني أثقلكم حملا، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم ، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم (١) .

فقد بين رحمه الله أن مهمة الحاكم أنه منفذ لشريعة الله تعالى في الأرض ، وذلك في أمور سياسة الأمة الداخلية والخارجية وأمور الجهاد لحماية الأمة ولتبليغ الإسلام ، ثم في تنفيذ أحكام الإسلام التي يحكم بها القضاة كإقامة الحدود ورد المظالم ، ثم في الإشراف والرقابة على سائر أمور الأمة .

وفي تحديد مهمة أمير المؤمنين بكونه منفذا لشريعة الله تعالى بيان للخط السياسي الذي يجب أن يسير عليه ، فهو ليس مشرعا مع الله جل وعلا ، ولايجوز له أن يتأخر في تنفيذ شريعة الله تعالى .

ثم بين أنه - من ناحية المصدر الذي يتلقى منه - متَّبع للكتاب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤١ - ٤٢، وانظر تاريخ دمشق٤٥/ ١٧١ .

والسنة ومنهج الخلفاء الراشدين وليس بمبتدع شيئًا لم يُسبق إليه، فإذا استنكر بعض الناس وجوه الإصلاح التي يقوم بها فليس ذلك لأنها أمور مبتدعة وإنما ذلك لكون بعض السنن أُميِتَتْ ، وأحيَى الناس بدلاً منها البدع ، فصار المعروف منكرا والمنكر معروفا عند بعض الناس.

ثم بين أن طاعة السلطان ليست مطلقة وإنما هي مقيدة بطاعة الله سبحانه ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا أمر الحاكم بأمر يتعارض مع شريعة الإسلام فلايجوز تنفيذ أمره بل يجب تنبيهه ليرجع إلى الحق ، فينقذ نفسه وينقذ أمته من مخالفة أمر الله تعالى .

ثم بين أنه لاتلازم بين المسئولية والخيرية ، فليس كون الإنسان مسئولا يُخوِّله أن يكون خيرا ممن هم تحت مسئوليته، وإنما كلما عظمت المسئولية كانت التكاليف أشق وأثقل، فمن كان مسئولا عن أسرته فقط ليس كمن هو مسئول عن إدارة أو إمارة ، وصاحب الولاية العظمى هو أثقل المسلمين حملا، لأن كل مسئول يأتي يوم القيامة فيناقَش الحساب عن رعيته التي استرعاه الله إياها، كما قال النبي ﷺ « مامن وال على عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، فكَّه عدله أو أوبقه جوره » أخرجه الإمام أحمد [1] .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز بهذا الكلام دقيق الفهم لحقيقة الولاية حيث فهم أنها مَغْرم وليست بمغنم ، وأنها لاتزيد صاحبها شرفا ولارفعة ، وإنما هي ابتلاء بعمل ثقيل متواصل، إن أداه صاحبه على ما يُرضي الله تعالى كان عملا صالحا وأصبح نعمة على صاحبه،

---

(١) الفتح الرباني ٢٣/ ١٤ - ورجاله رجال الصحيح .

ودخل في زمرة من قال عنهم رسول اللـه ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله . . وذكر منهم الإمام العادل »[1] ، وإن عمل فيه بما يسخط الله تعالى كان عملا سيئًا وكان نقمة على صاحبه ودخل في زمرة من قال فيـهم رسول الله ﷺ « اللهم من وَلي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه » [2] .

ثم ختم خطبـته ببيان أن أفضـل العبادة فعل الواجبـات واجتناب المحرمات ، وذلك مقتبس من قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا « وماتقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»[3] وذلك يشمل فعل الواجبات واجتناب المحرمات .

وهذه الجملة تدل على عمق فهم عمر لشمول العبادة حيث جعل منها ترك المحرمات ، وعلى فقهه حيث قدم ذلك على فعل النوافل.

---

(١) صحـيح البـخاري رقـم ١٤٢٣ الزكاة (٣/ ٢٩٢) ، صـحـيح مـسلم ، زكـاة رقم ١٠٣١(ص٧١٥) .

(٢) صحيح مسلم رقم ١٨٢٨ ، الإمارة (ص ١٤٥٨) .

(٣) صحيح البخاري ، الرقاق ، رقم ٦٥٠٢ (١١/ ٣٤٠) .

من أخباره في العدل والاهتمام بالمسئولية

رغبته في التأسي بجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من خبر جعفر بن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر (١) : أما بعد فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من هذا الأمر عن غير مشورة ولاطلب له ولكن كان ماقدر الله عز وجل فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إلي بكتب عمر ابن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل العهد وأهل الذمة فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام، فكتب إليه سالم : جاءني كتابك تذكر أن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من هذا الأمر من غير طلب ولامشورة كان منك ولكن ماكان قدر الله أن يبتليك، فأسأل الله الذي ابتلاك بما ابتلاك به أن يعينك عليه فإنك لست في زمان عمر وليس عندك رجال عمر فإن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه وأتاح لك عمالا وأتاك بهم من حيث لاتحتسب فإن عون الله على قدر النية فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه والسلام (٢) .

فهذا طموح من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما أراد التأسي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة،

---

(١) جاء في كتاب الزهد « سالم بن عمر وصوابه ماأثبت لأن سالما هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٢) الزهد / ٣٠١ - ٣٠٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٢٢ .

حيث إنه في عهد قد تقررت هذه الأحكام فيه .

وماجاء في جواب سالم بن عبد الله بن عمر لايعتبر تيئيسا لعمر ابن عبد العزيز ، وإنما هو تذكير له بما يتطلبه ذلك التأسي من التكامل، حيث إن تطبيق الأحكام الشرعية لايؤدي مقاصده إلا إذا كان الولاة الذين سيتولون التنفيذ على مستوى هذه الأحكام فهما وقناعة ومقدرة على التنفيذ ، وقد أشار سالم إلى مايمحو هذا التيئيس ويفتح باب الأمل ، وذلك بصلاح نية المسئول الأعلى وتوجهه الصادق نحو الإصلاح ، فإن صلاح النية في ذلك يترتب عليه عون الله تعالى وتوفيقه إلى اختيار هؤلاء الولاة المتقين الذين يكونون عونا لأمير المؤمنين على معرفة الحق وتنفيذه .

تذكيره بالحساب الأخروي :

نقل الحافظ ابن كثير عن الشعبي قال: حج سليمان بن عبد الملك، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق الذي لايحصي عددهم إلا الله ، ولايسع رزقهم غيره!! فقال : يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم وهم خصماؤك عند الله، فبكى سليمان بكاء شديدًا ، ثم قال: بالله أستعين (١) .

فهذا التذكر السريع من عمر بن عبد العزيز لمشاهد يوم القيامة يدل على عمق يقينه ، حيث قارن سريعا بين مارآه من المشهد الدنيوي وماينتظر من الحساب الأخروي ، فذكَّر أمير المؤمنين سليمان بمسؤليته عن جميع المسلمين .

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٨٧ .

وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر مكي بن إبراهيم قال: كنا عند عبد العزيز بن أبي رواد في المسجد فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق، ففزع القوم فتفرقنا، فلما سكنت عدنا، فقال عبدالعزيز: خرج سليمان بن عبد الملك يوما إلى بعض البوادي فأصابهم نحو من هذا ففزع سليمان ونادى ياعمر ياعمر وكانوا- يعني بني أمية- إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز، فإذا عمر ينادي ها أنا ذا. قال: ألا ترى؟ قال: ياأمير المؤمنين إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك ياأمير المؤمنين، قال وماهو؟ قال قوم صحبوك في مظالم لهم لم يصلوا إليك، قال فجلس سليمان فرد المظالم [١].

وهكذا كان سلوك عمر بن عبد العزيز في التذكر والاعتبار عبرة لمن حوله، فقد كان لتذكيره سليمان بن عبد الملك بعذاب الله تعالى أثر في خشيته وإنابته، وقد كان من أثر ذلك أن وصل عمر إلى تذكيره بالعدل ورد الحقوق إلى أصحابها .

إتخاذه رقباء على نفسه ليستقيم على الحق :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عمرو بن مهاجر قال قال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل : ياعمر ماتصنع ؟! [٢] .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٣ .

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٦ .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي حازم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال : انظروا رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قُبالَه فقال لهما: إنه مجلس شرَة وفتنة فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي، فإذا رأيتما مني شيئا لايوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل [١].

فهذا مثل من تصميمه على الحكم بالحق، وهو لكونه يعرف ضعف بني آدم ، وأن الإنسان يسير في هذه الحياة بين أعداء لدودين: نفسه الأمارة بالسوء التي تزين له اتباع الهوى ، والشيطان الرجيم الذي يوسوس له ويخادعه ويقلل في عينه مسالك الانحراف، ويضخم في عينه مهابة الناس، وشياطين الإنس الذين مايزالون يفتلونه في الذروة والغارب ليسقطوا على مواقع الضعف فيه فينفذوا منها إلى السيطرة عليه وتسخيره لباطلهم ، فهو لكونه يعرف ذلك كله لم يعتمد على مايرى من قوة إيمانه وعزمه الأكيد على تنفيذ الحق ودحر الباطل، بل جعل على نفسه رقباء من أهل التقوى بعيدا عن ساحة المعركة التي يخوضها هو ليدرك ما قد يفوته أو يغلب عليه من مناحي الانحراف عن الطريق المستقيم .

وفي تعبيره عن الطريقة التي أرشد إليها ذلك الأخ في الرواية الأولى في تنبيهه إلى الحق مثل من تواضعه الكبير، وتجرده من حظ النفس، واعتباره تنفيذ الحق أعلى من مراعاة الجاه والمنزلة الاجتماعية.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز /١٤٦ - ١٤٧ .

ماقام به من رد المظالم :

قال ابن عبد الحكم - في بيان ماقام بـه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافـة - : واحتجب عن الناس ثلاثا لايدخل عليه أحد ، ووجوه بني مـروان وبني أمية وأشراف الجنود والـعرب والقواد ببـابه ينظرون مـا يخرج به عليـهم منه ، فـجلس للناس بعـد ثلاث وحملهم على شريعـة من الحق فعرفوها ، فرد المظالم وأحـيا الكتاب والسنة وسار بالعدل ، ورفض الدنـيا وزهد فيها ، وتجرد لإحـياء أمر الله عز وجل، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل ، فرحمه الله [1] .

وهكذا رسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سياسته التي سيسير عليهـا ، حيث أحـصى المظالم فردها إلى أصحـابها، وكـان قويا في فرض الحق ، فلم يخش المعـارضين مع كثرتـهم وتحزبهم، ولم يخش أحدًا من الظلمـة ، لأنه كان يخش الله تعالى وحده ، حـيث أصبح قلبه مملوءًا بالإيمان بالـله جل وعلا وحبه وخـشيتـه ، ولم يكن لمراكز القوى المحيطة بـه أي أثر في صده عن تنفيذ الحق، لأن قلبـه قد تجرد للإيمان بالله تعالى وحده فلم يستـطع الشيطان أن يغريه بالدنيا ولا أن يخيفه بأصحاب النفوذ ولا من وراءهم من طلاب الدنيا .

بدؤه بنفسه وأهل بيته :

ومن عدالته أنه بدأ بنفسه وأهل بيته ، وفي ذلك يقول أبو بكر بن أبي سبرة : لمارد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٠ .

بأول من نفسي ، فنظر إلى مافي يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم فقال : هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب، فخرج منه [1] .

ومن ذلك ماجاء في قول عبد المجيد بن سهيل: رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ماكان بأيديهم من المظالم ثم فعل بالناس بعد [2].

ولقد سهل على الناس وصول حقوقهم إليهم ، وفي ذلك يقول أبو الزناد : وكان عمر يرد المظالم على أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفي بأيسر من ذلك ، إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة [3].

من كتاباته في رد المظالم :

ومن كتاباته إلى الولاة في رد المظالم مارواه عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد المظالم إلى أهلها، فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق، وحتى حمل إلينا عمر المال من الشام [4].

وكذلك ماجاء في خبر أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : والي المدينة قال : كتب إلي عمر بن عبد العزيز : أن استبرئ

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٤١ .

(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٤١ .

(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٤٢ .

(٤) طبقات ابن سعد ٥/٣٤٢ .

الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم .

وجاء في هذا الكتاب - كما ذكر موسى بن عبيدة - وإياك والجلوس في بيتك ، اخرج للناس فآسِ بينهم في المجلس والمنظر، ولايكن أحد من الناس آثر عندك من أحد، ولاتقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين ، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء ، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم ، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه [1].

وهذا من كمال عدله ومساواته بين المسلمين ، وذلك يدل على قوة إيمانه ورجاحة عقله .

ولقد كان رد المظالم عملا كبيراً استغرق خلافة عمر بن عبدالعزيز كلها كما جاء في خبر سليمان بن موسى قال: ما زال عمر بن عبدالعزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات [2] .

حرصه على الإسراع في رد المظالم :

ولقد كان حريصا على الإسراع برد المظالم إبراء للذمة وخوفا من حلول الأجل قبل إكمال ذلك ، ومن أخباره في ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب بن موسى قال :كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة عامله على اليمن : أما بعد فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولاتعرف بُعْدَ مسافة مابيني وبينك ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) المرجع السابق ٥/٣٤١ .

ولاتعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت : أرددها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولاتراجعني (١) .

وهكذا يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لواليه على اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي أهمية الإسراع في رد المظالم وأن لايضيع الوقت بالكتابات الاستفسارية عن أمور واضحة، وفي هذا لفت نظر إلى أن من أسباب نجاح الوالي أن يتصرف باجتهاده في الأمور التي لاغموض فيها ولا لبس، من باب كسب الوقت والسرعة في الإصلاح .

مثل من صرامته ومالقي من عشيرته :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن أبي حكيم قال: أتى عمر بن عبد العزيز كتاب من بعض بني مروان فأغضبه ثم قال : إن لله في بني مروان ذبحا، وايم الله لئن كان الذبح على يدي . . فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته وأنه إن وقع في أمر مضى فيه (٢) .

وقوله « إن لله في بني مروان ذبحا » لعله أخذه من سنة الله تعالى الجارية في الانتقام من الظالمين، وأن الله سبحانه يمهلهم بعض الوقت ولايهملهم، فإذا أراد الانتقام منهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨١ .

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ .

مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: لما قطع عمر بن عبد العزيز على أهل بيته ماكان يجري عليهم من أرزاق الخاصة وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم تكلم في ذلك عنبسة بن سعيد فقال : ياأمير المؤمنين إن لنا قرابة ، قال : لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد، فلا يمنعه من أخذه حقه إلا بُعْد مكانه، والله إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله (١) .

وهذا مثل من كمال عدله حيث تنزه عن محاباة عشيرته ، وفي إخباره عن نزوله عذاب الله تعالى تصوير لسنة من سنن الله جل وعلا، وذلك أنه كلما تمحضت الأرض للشر كانت مهددة بنزول عذاب من عند الله تعالى ، ولكنه سبحانه يدرأ عنها العذاب استجابة لدعاء الصالحين، ولذلك فإن المؤمن الحق يستأنس بكثرة الصالحين، ويستوحش من كثرة الفاسقين والمفسدين في الأرض .

وذكر الحافظ أبو نعيم من خبر عمر بن مقدم قال: قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر، قال فاستأذنت له فقال : أدخله، فأدخلته على عمر فقال ابن سليمان: ياأمير المؤمنين علام ترد قطيعتي ؟ قال: معاذ الله أن أرد قطيعة صحت في الإسلام . قال فهذا كتابي وأخرج كتابا من كمه،فقرأه عمر فقال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٥ .

لمن كانت هذه الأرض ؟ قال للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو أولى بماله ، قال : فإنها من بيت مال المسلمين، قال فالمسلمون أولى بها قال : ياأمير المؤمنين رد علي كتابي، قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل، قال: فبكى ابن سليمان ، قال مزاحم : فقلت : ياأمير المؤمنين ابن سليمان اللائط الحب [1] اللازق بالقلب تصنع به هذا ؟ قال: ويحك يامزاحم إنها نفسي أحاول عنها، وإني لأجد له من اللوط ماأجد لولدي [2] .

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تجاذب نفسي بين مقام العدل بعدم تخصيص أفراد عشيرته بشيء دون أفراد الأمة وبين مقام الرحمة بمن يحبهم من أفراد عشيرته ممن يشعرون بأنهم قد تضرروا بحكمه ، ولكن ليس هناك مجال للموازنة بين الأمرين لوضوح وجوب العدل وعدم الالتفات إلى عاطفة النفس لأن عاقبة ترك الواجب خضوعا للعاطفة هي الهلاك في الآخرة ، ولايمكن عقد مقارنة بين الدنيا والآخرة .

خبر روح بن الوليد وخصمائه :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وكان للوليد بن عبد الملك ابنٌ يقال له روحٌ وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي ، فأتى ناسٌ من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون روْحًا في حوانيت بحمص - وكانت لهم أقطعه إياها أبوه الوليد بن عبد الملك - فقال له

(١) أي الشديد الحب من لاط يلوط لوطا .

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ - ٢٨٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٨.

عمر: اردد عليهم حوانيتهم. قال له رَوْحٌ: هذا معي بسجل الوليد. قال: وما يغني عنك سجلّ الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها؟ خَلِّ لهم حوانيتهم. فقام روحٌ والحمصي منصرفَين فتوعَّد روح الحمصي فرجع الحمصي إلى عمر فقال: هو والله متوعِّدني ياأمير المؤمنين فقال عمر لكعب بن حامد -وهو على حرسه-: اخرج إلى روح ياكعب فإن سلَّم إليه حوانيته فذلك وإن لم يفعل فائتني برأسه. فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد، فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده، وخرج إليه كعب وقد سلَّ من السيف شبراً فقال له: قم فخلِّ له حوانيته قال: نعم نعم فخلَّى له حوانيته (١).

إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: لما دفن عمر سليمان صعد إلى المنبر فقال « إني قد خلعت مافي أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك » فنزل فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخالها - أو قال إدخال ثمنها - بيت المال، ثم ذهب يتبوأ مقيلا، فقال ابنه عبد الملك تقيل ولاترد المظالم؟ قال أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم، قال من لك أن تعيش إلى الظهر؟ فخرج ولم يَقِلْ، فأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٦٠ - ٦١ .

الرأس واللحية ، فقال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال وماذاك؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي-والعباس جالس- فقال له: ياعباس ماتقول ؟قال أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلا، فقال ماتقول ياذمي ؟ قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر كتاب أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، اردد عليه ياعباس ضيعته، فرد عليه، فجعل لايدع شيئا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة (١) .

فهذان مثلان من صرامة عمر بن عبد العزيز وحزمه في تطبيق الأحكام الشرعية ، فهو لين رحيم فيما يتعلق بنفسه ولكنه قوي شديد فيما يتعلق بأحكام الله تعالى .

وفي هذين الخبرين مثل من انقلاب المفاهيم عند أهل الدنيا ، فالحق عند هذين الرجلين المعتديين هو ماقرره أبوهما الوليد وإن كان ظالما معتديا من غير نظر فيما ينجيهما من المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة ، وماأعظم خسارة هؤلاء الذين يعتدون على أموال الناس ولايردعهم من ذلك إلا قوة السلطان !! فإنهم قد خسروا دنياهم لانتزاعها منهم بالقوة وخسروا آخرتهم لأنهم ليس لهم نية في إنصاف المظلومين ورد حقوقهم إليهم .

نزعه إقطاع أحد الرجال :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز /٨٦ .

يحيى الغساني : حدثني أبي عن جدي قال : كنت عند هشام بن عبد الملك جالسا ، فأتاه رجل فقال ياأمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها، فقال له هشام أعد مقالتك فقال : ياأمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان، حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها ، فقال والله إن فيك لعجبا، إنك تذكر من أقطع جدك قطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليهم وتذكر من نزعها فتترحم عليه، وإنا قد أمضينا ماصنع عمر رحمه الله (١).

في هذا الخبر موقفان أحدهما لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حيث رد ذلك الإقطاع الذي أعطيه ذلك الرجل بغير حق إلى بيت مال المسلمين .

والثاني موقف لأمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى، حيث حكم بالحق ولم تأخذه العصبية لأبيه عبد الملك وأخويه الوليد وسليمان فأقرحكم عمر بن عبد العزيز، وقد تعجَّب من ذلك الرجل المتظلم حيث ترحَّم على عمر بن عبد العزيز الذي نزع منه القطيعة ولم يترحَّم على عبد الملك الذي أقطع جده تلك القطيعة ولا على الوليد وسليمان اللَّذَين أقراها ، وهذا يعني أن هناك إحساسا لدى أفراد الأمة بعدالة عمر بن عبد العزيز وصلاحه حتى بالنسبة لمن تضرروا منه في دنياهم .

(١) حلية الأولياء ٥/٢٤٥ .

مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر جويرية بن أسماء . قال: قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : مايمنعك أن تنفذ لرأيك في هذا الأمر ؟ فو الله ماكنت أبالي أن تغلى بي وبك القدور في إنفاذ هذا الأمر ، فقال عمر : إني أروض الناس رياضة الصعب، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي ، وإن عجلت علي منية فقد علم الله نيتي، إني أخاف إن بادهت الناس بالتي تقول أن يلجئوني إلى السيف، ولاخير في خير لايجيء إلا بالسيف (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم من طريقين : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على عمر فقال : ياأمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخْلِني - وعنده مسلمة بن عبد الملك - فقال له عمر: أسرٌّ دون عمك ؟ فقال نعم ، فقام مسلمة وخرج، وجلس بين يديه فقال له: ياأمير المؤمنين ماأنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سنة لم تحيها ؟ فقال : له يابني أشيء حملتكه الرعية إلي، أم رأي رأيته من قبل نفسك ؟ قال: لا والله ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، وعرفت أنك مسئول فماأنت قائل ؟ فقال له أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرا، فو الله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير يابني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ماأريد مكابرتهم على انتزاع مافي أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقا تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون على من أن

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ .

يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لايأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين (١).

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حكيما يوازن بين المصالح والمفاسد ، فلا يتجه إلى تغيير منكر يترتب عليه منكر أكبر منه، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فبقاء الناس على ماهم فيه من بعض الظلم أولى من سفك دماء المسلمين إذا كان رد المظالم بسرعة سيترتب عليه ذلك، ولكن الحكمة تقتضي التمهل في ذلك وسياسة الناس بالتدرج حتى ترجع الحقوق إلى أصحابها ويرتدع الظالمون دون حدوث فتنة دموية .

ولقد كان ابنه عبد الملك شديد التحمس لرد المظالم دفعة واحدة فهو شاب قوي الإيمان ، لكنه لم يكن في مستوى أبيه من الحكمة والفقه في تطبيق الأحكام الشرعية .

حواره مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بشر بن عبد الله بن عمر عن بعض آل عمر أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز : ياأمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ماأكلمك به ، إنهم يقولون استأنف العمل برأيك فيما تحت يديك، وخلِّ بين من سبقك وبين ماولوا ممن كانوا يلون أمره بما عليهم ولهم فقال له عمر : أرأيت لو أُتيتُ بسجلَّين أحدهما من معاوية والآخر

(١) حلية الأولياء ٥/٢٨١ - ٢٨٣ .

من عبد الملك بأمـر واحد فبأي السجلين كنت آخـذ؟ قال بالأقدم ولا أعدل به شيئًا ، قال عمر : فـإني وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي في مالي وفيما سبقني .

فقـال له سعيد بن خـالد بن عمرو بن عـثمان : ياأمـير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل، وخل عـمن سبقك وعما ولي خيره وشـره، فإنك مكتف بذلك . فقال له عـمر : أنشدك الله الذي إليه تعود أرأيت لو أن رجلا هلك وترك بنين صغارا وكبارا فعز الأكابر الأصاغر بقـوتهم فأكلوا أموالهم ، فأدرك الأصاغـر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أمـوالهم ماكنت صانعـا ؟ قال: كنت أرد عليهم حقـوقهم حتى يستوفوها . قال: فإني قد وجدت كثيراً ممن قبلي من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم . وعـزهم بها أتباعـهم . فلما وليت أتوني بذلك، فلـم يسـعني إلا الـرد على الضـعـيف من القـوي، وعلى المستضعف من الشريف. فقال : وفقك الله ياأمير المؤمنين [1].

فهـذان جوابان جليـلان من أميـر المؤمنين عمـر بن عبد الـعزيز استطاع بهما أن يسكت هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان اللذين حاوراه فيـما قام به من رد المظالم، فقد سكت هشام ووافق سعيد بن خالد ودعا لعـمر بن عبد العزيز، وهذا دليل على أن أولئك القوم الذين ورثوا الظلم يدركون أن مـاتقدم به الولاة السابقون كان ظلـما، ويريدون من عـمر بن عبـد العزيز أن يتـرك الناس على مظالمهم فإنه ليس مسئولا عن ظلـم من سبقه وأن يهتم فقط بتنزيه نفسه

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٢ .

عن مباشرة الظلم ، ولكنه أفهمهم بأنه لو أقر ظلم من سبقوه يكون شريكا لهم في ظلمهم .

خطبته أمام الغرباء :

من مواقفه في العدل قوله في خطبة خاطب بها الغرباء فقال: ياأيها الناس الحقوا ببلادكم فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم، وإني قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم ، ولكنهم خير ممن هم شر منهم ، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة فلا إذن له عليّ ، ومن لا فلا أرينَّه ، ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضننت به عنكم إني إذًا لضنين ، والله لولا أن أُنعِشَ سُنَّة أو أَسِيرَ بحقّ ما أحببت أن أعيش فيكم فواقا [1] .

وقول عمر بن عبد العزيز للغرباء : « فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم » دليل على ضبطه لأمور رعيته ، وذلك بتولية الولاة الأكفاء الذين يتفقدون أحوال الرعية ويرفعون حوائجهم لأمير المؤمنين مع متابعته لهم .

وقد بقي الغرباء في عاصمة الدولة ظنًّا منهم أنَّ الولاة سينسونهم كما نسيهم الولاة السابقون ، وقد بين لهم عمر أنه لم يأل جهدا في اختيار الولاة الأكفاء الذين على يدهم يتم صلاح الرعية .

ثم ذكر أن بابه مفتوح لسماع شكوى المظلومين الذين لم يستطع الولاة أن يرفعوا عنهم الظلم،أو وقع الظلم عليهم من الولاة أنفسهم.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٢ ، والفواق قدر حلب الناقة، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٤٤، ٥٨ ، وتاريخ دمشق٤٥/ ٢٠٠ .

أما من ليس له مظلمة وليس لديه مشورة أو إصلاح يهمُّ الأمة فليس من المصلحة أن يتردد على المسئول ، لأن في ذلك إضاعة وقت عليه و على المسئول ، وذلك يترتب عليه إضاعة مصلحة المسلمين العامة ، إضافة إلى أن المسلم مسئول عن كل دقيقة تمر عليه بغير فائدة، ومن ذلك مراجعة المراجعين في قضايا يعلمون سلفا أنهم لن يحصلوا فيها على شيء فإن ذلك لافائدة فيه بل فيه ضرر إضاعة الوقت عليهم وعلى المسئولين .

ثم يتحدث عن المال الذي هو عصب الحياة، والذي من أجله يقتتل المتنافسون على الدنيا ، فيُطَمئن الرعية إلى أنه ليس من المعقول أن يحرم منه نفسه وعشيرته ثم يحبسه عن الأمة .

إن الذي كان يحرم بعض الأمة من مال الدولة قبل عهد عمر كون المسئولين على مختلف مستوياتهم ومن حولهم من المستفيدين منهم قد تمتعوا بنصيب كبير من ذلك المال إلى حد الإسراف والتبذير، فحينما جعل أمير المؤمنين عمر نفسه وعشيرته كأي فرد من أفراد الرعية فإن بقية المسئولين سيسيرون على سنته ، وبالتالي سيتوفر مال كثير يعود على المحتاجين من الأمة ، وقد حصل ذلك فعلا حيث كان الأغنياء يدورون بصدقاتهم في عهد عمر يبحثون عن الفقراء فلا يجدونهم، قد أغنى عمر الناس ، كما جاءت الرواية بذلك .

ثم بين أنه ليس حريصا على البقاء في الحكم إلا لهدفين: إحياء السُّنن بعدما أُميتت ، والحكم بالحق بعدما عم الباطل كثيراً من أرجاء الأرض ، وهكذا يفهم عمر الولاية على أنها عمل صالح يتقرب به

إلى الله عز وجل ، ومَنْ فهم هذا الفهـم فإنه بعيد منه أن يظلم أو أن ينحرف عن طريق الحق ، لأنه لو فعل ذلك لحـصل له نقيض قصده، حيث سيكسب بالولاية أعمالا سيـئة ، فيخسر في الوقت الذي يكون هدفه أن يربح ويفلح .

رده منحة عنبسة بن سعيد :

من مواقفه الجريئة رحمه الله عدله في توزيع مال المسلمين ورفضه تخصيص أفراد عشيـرته بشيء من ذلك، ومن أخبار ذلك ماذكره ابن عبد الحكم في أخباره عن شيوخـه قال: ولما ولي عمر بن عبد العزيز رد المظالم والقطائع، وكان سـليمان بن عبـد الملك قد أمر لعنبـسة بن سعيد بن العاص بعـشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قـبضها فـتوفي سليمـان قبل أن يقبضـها وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيمـا أمر له به سليمان ، فوجـد بني أمية حضورا ببـاب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا: ننظر مايصنع به قبل أن نكـلمه . فقـالوا له : أَعْلِمْ أميـر المؤمنين مكاننا ،وأعلمنا مايصنع بك في أمـورك ، فدخل عنبـسة على عمـر فقال له: ياأمـير المؤمنين إن أميـر المؤمنين سليمان قـد كان أمر لي بعـشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها، فتوفي على ذلك، وأمير المؤمنين أولى باسـتتمام الصنيعـة عندي، ومابيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان ، قال له عمر : كم ذلك؟ قال : عشرون ألف دينار ، قال عمـر : عشرون ألف دينار تُغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفـعها إلى رجل واحـد ! والله مالي إلى ذلك

من سبيل ، قال : فرميت بالكتاب الذي فيه الصك، فقال لي عمر : لا عليك أن يكون معك فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال مني فيأمر لك بها .

قال : عنبسة : فأخذته تبركا برأيه ، وقلت له : ياأمير المؤمنين فما بال جبل الورس ؟ وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر : ذكّرتني الطعن وكنت ناسيا ، ياغلام هلم ذلك القفص فأُتي بقفص من جريد فيه قطائع بني عبد العزيز فقال: ياغلام اقرأ علي، فكلما قرأ قطيعة قال : شقَّها ، حتى لم يبق في القفص شيء إلا شقه ، قال عنبسة : فخرجت إلى بني أمية وهم وقوف بالباب فأعلمتهم ماكان من ذلك فقالوا : ليس بعد هذا شيء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ، فرجعت إليه فقلت: ياأمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ماكان من قبلك يُجرى عليهم، فقال عمر: والله ماهذا المال لي ومالي إلى ذلك من سبيل، قلت: يا أمير المؤمنين: فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان ،قال: ماشاؤوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم ، قال قلت: وأنا أيضًا ،قال: وأنت أيضًا قد أذنت لك، ولكن أرى لك أن تقيم فإنك رجل كثير النقد وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها مايكون لك في ربحه عوض مما فاتك ، قال: فأقمت تبركا برأيه فابْتَعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق فبعتها بِمِئَتَيْ ألف ، وحبست الصك فلما توفي عمر وولي يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فانفذ لي ماكان فيه [1] .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٨ .

في هذا الخبر بيان جرأة الولاة قبل عمر بن عبد العزيز وبعده على أموال المسلمين، فكان الولاة يختصون عشائرهم وكبار أهل الدنيا الذين يخشون منهم بكثير من هذا المال ، ومن ذلك ماأمر به سليمان لعنبسة بن سعيد ولكن عمر رد تلك المنحة وبين أنها تكفي لأربعة آلاف بيت من المسلمين ، فكيف يعطيها لرجل واحد ؟

إن إعطاء القلة من ذوي النفوذ تلك العطايا الكبيرة على حساب بقاء أفراد الأمة في حاجة ومسغبة يعتبر ظلما وإجحافًا كبيرا ، وهذا هو أهم الأمور التي نذر عمر نفسه للقضاء عليها .

لقد كان يدور في الأوساط السياسية آنذاك بأنه لايصلح لسياسة الأمة إلا من كان نهابا وهابا ، حيث يقوم بنهب أموال الأمة العامة ليستميل بها بعض الأكابر الذين يقومون بحماية الدولة وفرض سيطرتها ولكن عمر بن عبد العزيز نجح في سياسته الإسلامية نجاحا كبيرًا ، وقد كان عفيفا وهابا ، كان عفيفا عن أموال الأمة العامة، وهابا للمال للمحتاجين من الأمة ومن يقومون بأمرها بالقصد والاعتدال، ومع أنه قد منع الأقوياء وأصحاب النفوذ من الخصوصيات التي كانت تمنح لهم فإنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا ضد دولته مع حرصهم على ذلك ، لأن دولته أصبحت محمية من جميع أفراد الأمة الذين رجعت لهم حقوقهم ، وتحسنت أحوالهم المعيشية .

وحينما ذكَّره عنبسة بن سعيد بجبل الورس وهو أحد الإقطاعات التي آلت إليه من ولاة العهد السابق تمثل بالمثل المشهور : « ذكَّرتني الطعن وكنت ناسيا » فدعا من فوره بأوراق الإقطاعات التي تخص بني عبد العزيز بن مروان فشقها جميعها .

وهو بهذا يبين للمستفيدين من الوضع السابق أنه أول من يطبق السياسة الإسلامية على نفسه وأسرته .

ولهذا يئس بنو قومه من عودتهم إلى ماكانوا عليه من خصوصيات مالية ، واستأذنوه في السفر ليعملوا في التجارة كما يعمل غيرهم من أبناء الأمة .

إنصافه أحد الرعية من عامله عروة :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : واستعمل عمر بن عبد العزيز عروة بن عياض بن عدي على مكة، فخرج عمر من مكة، وخرج معه من خرج يشيعه حتى نزل بمَرٍّ (١) ومعه عروة، فجاء رجل فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، ظُلمت ولا استطيع أن أتكلم ، فقال عمر : ويحه أُخذَتْ عليه يمين ثم قال: إن كنت صادقًا فتكلم فقال: أصلحك الله ، هذا - وأشار إلى عروة - سامني بمالٍ لي وأعطاني به ستة آلاف درهم، فأبيت أن أبيعه فاستعداه عليَّ غريمٌ لي فحبسني فلم يخرجني حتى بعته مالي بثلاثة آلاف درهم، واستحلفني بالطلاق إن خاصمته أبدًا ، فنظر عمر إلى عروة ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال هذه غرتني منك ثم قال للرجل: اذهب فقد رددت عليك مالك ولاحنث عليك (٢).

وهكذا ابتلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ببعض الولاة الذين انخدع بمظهرهم الديني، فكانت سرائرهم تختلف عن علانيتهم، فهذا

---

(١) يعني مَرَّ الظهران وهو مكان قرب مكة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤ .

الوالي الذي ولاه عمر على مكة كان يظن أنه من العابدين، ومن كانوا كذلك فلا يتوقع منهم أن يرتكبوا شيئا من ظلم العباد، ولكنه وقع في الظلم المذكور في الخبر وأحاط ظلمه بما يكفل له عدم وصول خبره إلى أمير المؤمنين ، ولكن ذلك المظلوم وصل إليه وقدم له شكواه فأنصفه، ولم يكن أمير المؤمنين بحاجة إلي استفتاء العلماء في موضوع الطلاق المذكور لأنه كان من أبرز علماء عصره، فلذلك أفتاه في الحال بعدم وقوع الطلاق عليه لأنه مكره، ولايقع الطلاق مع الإكراه .

إنصافه أهل سمرقند :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر طفيل بن مرداس قال: كتب عمر إلى سليمان بن أبي السَّريّ : أن اعمل خانات في بلادك فمن مربك من المسلمين فاقْرُوهم يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فاقْرُوه يومين وليلتين ، فإن كان منقطعا به فقوّوه بما يصل به إلى بلده .

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأْذَن لنا فليَفِدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أُعطيناه، فإنَّ بنا إلى ذلك حاجة، فأذِن لهم ، فوجهوا منهم قوما فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري: إن أهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلمًا أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن

قضى لهم فأخْرَجْهم (١) إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

قال : فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي الناجي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرًا عنوة ، فقال أهل السُّغد(٢): بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حربا ، وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمِنونا وأمنّاهم ، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولاندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ماكان ورضوا ولم ينازعوا (٣) .

فهذا مثل من عدل عمر بن عبد العزيز واهتمامه بأمور الأمة ، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور :

أولها : أن الناس يُقبلون على التظلُّم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين ، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجدّ وسيُنظر فيها بعدل ، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ماهم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان ، فلما رأوا عدل عمر ابن عبد العزيز رفعوا قضيتهم .

ثانيها : أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي ، وهذا مثل من الخضوع للإسلام

---

(١) يعني المسلمين الغزاة .

(٢) السغد قوم يسكنون بعض بلاد ماوراء النهر .

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٧ - ٥٦٨ .

والتجرد من هوى النفس ، وكان باستطاعته أن يعـمل كما يعمل كثير من المسـئولين ،من إرسال خـطابات الوعيد والـتهديد، والبـحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم،ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة،وذلك لايكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

ثالثـها : أن أولئك القـوم قد أسـقط في أيديهم لما اطلعـوا على كتـاب أمير المؤمنين عـمر بن عبد العـزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم ، وأن مصلحتهم في بقائهم على ماهم عليه ، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي .

كتابه إلى عمر بن الوليد :

قال أبو محمـد عبد الله بن عبد الحكم رحمـه الله تعالى : وقال سليمان بن داود الخولاني : إن عمر بن عبد العزيز كان يقول: ياليتني قد عـملت فيكم بكتاب الله، وعـملتم به، فكلما عمـلت فيكم بسنةٍ وقع مني عضو ، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي .

ولما أقـبل عمـر على ردِّ المظالم وقـطع عن بني أمـية جـوائزهم وأرزاق أحراسهم، ورد ضياعهم إلى الخراج، وأبطل قطائعهم فأفقرهم ضجّـوا من ذلك فاجـتمعـوا إليه فـقالوا : إنك قد أخليـت بيت مال المسلمين، وأفقـرت بني أبيك فيما تردّ من هذه المظالـم، وهذا أمرٌ قد وليه غـيرك قـبلك ، فدعـهم وماكان مـنهم ، واشتغل أنـت وشأْنك واعمل بما رأيت . قال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا: نعم . قال: ولكن لاأرى ذلك ، والله لَوَدِدت أن لاتبقى في الأرض مَظْلَمـة إلا رددتها،

على أن لا أرد مظلمة إلا سقط لها عضوٌ من أعضائي أجد ألَمه، ثم يعود كما كان حيًّا ، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سالت نفسي عندها. قال : فخرجوا من عنده فدخلوا على بعض ولد الوليد- وكان كبيرهم وشيخهم [1] - فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبِّخه لعلَّه أن يردَّه عن مساءتهم فكتب إليه .

أما بعد فإنك أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم وسميتَها المظالم تنقصًا لهم ، وعيبًا لأعمالهم ، وشنآنًا لمن كان بعدهم من أولادهم . ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم ، فأدخلتها بيت مالك ظلمًا وجورًا وعدوانًا فاتَّق الله يابن عبد العزيز وراقبه فإنك قد شططت ، لم تطمئن على منبرك ، حتى خصصت ذوي قرابتك بالقطيعة والظلم، فو الله الذي خصَّ محمدًا ﷺ بما خصه به من الكرامة ، لقد ازددت من الله بعدًا في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاءٌ عليك وهي كذلك. فاقتصد في بعض ميلك وتحاملك . اللهم فاسأل سليمان بن عبدالملك عما صنع بأمة محمد ﷺ حين استخلفك عليهم .

قال فكتب عمر بن عبد العزيز إليه ، من عمر أمير المؤمنين إلى فلان بن الوليد . سلامٌ على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأما بعد فإن أول أمرك يافلان أن أمك بنانة أمة السكوني كانت تدخل دور حمص وتطوف حوانيتها والله

---

(١) هو عمر بن الوليد بن عبد الملك كما جاء في رواية ابن الجوزي .

أعلم بها فاشتراها دينار بن دينار من فيء المسلمين فأهداها إلى أبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس الجنين ثم نشأت فكنت جباراً شقيّاً كتبت إليَّ تُظلِّمني وزعمت أن حُرمتك وأهل بيتك في مال المسلمين الذي فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل، وإنما أنت كأحد منهم لك مالهم وعليك ماعليهم ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله الذي استعملك صبيًّا سفيهًا تحكم في دماء المسلمين وأموالهم برأيك لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ولم يكن ذلك له ، ولاحق له فيه ، فويلك وويل أبيك ماأكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه ؟ وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لفلانة البربرية سهمًا في فيء المسلمين وصدقاتهم . أهاجرتْ ثكلتك أمك أم بايعتْ بيعة الرضوان فتستوجبَ سهام المقاتلين ؟وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرَّة بن شريك أعرابيّا جلفا جافيًا على مصر ،وأذن له في المعارف والبرابط والخمر ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من ولىَّ يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام . رويدك فإنه لو قد التقت علينا حَلْقَتا البطان ، وطالت بي حياةٌ ،وردَّ الله الحق إلى أهله تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمتكم على المحجة البيضاء فطال ماأخذتم بُنَيَّات الطريق، وتركتم الحق وراءكم ، ومما وراءَ هذا ماأرجو أن يكون خير رأي أُبَتُّه بيع رقبتك فإن لكل مسلم فيك سهمًا في كتاب الله ، والسلام على من اتبع الهدى ، ولاينال سلام الله الظالمين (١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /١٤٧ - ١٥١ ، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي / ٩٣ .

في هذا الخبر مثل من قوة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تنفيذ الحق، وأنه لايخشى في الله لومة لائم .

وفيه مقارنة واضحة بين أعماله التي أنجزها في العدل وإنصاف عامة المسلمين من كبرائهم ، وبين أعمال بعض من سبقه من الولاة في ظلم العامة ومداهنة الكبراء .

وفيه مثل من تدنِّي مستوى إلفهم وعمى البصيرة عند من استمرأ الجبروت والطغيان ، حيث قلَب ابن الوليد الحقائق، فجعل العدل ظلما واعتبر الظلم عدلا ، لأن العدل في نظره أن يأخذ هو وأمثاله حريتهم الكاملة في التصرف بأموال العامة ، واعتبر تطبيق العدالة عليهم نوعا من قطيعة الرحم ، ولو أدرك وعقل لعرف أن أعظم صلة الرحم أن يمنع الإنسان أقاربه من المعاصي ، وأن يدلهم على طاعة الله تعالى .

وهذا الخلط في المفاهيم والموازين ناتج من غلبة النظر إلى الدنيا على النظر إلى الآخرة ، وحينما تكون الآخرة حاكمة على الدنيا يصفو الفكر ويستقيم السلوك .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز شديداً في رده على هذا الرجل لأنه في نظر عمر قد بلغ من الجفاء والتجبر حدا لايجدي معه خطاب العقل ونداء الحس الإيماني .

جوابه لعنبسة حينما سأله :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : قال عمر بن عبدالعزيز لعنبسة بن سعيد – وسأله حاجة – ياعنبسة إن كان مالك الذي أصبح

عندك حلالا فهو كافيك، وإن كان حـرامًا فلا تزيدنَّ إليه حرامًا ، ألا تخبـرني أَمحتـاج أنت ؟ قال: لا ، قال : أَفـعليك دين؟ قال: لا ، قال: أتأْمرني أن أَعْـمدَ إلى مال الله فأعطيكَهُ من غير حـاجة بك إليه وأَدعَ فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارمًا أديت غُرمك ، أو محتاجًا أمرت لك بما يصلحك ، فـعليك بمالك الذي عندك فـكُله واتَّق الله، وانظر أولاً من أين جمعتـه ، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هَوادةٌ ولامراجعة (١) .

في هذا الحـوار الذي جـرى بين أمـير المؤمنـين عمـر بن العـزيز وعنبسـة بن سعيد يتـبين لنا دقة عمـر في التحري في اكتـساب المال، بحيث لايكون من طريق حرام أو مشتبه فيه .

كما يظهر لنا مثل من عـدالته في توزيع المال العام، حيث بين أن عنبسة ليس بأحق بهذا المال من فقراء المسلمين .

وهذا مثل من أمثـلة كثيرة وضح فيـها عمر حرمـة مال المسلمين العام، وأن الأخذ منه بغير حق كالأخذ من أموال الناس الخاصة، وقد كان كثير من الناس يعتقدون بأن ولاة الأمر لهم حرية التصرف بأموال المسلمين كـمـا يؤدي إليه نـظرهم ، وأن ذلك المال يصـير حـلالا لمن أعطي له بمجرد صرفـه من ولي الأمر ، فبين لهم عمر بأقـوال وأفعال كثيـرة أن هذا المال لايجوز صرفه إلا لمـستحقيـه ، وأنه إذا صُرف في غير وجهه فإنه يجب على من صُرف له أن يرده لبيت مال المسلمين.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ - ١٥٥ .

مثلان من حكمته وحزمه :

لما ولي الخلافة قال له ابنه عبد الملك : إني لأراك ياأبتاه قد أخرت أمورًا كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها، ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور ، قال له عمر: أي بني إنك على حُسْن قَسْم الله لك، وفيك بعض رأي أهل الحداثة ، والله ما استطيع أن أخرج لهم شيئًا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا، أستلين به قلوبهم ، خوفا أن ينخرق عليَّ منهم مالاطاقة لي به [(١)] .

وهكذا لم يأخذ عمر برأي ابنه عبد الملك الذي لايزال حديث السن لايقدِّر عواقب الأمور، بالرغم من كون رأيه حق، ولكن ليس كل حق ينفَّذ حال معرفة أنه حق من غير نظر في عواقب التغيير، فربما أدى ذلك في بعض الصور إلى منكر أكبر من المنكر الذي يروم إزالته المصلحون، ولكن يبقى في ذهن المصلح وفي عزمه إزالة جميع المنكرات، وإنما يسلك في سبيل ذلك طريق الحكمة ، ولذلك كان عمر يستلين قلوب أهل الدنيا بشيء من المال ليتوصل بذلك إلى مايريده من الإصلاح حتى لاينخرق عليه من أمورهم ما لايستطيع مقاومته إلا بالقوة، وهو لايريد إراقة الدماء ، لأن شأن الأموال أهون بكثير من شأن الدماء .

ولكن حينما يكون لابد من القوة فإن من الحزم استعمالها، ومن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٤٣ ، ٨٧ .

أمثلة ذلك ماذكره ابن عبد الحكم قال: وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له « رَوح » وكـان نشأ في البادية فكأنه أعـرابي، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون رَوحًا في حوانيت بحمص وكانت لهم أقطعَـهُ إياها أبوه الوليد بن عبـد الملك ، فقال له عـمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قـال له روح : هذا معي بسجل الوليد، قال: ومايغني عنك سجل الوليـد والحوانيت حوانيتهم قـد قامت لهم البينة عليها ؟ خَلِّ لهم حوانيتهم ، فقـام روح والحمصي منصرفين ، فتوعد روح الحمصي ، فرجع الحمصي إلى عمـر فقال : هو والله متوعدني ياأمير المؤمنين ، فقال عمـر لكعب بن حامد - وهو على حرسه - : اخرج إلى روح ياكـعب فإن سلَّم إليه حـوانيته فـذلك، وإن لم يفعل فأت بـرأسه ، فـخرج بعض من سـمع ذلك ممن يعنيه أمـر روح بن الوليد فـذكر له الذي أمر عمر فـخلع فؤاده ، وخرج إليـه كعب وقد سل من السيف شبـرًا فقال له : قم فخلِّ له حوانيـته، قال نعم نعم، فخلَّى له حوانيته (١) .

وهكذا ظهر حزم عمر حينما استهان روح بن الوليد بحكم الشرع وأمر السلطان ، فكان لابد من تهديده بالقوة ليذعن لحكم الحق، وهذا المثل يدلنا على أن استسلام الجبابرة لأوامره وسكوتهم على سياسته لم يكن عن قناعة ، وإنما كان خوفا من سلطانه .

إنصافه رجلا من عدي بن أرطأة :

رُوي عن ابن عـياش قال : خـرج عمـر ذات يوم من منزله على

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ .

بغلة له شهباء ، وعليه قميص له وملاءة ممشَّقه، إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها ، فسأل عن عمر ، فقيل له: خرج علينا وهو راجع الآن ، قال : فأقبل عمر ومعه رجل يسايره ، فقيل للرجل: هذا عمر أمير المؤمنين ، فقام إليه فشكى إليه عديَّ بن أرطأةَ في أرض له[1]، فقال عمر : أما والله ماغرَّنا منه إلا بعمامته السوداء ، أما إني قد كتبت إليه - فضلَّ عن وصيتي - : إنه من أتاك ببينة على حق هو له فسلِّمه إليه ، ثمَّ قد عنَّاك إلي ، فأمر عمر بردِّ أرضه إليه ، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي ؟ فقال : ياأمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت عليَّ أرضي وهي خير من مائة ألف ! قال عمر: إنما رددت عليك حقك ، فأخبرني كم أنفقت ؟ قال: ماأدري، قال : احزره، قال ستين درهما، فأمر له بها من بيت المال، فلما ولَّى صاح به عمر ، فرجع فقال له : خذ هذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحما حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله [2] .

فهذا مثل على اهتمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز برد الحقوق إلى أهلها ، وهو من أمثلة كثيرة ، مر علينا بعضها، ولكن الذي يلفت النظر في هذا الخبر هو ماقام به عمر من تعويض ذلك الرجل عما أنفقه في سفره ، حيث إنه كان من حقه أن يُقْضَى له في بلده من غير سفر .

وفي هذا لفت نظر إلى أمر مهم وهو أن من حق كل إنسان أن

---

(١) وكان عاملا لعمر على الكوفة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /١٤٦

يأخذ حقه دون أن يكلَّف بالإنفاق من ماله في سبيل ذلك .

وهذا التعويض من فقه عمر حيث رأى أن إِلجَاءَ ذلك الرجل إلى السفر من أجل رفع قضيته يعتبر من تقصير المسئول في بلده، وليس من تقصير ذلك الرجل، ولذلك فإنه ليس من العدل أن يُحمَّل تلك التكاليف .

خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح :

ومن الأمثلة الجيدة على شعور أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بالمسئولية واهتمامه بأمور الأمة دقيقها وجليلها ماجاء في سياق الروايات التي رواها ابن عبد الحكم عن شيوخه قال : وكان بَرِيد عمر بن عبد العزيز لايعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدَفَعَتْ إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرًا ، وأنه يُقتحم عليها فيُسرقُ دجاجها فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح ، بلغني كتابك وماذكرت من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك فيه فيُسرق دجاجك ، فقد كتبت كتابا إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها - آمره أن يبني لك ذلك حتى يحصِّنه لك مما تخافين إن شاء الله ، والسلام .

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل ، أما بعد : فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها ، وأنه يُسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصِّنه لها .

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها ، وإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصَّنه لها [1].

فهذا الكتاب الذي رُفع من تلك المرأة المسكينة المغمورة ، إنما هو أثر من آثار العدل الذي شمل البلاد الإسلامية في عهد عمر بن عبدالعزيز ، فما كانت هذه المرأة المسكينة لترفع حاجتها إلى أمير المؤمنين لو كانت تتوقع أن كتابها سيكون طيَّ الإهمال والنسيان، ولكن لما استقر في ضميرها أن أمير المؤمنين يهتم بكل أمر من أمور الرعية كبيرها وصغيرها ، وأن كبار الأمور لاتشغله عن صغارها وجدت من نفسها نشاطا وهمة في الكتابة إليه بأمرها .

وما أن وصل كتابها حتى كتب أمير المؤمنين في جواب ذلك كتابا إليها يخبرها بما أمر به الوالي في مصر من قضاء حاجتها، وكتابًا إلى ذلك الوالي ليذهب بنفسه لقضاء حاجتها .

إنه لم يكتف بكتابه للوالي لخوفه من أن يتأخر في ذلك أو يعتريه النسيان ، بل كتب كتابًا آخر لصاحبة الحاجة لتراجع الوالي فيما إذا لم يسارع إلى قضاء حاجتها .

إن هذا الاهتمام من أمير المؤمنين يعتبر مثلا عاليا في الشعور بالمسئولية ، ويعتبر مصداقا للرؤيا التي رآها فيه جده أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، من أنه يسير بسيرته ، فإن من صفات عمر بن الخطاب أنه كان في منتهى العدل والشعور بالمسئولية، وأنه لم تكن كبار الأمور تشغله عن صغارها .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٦٦ .

إنصافه رجلا اشتكى من أحد أقاربه :

قال ابن عبد الحكم رحمه الله تعالى : وأتاه رجل فقال: ياأمير المؤمنين مَظْلمةٌ دخلتْ عليّ ، قال عمر : ومن يك ؟ قال: فلا والله ماستطاع أن يقول : فلان ، لبعض أهله ، مرتين أو ثلاثا ، فقال: فلان بن فلان عمد إلى مال لي بكذا وكذا فأخذه فقال: ياغلام ائتني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله : إن فلانا ذكر لي كذا وكذا فإن كان الذي ذكر لي على ماذكر فلا تراجعني فيه واردده عليه، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: إن هذا لهو البلاء المبين [1].

فهذا مثل من حزمه رحمه الله في تطبيق العدالة حتى مع أقاربه حيث أمر عامله بأن يرد الحق على صاحبه وإن كان المدَّعَى عليه من أقاربه .

وفي هذا الخبر مثل من الذل الذي تتربَّى عليه النفوس في حال تسلُّط الجبروت والطغيان ، حيث تلعثم صاحب الحق في رفع قضيته مع أنه أمام حاكم عادل ، ولكن الخلفيات السابقة لحكم الظلم والتسلط جعلته يتردد ويتتعتع ، ولو لم يكن على رأس الحكم حاكم عادل لما فكر أساسًا في رفع قضيته لأنه - والحال هذه - يخشى أن يناله أذى فيما إذا رفع قضيته ضد أحد أقارب الحاكم .

تسويته بين الناس في مجلس الحكم :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لاتجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكل بخصومتك من شئت وإلا فجاث القوم بين يدي ، فوكل مولًى له بخصومته فقضى عليه بالناعورة (١) .

فهذا موقف جليل من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في إقرار قواعد العدل في مجالس الحكم ، وقد كان أحد الخصمين ابن عمه القائد الكبير مسلمة بن عبد الملك، ومع رفعة منزلته وكونه ممن يحبهم عمر بن عبد العزيز ويقدرهم كثيرا فإنه لم يحابه في الحكم، بل ألزمه بأن يسوي نفسه مع خصومه ثم حكم عليه لصالح خصومه .

أمره بوضع الضرائب :

ومن أمثلة عدله ماجاء في كتابه الذي بعثه إلى عروة بن محمد عامله على اليمن وجاء فيه : أما بعد فقد جاء كتابك تذكر أن من كان قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف، إن افتقروا لم يُنقصوا ، وإن استغنوا زِيدَ عليهم، وتُؤامِرني في ذلك، ولعمري إن هذا لَلْجور حقٌّ الجور، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق، ثم اقسم ذلك على فقرائهم، وأَقْعد على طريق الحاج قوما ترضاهم ، وترضى دينهم وأماناتهم يقوّونَ الضعيف ، ويغنون الفقير ، فو الله لو لم يأتني من قِبَلكَ إلا كفٌّ لرأيته من الله قسما عظيما والسلام (٢) .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /٥٩ ، والناعورة موضع بين حلب وبالس فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك ، بينه وبين حلب ثمانية أميال .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥ .

ففي هذا الكتـاب دلالة على أن بعض الولاة السابقين قـد حولوا الزكاة إلى ضـريبة تؤخذ من المسلمين بقـدر محدد، يثبت على حاله عند فقرهم ، ويزيد عنـد غناهم ، وفي هذا مخالفة واضحـة لشريعة الإسلام ، حيث إن الزكـاة لها مقادير وأحكام حُـدِّدت في الشريعة، ورُوعي فيها حال دافعها من الفقر والغنى ، كما روعي فيها أنها ليست ضريبة تُجـبَى لتدخل في مال المسلمين العام ، وإنما تـؤخذ من أغنياء كل بلد لتُدفع إلى فقرائهم ، كما جـاء في حديث معاذ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وفيه « فأَعلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم » (١) .

ولهذه المخالفات التي ذكرها والي اليمن نجد أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الـله يغضب من ذلك الوضع ، ويصفه بأنه الجـور حق الجور، ثم يوجه ذلك العـامل إلى أن يأخذ من الناس الحق الشـرعي في زكاة أموالهم ، وأن يردها على فقرائهم .

كما يأمـره فوق ذلك بأن يجعل على طريق الحـجاج رجالا أمناء يقومون بخدمة الحجاج ؛ وتموينهم بما يكفي ضعفاءهم ومحتاجيهم.

وبهذا صار عطاء دولته لأمته أكثـر من جبايته، فسعدت الأمة به، وزال الفقر عن فقرائها في مـدة وجيزة ، وفاض المال عند الولاة حتى أصبحوا يستشيرون أمير المؤمنين في صرف هذا المال الفائض .

ومن أمـثلة ذلك مـاكتب به عـمـر بن عبـد العـزيز إلى زيد بن عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب - وكـان على الكوفة - يقول: كتبت

---

(١) صحيح البخاري ، الزكاة ، رقم ١٣٩٥ (٣/ ٢٦١) .

تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند ، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد . والسلام.

ثم كتب إليه زيد : إنه قد بقي عندنا بعد ذلك ، فكتب إليه عمر: أن قوِّ أهل الذمة ، فإنا لانريدهم لسنة ولالسنتين (١) .

وفي هذا الخبر نظرة رحمة ومواساة لصنفين من الناس في غاية الحاجة والاضطرار ، وهما المَدِينون ، فما أشد احتياجهم، وماأبلغ همهم ! والذين عزموا على الزواج وليس لديهم مايكفي لتكاليفه، فما أعظم فرحتهم ، وماأبلغ سعادتهم حينما يُقَدَّم لهم مايسد حاجتهم!

وأخيراً لفتة مهمة من أمير المؤمنين عمر حينما أوصى عامله بالاهتمام بتقوية أهل الذمة وإصلاح بلادهم ، فإنهم يعتبرون مصدراً مهما من مصادر بيت مال المسلمين ، فوصيته هذه نظرة مستقبلية جيدة لتقوية هذا المصدر .

فلله در أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ماأسمى تفكيره ، وما أبعد نظره !!

مكافأته من رفع إليه مظلمة :

نجد من كمال عدل عمر رحمه الله أنه لم يكتف بردِّ المظالم التي يعلمها بل تقدم إلى المسلمين وأعلن لهم في المواسم ليرفعوا إليه ماعلموا من ذلك وأعطى الجوائز لمن تقدم بشيء من ذلك كما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المواسم : أما بعد فأيما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٦٨ .

به خاصا أو عاما من أمر الدين فله مابين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يُرى من الحسبة وبعد الشقة ، رحم الله امرءاً لم يتكاءَدْهُ بُعْدُ سفر ، لعل الله يُحيي به حقا ، أو يميت به باطلا، أو يفتح به من ورائه خيرا، ولولا أن أطيل عليكم وأطنب فيَشغلكم ذلك عن مناسككم لسُمْتُ أموراً من الحق أظهرها الله، وأموراً من الباطل أماتها الله ، وكان الله هو المتوحد لكم في ذلك ، لاتجدون غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي لكنت كغيري . والسلام (١) .

فهذا مثل على شدة اهتمام عمر رحمه الله بإقامة العدل ورد المظالم ، وهذا القرار الذي أصدره عمر قلَّ أن يوجد له نظير في التاريخ، فقد توقع أنه لاتزال توجد بعض المظالم، وأن العارفين بها يشق عليهم إبلاغها لما يترتب على ذلك من تكاليف مالية فأعطى مكافأة لكل من يسعى في رد مظلمة أو نصح للأمة .

ثم لفتة إلى التوحيد في نهاية هذا الكتاب ، حيث ذكّر عمر المسلمين بأن ما حصل من الإصلاح على يديه، والنعمة التي سعدت بها الأمة إنما هي من الله تعالى، ومن فضله وكرمه، وأنه لو وكله إلى نفسه لم يستطع القيام بذلك .

اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين :

من ذلك أنه كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية : أما بعد : فإنكم تعدُّون أنفسكم أسارى ، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئًا بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٧ .

نصيب وأطيبه ، وإني قد بعثت إليكم خمسة دنانير خمسة دنانير ، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم ، وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم ، ذكركم وأنثاكم، حرَّكم ومملوككم بما سئل به ، فأبشروا ثم أبشروا . والسلام عليكم.

وكتب أيضًا إلى عماله : أن اقضوا عن الغارمين ، فكُتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم ، وله الفرس ، وله الأثاث في بيته، فكتب عمر : لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي رأسه، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ماعليه من الدين [1].

ففي الكتاب الأول يواسي عمر بن عبد العزيز أسرى المسلمين لدى الروم ، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى ، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين .

وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به، وبما أخبرهم به من كفالة أُسَرِهم في حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعا بمفاداتهم لفكِّ أَسْرِهم .

وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره .

وفي الخبر الثاني يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /١٦٣ - ١٦٤ .

مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة ، والاهتمام بشئون الرعية .

وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يُغنون به فقيرها، ويجبرون به كسيرها، ويفكُّون به أسيرها، ويقضون به عن معسرها ، ويسدُّون به خلَّة معوزها .

خبره مع الأسير الأعمى :

ومن الأمثلة الرائعة لرحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ماأخرجه ابن عبد الحكم قال: وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولا، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع فسمع فيه رجلا يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام- مرتين أو ثلاثا - ثم سلم عليه ، فقال له : وأنَّى بالسلام في هذا البلد! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم ، فقال له : ماشأنك؟ فقال : إني أسرت من موضع كذا وكذا ، فأُتِي بي إلى صاحب الروم ، فعرض عَليَّ النصرانية فأبيت، فقال لي : إن لم تفعل سمَلْتُ عينيك، فاخترت ديني على بصري، فسَمَل عينيَّ وصيَّرني إلى هذا الموضع ، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها .

فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلَّت مابين يديه .

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم : أما بعد فقد بلغني خبر فلان ابن فلان فوصف له صفته ، وأنا أُقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندي .

فلما رجع إليه الرسول قال : ماأسرع مارجعت ! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز ، فلما قرأه قال : ماكنا لنحمل الرجل الصالح على هذا ، بل نبعث إليه به .

قال : فأقمت انتظر متى يخرج به ، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة، فقال: تدري لما فعلت هذا؟ فقلت : لا - وقد أنكرت مارأيت - فقال : إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات ، فلذلك فعلت مافعلت، ثم قال : إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السُّوء لم يُتْركْ بينهم إلا قليلا حتى يخرج من بين أظهرهم .

فقلت له : أتأذن لي أن أنصرف - وأيست من بعثه الرجل معي- فقال: ماكنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل (١) .

هذا وإن في هذا الخبر ثلاثة أمور مهمة :

أ - موقف هذا الرجل المسلم الذي فضَّل البقاء على دينه، وتحمَّل سمل عينيه بالحديد المحمي بالنار حتى فقد بصره، وهنا يقف المتأمل مندهشا من هذا المشهد المثير ، الذي يدل على قوة الإيمان بالإسلام والقناعة به، حيث فضل هذا الرجل دينه على صحته وحياته، لأنه يعتبر هذا الدين هو حياته الحقيقية ، ويعتبر أن مفارقة الإسلام موت لايدانيه موت .

ولاشك أنه كان لهذا الموقف العالي وأمثاله الأثر البالغ في الدعوة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٨ .

إلى الإسلام،لأن العقل السليم يدل على أن المبدأ الذي يفضله صاحبه على حياته لايمكن أن يكون عاديا كمبـادئ البشر المعروفه، لأن المبادئ تُستخدم عـادة لرفع قيمة الإنسان في هذه الحيـاة، فلايمكن أن يضحِّي الإنسان بحياته من أجلها، وهو إنما يستخـدمها للحياة، فلابد أن المبدأ الذي يبذل صاحـبه حياته من أجله ووراءه دافع أقوى من مسـتقبل هذه الحياة ، ولايمكن أن يوجد ذلك إلا في الإسـلام الذي كرم الله تعالى فيه الشهداء والذين أوذوا في سبـيل هذا الدين، ورفعهم درجات عليا في الجنة .

هذا الرجل المسلم المغمـور الذي لم يذكر اسمـه مثَّل هذا الموقف الكبير! فكم في هذه الأمة الإسلامـية من المغمورين الذين يزن إيمانهم الجبال الراسيات !

وإذا كان هذا في المـغمورين فكيف الحـال بالمشاهيـر الذين لمعت أسماؤهم في مجال التضحية والفداء ؟!

ب - وفي هذا الخبر مثـل من رحمة عمر بن عبد العـزيز البالغة وإشفاقـه على المسلمين حيث بكى ذلك البكاء الشديد مـن خبر ذلك الأسير.

ومثل من اهتـمامه الـعظيم بأمور المسلمين حيـث كتب إلى ملك الروم يهدده ذلك التهديد القوي إن لم يُفرِجْ عن ذلك الأسير .

جـ - كما أن في هذا الخبـر بيانًا لأثر العدل في الحكم حتى على الأعداء المحاربين، فـحينما جاء كـتاب عمر الذي بلغ حـدا عاليا في التهـديد لملك الروم ماكـان من هذا الملك إلا أن قال : ماكنـا لنحمل الرجل الصالح على هذا .

وحينما بلغــه موت عمر تأثر بذلك وظهـرت الكآبة على وجهه، وذلك لأنه حتى الأعـداء ينعمـون بعدل الأمراء من أعـدائهم، لأنهم يأمنون خيـانتهم وظلمهم لهـم ولأتباع دينهم الذين يعيـشون في بلاد هؤلاء الأمراء .

وقد بلغ بملك الروم التأثر بعدل عمر إلى حد أنه وفى بما وعد به حتى بعد موته وقال : ماكنا لنجيـبه إلى ماأمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته .

اهتمامه بأمور الرعية :

قال أبو محـمد عبد الله بن عـبد الحكم : وخرج عمـر بن عبد العزيز يومًا في ولايته الخلافة بالشـام فركب هو ومزاحم - وكان كثيراً مايركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى- فلقيهما راكبٌ من أهل المدينة ، وسألاه عن الناس وماوراءه وهو الأمـر الذي خرجا من أجله. فقال لهما : إن شئتما جمعـت لكما خبري، وإن شئتما بعضته تبعيـضًا . فقالا : بل اجـمعه فقـال : إني تركت المدينة و الظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفـور ، والعائل مجبور. فسُرَّ بذلك عمر وقال ، والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس (١).

مثل من اختياره الولاة :

قال الإمام أبو جعفر الطبري : ثم إن عمر لما أراد استعمال عاملٍ على خراسان . قال فيما ذكر عليّ بـن محمد بن خارجة بن مصعب

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١ .

الضبعيّ وعبد الله بن المبارك وغيرهما: ابغوني رجلا صدوقًا أسأله عن خُراسان، فقيل له : أبو مجْلز لاحق بن حميد. فكتب فيه، فقدم عليه - وكان رجلا لاتأخذه العين[1] فدخل أبو مجْلز على عمر في جفة الناس [2] ، فلم يُثبتْه [3] عمرُ ، وخرج مع الناس فسأل عنه فقيل: دخل مع الناس ثم خرج، فدعا به عمر فقال: ياأبا مجلز ، لم أعرفك، قال : فهلا أنكرتني إذ لم تعرفني ! قال : أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله ، قال: يكافئ الأكفاء ، ويعادي الأعداء ، وهو أمير يفعل مايشاء ، ويُقدم إن وجد من يساعده. قال: عبد الرحمن بن نعيم ، قال: ضعيف ليّن يحب العافية، وتأتي له، قال: الذي يحبّ العافية وتأتي له أحبّ إلي ، فولاه الصّلاة والحرب، وولّى عبد الرحمن القشيريّ ، ثم أحد بني الأعور بن قشير الخراج، وكتب إلى أهل خراسان : إني استعملتُ عبد الرحمن على حربكم وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار ، إلا ماأخبرتُ عنهما ، فإن كانا على ماتحبون فاحمدوا الله، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

قال عليّ : وحدّثنا أبو السريّ الأزديّ ، عن إبراهيم الصائغ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم :

أما بعدُ ، فكن عبدًا ناصحًا لله في عباده ، ولايأخذك في الله

---

(١) يعني أن جسمه لايلفت النظر .

(٢) جفة الناس : جماعتهم .

(٣) لم يثبته : لم يعرفه حق المعرفة .

لومـة لائم، فإنّ الله أوْلى بك من الناس، وحـقه عليك أعظـم، فلا تولّين شـيئًـا من أمر المسلمين إلا المعـروف بالنصيـحة لهم والـتوفـير عليهم، وأداء الأمانة فـيما استُرعيَ ، وإياك أن يكون مـيلك ميلاً إلى غير الحق، فـإن الله لاتَخفى عليه خافيـة، ولاتذهبن عن الله مذهبًا، فإنه لاملجأ من الله إلا إليه (١) .

مثل من احتياطه في اختيار الولاة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بـن محمد الخضر الملاء : أن بلال بن أبي بردة دخل على عمر بن عـبد العزيز وعليه قميص قـد شمّره فوق كعبيه وعليه عمامة له حزقانية قد سَدَلَها بين كتفيه وقد أثر السجود في وجهه . قال: فـاستنطقه عمر فوجده رجلاً سـديد العقل . فقال له: قم يابلال ارجع إلى منزلك . ثم دعـا عمـر بن عبد العـزيز مزاحـمًا فقال: يامزاحم ! اختبر لي هذا الرجل - يعني بلالاً - فليس لي غناء عنه إن كان له ورع . فلما خرج مزاحم أرسل إلى بلال فجاء فقال له مزاحم : يابلال . قال: ماتشاء أصلحك الله. فقال مزاحم: أنا والله أحب الخير لنفسي فماذا لي إن رمـيت بك على أحد العراقين؟ فقال: إذا كـان ذلك فلك علي ثلاثون ألفًـا ، والله أنقـدك إياها السـاعـة، وأربعـون ألفًـا إذا قـدمت البـلد. ثم قـال: الأمـر أمـرك لايخـالف ولايعصى. فـقال مـزاحم : ارجع إلى منزلك. قال: وخـرج مزاحم حتى دخل على أمير المؤمنين عمـر وقال له : عدو الله لص. وأخبره الخبـر. فقال عمـر : والله إن كاد ليغرني بسـجدته وعمامـته. والله

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦١ - ٥٦٢ .

لايمسين في عسكري. انخسوا به . ثم كتب : من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة سلام عليك . أما بعد، فإياك وبلالاً بلال السوء ، وعيينة بن أسماء ، وحوشب بن يزيد، فإنهم من بقايا السوء فلا تستعينَنَّ بهم على شيء من عملك والسلام عليك (١).

ففي هذا الخبر ظهر لنا تطبيق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لعلمه، حيث كان يعلم أن الشرطين الأساسيين للولاية هما اتصاف الوالي بالكفاءة والأمانة ، وقد عرف اتصاف هذا الرجل بالكفاءة من منطقه ومجالسته إياه، ثم كلف مولاه مزاحما باختباره لمعرفة أمانته، لكنه لم ينجح في الاختبار فكان ماكان من استبعاده والتحذير منه .

وهذا الاهتمام الشديد من عمر بن عبد العزيز يدل على حرصه الكبير في التحري في اختيار الولاة ، لأن ذلك يضمن له بنسبة كبيرة أن تسير الأمور في البلاد الإسلامية على مايريد من العدل والإصلاح.

حرصه على تولية الأكفاء :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: أراد عمر بن عبد العزيز أن يستعمل رجلا على عمل فأبى، فقال له عمر: عزمت عليك لتفعلن ، فقال الرجل وأنا أعزم على نفسي أن لاأفعل ، فقال عمر أتعصيني ؟ فقال : ياأمير المؤمنين إن الله تعالى يقول ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن**

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤٦ ، وأخرجه ابن سعد مختصرا ٥/ ٣٩٥.

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] . أفمعصية كان ذلك منهن ؟ فأعفاه عمر [١].

مثل من نباهة عمر وفطنته :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وولى عمر بن عبدالعزيز الوليد بن هشام المُعَيْطي على جند قِنَّسرين - والفُراتُ بن مسلم على خراجها - فتباغيا، حتى بلغ الأمر بالوليد أن هيأ أربعة نفر من كهول قنسرين يشهدون على فرات أنه يدع الصلاة، ويُفطر شهر رمضان مقيمًا صحيحًا ، ولايغتسل من الجنابة، ويأتي أهله وهي طامث. فقدموا على عمر بن عبد العزيز فشهدوا بهذه الشهادة، وهم مختضبون بالحناء ، فقال عمر هذا رمقتموه في صلاته فلم يُصَلِّها، إما تركها متعمدًا وإما ساهيًا، ورأيتموه يفطر في ظهر رمضان ولاترون به سقمًا ، ماعلمكم أنه لايغتسل من الجنابة وغشيانه أهله؟ والله ماهذا مما يشتم به ولاسيما فرات في مثل عفافه وأمانته، ياغلام انطلق بهؤلاء المشيخة السوء إلى صاحب الشُّرَط ، فمُرْه فليضرب كل واحد منهم عشرين سوطًا على مَفرق رأسه، وليرفق في ضربه لمكان أسنانهم، وبحَسْبهم من الفضيحة ماهم صائرون إليه، إن لم يتغمد الله ماكان منهم بعفوه، ثم استوثق منهم بالكفلاء حتى يكون فرات هو الآخذ بحقه منهم ، أو العافي عنهم، والعفوُ أقرب للتقوى وأقرب إلى الله عز وجل. ثم أصلح بين الوليد وفرات .

قال : ولما قدم قابل ، وقدم الوليد و معه رؤوس أنباط قِنَّسرين

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣١٢.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الفرات أن اقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط، فقال لهم عمر : ماذا أعددتم لأميركم في نزله لمسيره إليّ قالوا: وهل قدم ياأمير المؤمنين ؟ قال: ماعلمتم به؟ قالوا : لا والله ياأمير المؤمنين ، فأقبل عمر بوجهه على الوليد فقال: ياوليد إن رجلاً ملك قنّسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه، حتى انتهى إليّ لايعلم به أحد، ولاينفّر أحدًا ولايروعه، لخليقٌ أن يكون متواضعًا عفيفًا ، قال الوليد: أجل والله ياأمير المؤمنين إنه لعفيف وإني له لظالم ، وأستغفر الله وأتوب إليه. فقال عمر: ماأحسن الاعتراف ، وأبين فضله على الإصرار، وردّهما عمر على عملهما فكتب إليه الوليد - وكان مرائيًا - خديعة منه لعمر، وتزينًا بما هو ليس عليه : إني قدّرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقي يزيد على ماأحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يَحطّ فضل ذلك ، فقال عمر :أراد الوليد أن يتزيّن عندنا بما لاأظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحدًا على ظنٍّ لعزلته، ثم أمر بحطٍّ رزقه إلى الذي سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده، إن الوليد بن هشام كتب إليّ كتابًا أكثر ظني أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظني ماعمل لي أبدًا ، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك، فسألك أن تردّ إليه رزقه، وذكر أني نقصته فلا يظفر منك بهذا أبدًا فإنما خادع به الله والله خادعه ،فلما مات عمر، واستُخلف يزيد كتب إليه الوليد : إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث

إليه فعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يل له عملاً حتى هلك (١).

في هذا الخبر مثل من الحسد المذموم ومايترتب عليه من الكيد للزملاء في العمل ، وهذا ينتج عادة من تضخم شرف الدنيا في النفس وتضاؤل شرف الآخرة فيها، فيعمل الحاسد على تقويض مركز من ينافسونه على شرف الدنيا، ويرتكب من أجل ذلك موبقات منها الكذب والتزوير ، ولو أن هذا الحاسد استعمل عقله السليم فأعطى الدنيا حجمها الملائم لها لَتواضَع بدلاً من أن يتكبر، ولأراح عقله من التفكير الطويل في ملاحقة شرف الدنيا والكيد للمنافسين ،ولَعَفَّ لسانه عن قول الكذب والزور، ولعاش قرير العين سعيد النفس بما قسم الله له من مال الدنيا وشرفها، ولَطلب بفكره وعمله شرف الآخرة الذي لايترتب عليه حسد مذموم ولاكبر وبطر ولاإشغال للفكر بتدبير المكائد والمؤمرات .

ولما كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خبيرًا بأدواء النفوس وتجاوزاتها فإنه قد أدرك على الفور أن وراء الأكمة ماوراءها، وأن مجيء أولئك الشيوخ وتصريحهم بما أدلوا به من قدح مشين بأميرهم فرات بن مسلم ماهو إلا حلقة من حلقات مؤامرة مدبرة لإيغار صدره عليه وعزله عن منصبه، فهداه الله تعالى إلى استعمال فكره السليم في نقض تلك الدعاوي، ووضع أصحابها في قفص الاتهام حتى تتضح الرؤية ويتبين الحق، ولقد كان واثقا من كذب تلك الدعاوَى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥١ - ١٥٣ .

حيث أمر بإجراء العقوبة على أصحابها ، ثم لم يكن بحاجة إلى إكمال التحقيق في القضية لأن الأمر من الوضوح بحيث حمل صاحب المؤامرة على الاعتراف بخطئه والحكم على نفسه بالظلم لزميله في العمل والثناء عليه بما يستحقه من صفات الكمال، ثم لما كان هذا الاعتراف بالخطأ برزت أخلاق عمر بن عبد العزيز المتمثلة بالعفو والرحمة وتقدير المواقف الإيمانية .

وحينما طلب منه الوليد بن هشام المعيطي أن ينقص من راتبه أدرك خداعه في اختلاف سريرته مع علانيته، حيث أظهر العفة والزهد ليصل إلى كسب الثقة وعلو المنزلة عند عمر بن عبد العزيز الذي يعظم هذا الاتجاه، ولكن أمير المؤمنين أدرك ذلك فحقق له مطلبه، وفي الوقت نفسه فوَّت عليه الفرصة في نيل مقاصده، ولقد كان أمير المؤمنين عظيم الورع حينما لم يحكم عليه بمجرد ظنه، وإنما قاده هذا الظن إلى عمل الاحتياطات اللازمة لتفادي ماقد يكون من ذلك الوالي من جنوح في المستقبل .

فما أعظم عمر بن عبد العزيز في فطنته وفراسته وحزمه !!

وماأعظمه في رحمته وعفوه وورعه !!

موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد، ويخلع سليمان بن عبد الملك ، ففَرِق زيدٌ من الوليد فأجابه، فلما استُخلف سليمان وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك

فكتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو أمير المدينة - ادع زيد بن حسن فأقرئه هذا الكتاب فإن عرفه فاكتب إلي بذلك، وإن نكل فقدِّمه فأظهر يمينه على منبر رسول الله ﷺ : ماكتب هذا الكتاب ولاأمر ، فأرسل إليه أبو بكر بن حزم فأقرأه الكتاب ، فقال: أنظرني مابيني وبين العشاء أستخير الله . قال: فأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله يستشيرهما. قال: فأقاما معهما ربيعة فذكر لهما ذلك، وقال: إني لم أكن آمَنُ الوليد على دمي لو لم أجبه، فقد كتبت هذا الكتاب، أفترون أن أحلف؟ فقالوا: لاتحلف ولاتبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله ﷺ ، فإنا نرجو أن يُنجيك الله بالصدق، فأقرَّ بالكتاب ولم يحلف. فكتب بذلك أبو بكر بن حزم إلى سليمان ، فكتب سليمان إلي أبي بكر أن يضربه مائة سوط، ويُدرعه عباءة، ويُمشيه حافيًا، فتشكى سليمان. فقال عمر بن عبد العزيز للرسول: لاتخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن ، لعلي أستطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. قال: فحبس الرسول والكتاب، ومرض سليمان فقال عمر: لاتخرج فإن أمير المؤمنين مريض ، إلى أن رُمي في جنازة سليمان، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فدعا بالكتاب فخرقه (1).

وهكذا نجى الله تعالى زيد بن حسن من بأس سليمان بن عبدالملك وبطشه بذلك السلوك الحكيم من عمر بن عبد العزيز، وإنه لعجيب من أولئك الأمراء أن يحرجوا كبراء الأمة وفضلاءها بإدخالهم في تجاوزاتهم السياسية وجعلهم معرضين لنقمة الحاكم الحالي إن لم

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / 119 - 120 .

يوافقوا على تحقيق مراده أو نقمة الحاكم القادم إن وافقوا على ذلك، فكان زيد بن حسن قد فضل درء الشر الحاضر على أمل أن لايكون الشرَ المستقبل، ولكنه وقع وكاد أن يتعرض للتعذيب المذكور لولا أن انقذه الله تعالى بما فعله عمر بن عبد العزيز .

شكوى عمته باسْم بني أمية :

أخرج محمد بن سعد من خبر عبيد الله بن محمد التيمي قال: سمعتُ أبي وغيره يحدث أن عمر بن عبد العزيز لما ولي منع قرابته ماكان يجري عليهم وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم، قال فشكوه إلى عمّته أم عمر، قال فدخلتْ عليه فقالت: إنّ قرابتك يشكونك ويزعمون ويذكرون أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: مامنعتُهم حقّا أو شيئًا كان لهم ولاأخذت منهم حقّا أو شيئا كان لهم. فقالت : إني رأيتُهم يتكلمون وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا. فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني اللهُ شرّه. قال فدعا بدينار وجَنْب ومجمرة فألقى ذلك الدينار في النار وجعل ينفخ على الدينار حتى إذا احمر تناوله بشيء فألقاه على الجنب فنشّ وقتّر فقال: أيْ عمة أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ قال فقامت فخرجت على قرابته فقالت : تزوجون إلى عمر فإذا نزعوا الشبه جزعتم ، اصبروا له [1] .

ففي هذا الخبر بيان زهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بهذه الحياة الدنيا وعدم مبالاته بما يجري عليه فيها من مصائب، فإن الشيء

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٣ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /٩٦.

الوحيد الذي يهتم له هو ماسيكون عليه مآله بعد الموت، فكل تهديد يوجه إليه في هذه الحياة الدنيا فإنه لايثير خوفه ولايحسب له حسابا، وهذا فيه تيئيس لمن سيعملون ضده لأنه لايجذبه طمع ولايخيفه فزع، ومن أجل أن يكون تصور أهوال الآخرة أبلغ فإنه قام بتمثيل مصغر لعذاب النار أمام عمته لتتأثر بذلك الموقف ولتنقل الصورة إلى بني أمية لعلهم يتذكرون ويعتبرون .

تأديبه لمن سخّر أهل الذمة :

أخرج محمد بن سعد من خبر سهل بن شعيب أن ربيعة الشعوذي حدثهم قال : ركبتُ البريد إلى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبت السُّخْرة [1] حتى أتيته وهو بخناصرة فقال: مافعل جناح المسلمين ؟ قال قلت : وماجناح المسلمين ياأمير المؤمنين ؟ قال : البريد. قال قلت : انقطع في أرض أو مكان كذا وكذا. قال : فعلى أيّ شيء أتيتنا ؟ قال قلت: على السخرة تسخرتُ دوابّ النبط. قال : تسخّرون في سلطاني ؟ قال فأمر بي فضربتُ أربعين سوطًا ، رحمه الله [2].

فهذا من أبلغ أمثلة العدل، حيث يأمر أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بضرب أحد عماله لكونه سخَّر أهل الذمة لحمله على دوابهم، فهو يرى أن ذلك ظلم لهم ، فماأسمى أحكام الإسلام التي يصل بها أهل الذمة من الكفار إلى حقوقهم الكاملة ويتمتعون بها

---

(١) يعني سخر من مر بهم من أهل الذمة ليحملوه على دوابهم .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٤ .

بالعدل والأمن !! ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى حكام عـادلين لتتمثل في واقع الحياة فيشاهدها الناس أجمعون ، ويكون لها الأثر الكبير في تعظيم الإسلام والانجذاب إليه .

مثل من بركة الحكم بالعدل :

أخـرج الحافـظ أبو نعيم مـن خبـر إبراهيم بن هشـام بن يحـيى الغساني حـدثني أبي عن جدي. قال : لما ولاني عمر بن عـبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد وأسأله : آخذ من الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة أو آخذهـم بالبينة ومـاجرت عليـه عادة الناس ؟ فكتب إلـي أن آخذ الناس بالبـينة ومـاجرت عـليه السنـة ، فإن لم يصلحـهم الحق فـلا أصلحهم الله . قـال يحيى : ففـعلت ذلك فمـا خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا (١).

فهذا مثال على أن البركة والسعادة والأمن تتوفر في تطبيق شريعة الإسلام ، فـإن عصـاة المسلمين وإن جرت منهم جنوحـات إجرامـية فإنهم مؤمنون باللـه تعالى واليوم الآخر، فإذا شـعروا بأنهم يُحكَمون بالدين وأن الحاكم صادق ومخلص في تطبـيق الإسلام فإنهم يرتدعون بأقل الروادع ، ويصبح مـن يلومهم على إجرامـهم يتكلم باسم الدين فيرعوي مـن في قلبه بقية من جذوة الإيمان ويقظة الضمـير، ولايصر على الإجـرام إلا من قـسـت قلوبهم وغلظت طـبـاعـهم ، وهؤلاء لايرتدعون إلا بـتطبيق الحدود الشـرعيـة، ولكن عددهم في المجـتمع

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٧١ .

الإسلامي محدود ، فالقضاء على الجرائم - والحال هذه - متيسر للحاكم العادل الذي يطبق الحق على كل المسلمين، ومن هذا المنطلق نجح هذا الحاكم في إقرار الأمن والقضاء على الجرائم .

أما إذا كان الحاكم يأخذ الناس بالظن ولايتقيد بأحكام الشريعة فإن من عندهم ميل للجرائم يغالبون الحاكم بالتحدي، ولاينشط المتقون للإنكار على المجرمين لأن القضية تكون بينهم وبين سلطان متجبر، فيكون موقف المتقين ضعيفا حينما يقاومون أصحاب الجرائم لأن موقفهم قد اقترن بموقف الحاكم المتسلط .

إنصافه الأعراب من بعض بني أمية :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر سليمان بن موسى أنه بلغه أن قوما من الأعراب خاصموا إلى عمر بن عبد العزيز قوما من بني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها، فأخذها الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله ، فقال عمر بن عبد العزيز : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله من أحيى أرضا ميتة فهي له» ، فردها على الأعراب [1].

فهذا مثل من عدل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، حيث أنصف الأباعد عنه من المقربين إليه، وفي الخبر دلالة على أهمية العلم الشرعي للحاكم وأثر ذلك في سلوك الطريق المستقيم والسلامة من الزلل .

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل / ٢٩٠/ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٥ .

وصيته عماله بالتقوى والعدل :

قال ابن عبد الحكم : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى العمال[1] ، أما بعد : فإن هذا الأمر الذي ولاني الله لو كنت إنما أصبحت ورغبتي فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج أو اعتقاد أموال لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قبل ماولاني من أفضل مابلغ بعباده ، ولكني أصبحت له خائفا، أعلم أنه فيه أمرًا عظيما وحسابا شديدًا ومسألة غليظة [2] عند مجاهدة الخصوم بين يدي الله إلا ماعافى الله ورحم ودفع ، وإني آمرك فيما وليتك من عملي وأفضيت إليك من أمري بتقوى الله ، وأداء الأمانة واتباع ماأمر الله به واجتناب مانهى الله عنه ، وقلة الالتفات إلى شيء خالف ذلك ، ليكون الذي آمرك به في سيرتك والنظر في نفسك وفي عملك وماتفضي به إلى ربك وماتعمل به فيما بينك وبين الرعية قِبَلَك، وأنت تعلم علما يقينا أنه ليس لنجاة ولاحرز إلا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله ، ودع أن ترصد شيئًا ليوم ترجوه أو تخافه سوى ماترجوه غدًا من الله تعالى وتخاف منه، فإنك قد رأيت عبرًا في نفسك وعبرًا مامثلُها وعُظ مثلُنا، وكفى ومثلُها أصابك إلى حظك من الله ، والسلام [3] .

---

(١) في تاريخ الطبري أن هذا الخطاب موجه إلى يزيد بن المهلب .

(٢) في كتاب ابن عبد الحكم «لطيفة» واثبت مافي تاريخ الطبري لأنه أنسب لسياق الكلام.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٢ ، تاريخ الطبري ٦/٥٦٦-٥٦٧ .

فهذا الخطاب يبين عظمة شعور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالمسئولية ، حيث فهم وبين أن الولاية مغرم لامغنم ، فهي جدٌّ وعمل وهمٌّ متواصل ، وإنما يدفع إلى فهم حقيقتها ، والنجاة من مزالقها شعور صاحبها بالوقوف بين يدي الله تعالى للحساب، وأن يُعدَّ لكل قضية جوابا ، فإذا لم يستطع إعداد الجواب في الدنيا فإنه أعجز عنه في الآخرة ، وإنما يكون إعداد الجواب بتنقية السيرة وتطهير السريرة، وبذل الجهد في الإصلاح ، فإن العامل لايُلام بعد بذل الجهد على ماكان منه من تقصير أو خطإ لايعلمه، أما إذا كان هدف العامل اكتساب مجد الدنيا ومتاعها وتجنب خسارتها فإنه قد حكم على نفسه بالهلاك ، وضيع باختياره سبيل النجاة ، فلا يلومنَّ إلا نفسه المفرِّطة، ولا ينتَقِصَنَّ إلا فكره المنحرف .

ومن ذلك ماذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمير الأجناد : أما بعد فإنه من بلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة وبلايا عظام ، إن غابت عنه يوما فهي حَرِيَّة أن تحضره في اليوم الآخَر ، وإنه ليس أحد بأشغل عن نفسه ولا أكثر تعرضًا لزيغ من ولي السلطان ، إلا ماعافى الله ورحم ، فاتق الله مااستطعت ، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حُمِّلت ، وقاتل هواك كما تقاتل عدوك ، واصبر نفسك عما كرهت ابتغاء ماعند الله من حسن ثوابه الذي وَعد به المتقين فيما بعد الموت ، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله، فإذا حضرك الخصم الجاهل الخَرِق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن تبتلى به فرأيت منه

سـوء رِعَة وسـوء سيـرة في الحق الذي عليـه والحظ الذي له فسـدِّده ماستطعت وبصِّره ، وارفق به وعلِّمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعـمة من الله وفـضـلا ، وإن هو لم يبصـر ولم يعلم كـانت حجـة اتخذت بهـا عليه ، فـإن رأيت أنه أتى ذنبا اسـتحق فيـه عقـوبة فلا تعاقبه بـغضب من نفسك عليه ، ولكن عاقبـهُ وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبـه بالغًا مابلغ ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قـدر جَلدةٍ واحدةٍ تجلده إياها، وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبةٍ في ذلكَ قَتْلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن ، ولايسرعنّ بك إلى عقوبته حضور من يحضـرُك ، فإنه لعمري ربما عـاقب الإمام لمحضر جلسـائه، ولتأْديب أهل بلده ولتغامزهم به، وما من إمام له جلساء إلاَّ سيكون ذلك فيهم وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيختلفون فيه على أهوائهم، إلا من رحِم الله ، فـإن من رحم الله لايختلفـون في قـضاء، فإنـه قال ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (١) .

وإذا استجـهلت فتثبت ، وإذا نظر إليك من حـولك ماأنت فاعل بسفيه من رعيَّتك إن سفـه أو أخطأ خطيئة فاعمد في ذلك للذي ترى أنه أَبَرُّ وأتقى وخيرٌ لك غدًا فـيما بعد الموت، ولايطربك نظرهم إليك ولاحديثهم عنك فإنهم لايبقى في أنفسهم حديثٌ أحبُّوه أو كرهوه إلاَّ قليلاً إلا أَبْدَوْهُ . فـاغتنم كل يومٍ أخـرجك الله فيه سـالمًا، وكل ليلةٍ مضت عليك وأنت فيـها كذلك وأكثر من دعاء الله بالعـافية لنفسك، ولمن ولاَّك الله أمره ، فـإن لك في صلاحهم مـاليس لأحد منهم وإن عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك ماليس على أحد منهم .

(١) سورة هود الآية ١١٨ - ١١٩ .

ولاتبتغ منهم جزاء خيرٍ أحسنته إليهم ، ولابتسديد سددتهم ، ولاتطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاءً ولاثوابًا و لامدحةً ولاحظوة، وليكن ذلك لمن لايعطي الخير ولايصرف السوء غيره، ثم تعاهد صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث ، فلا يعملون في شيء مما تحت يدك بغشم ولابظلم، وأكثر المسألة عنهم، فمن كان منهم محسنا نفعه ذلك ، ومن كان مسيئًا استبدلت به من هو خير منه .

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن ييسر لنا أمورنا ، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى ، والعمل فيما يحب ويرضى ، وأن يعصمنا من المكاره كلها ، وأن يجعلنا من الذين لايريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، ومن المتقين الذين لهم العاقبة، والسلام عليكم ورحمة الله (١) .

ففي هذا الكتاب بيان خطورة الولاية وأنها مزلة قدم، ولايسلم من زلاتها إلا من رحمه الله تعالى، فالولاية إما عمل صالح عظيم الدرجات لمن عف وعدل واستقام، وإما عمل سيء يؤدي إلى الهلاك لمن رتع وجار وانحرف، ولولا أنها في بعض صورها عمل صالح لما أقدم عليها من يخشى الله ويتقيه .

وإذا تقلد الإنسان ولاية برز هوى نفسه الأمارة بالسوء لكثرة المغريات ، فإذا لم يتصور الإنسان نفسه التي بين جنبيه عدوًّا له في بعض الأحيان فإنه سالك سبيل الهلاك ، لأنه لن يعمل على كبح

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٨١ - ٨٣ .

جماح النفس وتقويمها، وقد تكره النفس الاستقامة على منهج الإسلام الكامل فلابد من إكراهها على سلوك هذا السبيل ، وسيتحول الأمر بعد شيء من المعاناة - تقصر أو تطول - إلى منهل عذب وسبيل رحب، تهواه النفس المطمئنة وتنافس عليه .

والمسئول يبتلى بمعاملة الناس على مختلف أذواقهم ومشاربهم، وقد تتحول هذه المعاملة إلى معاناة ومكابدة، فلا يغتر المسئول بكونه أقدر على أفراد رعيته منهم عليه فيعاملهم بشيء من العنف والقسوة وإن ساءت معه أخلاقهم وغلظت معه طباعهم، بل عليه أن يبذل جهده في تعليم الجاهل الأدب وحسن المعاملة ، فإن التعليم من الأعلى له دوره المؤثر ، حيث إنه يملك هيبة المسئولية ، فإذا تحول عما ينتظر منه عادة من محاولة فرض السيطرة إلى محاولة تعليم الناس وتهذيب أخلاقهم فإن النفوس تُكْبِر ذلك فيه وتقبل على توجيهه .

وإذا أخطأ أحد أفراد الرعية خطأ يستحق عليه العقوبة فمن واجب الوالي أن يتأنى في إجراء العقوبة ، وأن لايحكم عليه وهو غضبان، فإن مع الغضب شيطانا ، والقوة الغضبية أميل إلى الجور والعسف، ولذلك أمر النبي ﷺ من غضب بالوضوء أو بالقعود إن كان قائمًا ليزول غضبه قبل أن يتصرف ، وليندحر شيطانه .

وإن من فضائل بعض الأنظمة الإدارية المعاصرة أن المسئول لايجري العقوبة وحده ، وإنما يحيل الأمر إلى لجنة مختصة بدراسة القضايا وتحديد العقوبات المناسبة ، فإن هذا النظام يبعد حالة التصرف مع الغضب تماما ، ويتيح الفرصة لدراسة الأمور بتؤدة وروية ومشورة

بين عدد مـن الأفراد ، فهـو أدنى إلى التثبت والعدالة ، وأبـعد من المجازفة والجور .

وإن مما يحمل المسئول أحيانًا على القسوة والحيف محاولة الإبقاء على هيبة السلطة والظهور أمام جلسائه ومن تحت إدارته بمظهر القوة، وقد يداهنه من حوله بتحريضـه على المخالف لظنهم بأن ذلك يكسبهم رضاه ، فيسهمون بذلك في حمله على الظلم .

وقد يحـصل ماهو ضد ذلك إذا كان لبـعض الجلساء أو الإداريين غرض في التـخفيف عن المخالف فـيحاولون أن يؤثروا على المسـئول ليعفـو عن المخالف ، وقد يترتب على ذلك تضيـيع بعض الحقوق أو الجرأة على المخالفة .

ولذلك فإن من أقوى العـواصم من الانحراف في الحكم أن تحال القضايا إلى لجانٍ متخصصة لدراستها وتقدير العقوبة المناسبة مع حسن اختيار أعضائها ومراقبتهم .

وإن مما أوصى به عـمـر بن عـبـد العـزيز في هذا الخطاب أن لا يستجلب المسئول بما يقدمه من خير وإصلاح ثناء الناس ولاجزاءهم ، وإنما يطلب من الله تعالى الأجر والثـواب على عمله ليكون خالصا ، وإذا كان كذلك فإنه أدعى للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة .

خبره مع المرأة التي فرض لبناتها من بيت المال :

أخـرج ابن عبـد الحكم رحمـه الله ، قـال : وقدمَتْ امـرأة من العراق على عمـر بن عبد العزيز ، فلمـا صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمـنين حاجب ؟ فقالوا : لا فَلِجِي إن أحـببت، فدخلت

المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها ، وفي يدها قطن تعالجه، فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها : ادخلي ، فلما جلست المرأة رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئًا له بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب ، فقالت لها فاطمة : إنما خَرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك .

قال : فأقبل عمر حتى دخل الدار ، فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت - وهو يكثر النظر إلى فاطمة - فقالت لها المرأة : استتري من هذا الطيان فإني أراه يديم النظر إليك ، فقالت : ليس هو بطيان ، هو أمير المؤمنين.

قال : ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته ، فمال إلى مصلًّى كان له في البيت يصلي فيه ، فسأل فاطمة عن المرأة ، فقالت: هي هذه، فأخذ مكتلا له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خَيْرَه يناولها إياه، ثم أقبل عليها فقال : ماحاجتك ؟ فقالت : امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كُسْد ، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهن، فجعل يقول: كسل كسد ، ويبكي ، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق ، فقال سمِّي كبراهن ، فسمتها ففرض لها ، فقالت المرأة: الحمد لله ، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة ، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربع استفزَّها الفرح فدعت له فجزَّته خيرا، فرفع يده وقال : كنا نفرض لهن حيث كنت تُوْلين الحمد أهله، فَمُرِي هؤلاء الأربع يُفِضْن على هذه الخامسة .

فخرجَتْ بالكتاب حتى أتت به العراق ، فدفعته إلى والي

العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ، فقالت : أمات ؟ قال : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال : لابأس عليك ، ماكنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها [1] .

في هذا الخبر عدة مواقف :

الأول : شهادة تلك المرأة على زهد عمر بن عبد العزيز ، حيث لم تجد في بيته شيئًا يُذكر من الأثاث ، فيئست من الحصول على مايصلح شأنها من صاحب ذلك البيت الخرب، ولكن زوجة عمر فاطمة بنتَ عبد الملك طمأنتها ، حيث بينت لها أن خراب بيت أمير المؤمنين ، إنما هو بسبب عمارته بيوت الرعية، حيث اقتصد في الإنفاق على أسرته وأقاربه ، ووسع في الإنفاق على الرعية .

الموقف الثاني : في تواضع عمر بن عبد العزيز البالغ، وقد ظهر ذلك في قيامه بإصلاح ماخرب من بيته بنفسه، حيث صار يخلط الطين ويصلح به ماتهدم من بيته ، حتى ظنَّته تلك المرأة طيَّانا، وحيث قام بعد ذلك بانتقاء جيد الفاكهة ومناولته تلك المرأة المسكينة .

ولاشك أن تواضع الكبار وقيامهم بمثل هذا العمل المدهش، يعتبر من أهم أسباب تقوية المحبة وتثبيت الولاء كما أنه من أبلغ الوسائل لتربية الأمة على التواضع، لأن من في قلبه ميل إلى الكبر سيجد في نفسه صدودًا عن ذلك، وقناعةً بالاعتدال في السلوك، تأسيًا بأولئك الأكابر .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /١٦٩ .

والموقف الثالث : في اهتمامه بأمر تلك المرأة المسكينة حيث فرض لها ولبناتها مايكفيهم من بيت مال المسلمين ، بينما نجده قويّا متصلبا في معاملة الأكابر ، الذين يريدون أن يأخذوا من مال المسلمين مالايحل لهم ، فهو لين متواضع لطلاب الحق، شديد قوي على طلاب الباطل .

الموقف الرابع : في جواب عمر لتلك المرأة حينما شكرته لمَّا فرض لبنتها الرابعة بعد أن كانت تشكر الله تعالى ، حيث أوقف فرض العطاء لبنتها الخامسة وأمرها بأن تُفيض عليها من عطاء أخواتها، وهذا الموقف يبين عظمة فهم عمر لتوحيد الله تعالى، ومبلغَ تذكره لعظمته ، وحمَده لنعمته ، وقد قام بما قام به من هذا التصرف ليعطي تلك المرأة وغيرَها درسًا عمليًا في التوحيد هو أبلغ من الدروس النظرية .

وليس معنى هذا أن شكر المحسنين والدعاء لهم يتنافى مع التوحيد فإن النبي ﷺ يقول « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » [1]، ويقول «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له حتى تُرَوا أنكم قد كافأتموه » [2] ، وعمر بن عبد العزيز من أعلم المسلمين بالسنة ولكن لما بدأت تلك المرأة بحمد الله تعالى ثم قطعت ذلك وتحولت إلى شكره وهو الدعاء له أحس بأن ذلك مخلٌّ بالتوحيد لأن فيه إشعاراً بتقديم شكر المخلوق على شكر الخالق جل وعلا .

(١) مسند أحمد ٢/٢٥٨ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ١٦٧٢ ، الزكاة ١/ ٣١٠ ، مسند أحمد ٢/ ٦٨ .

إنصافه الذميين من أهل نجران :

أخرج المؤرخ أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الحسن البصري قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا : إنا قد أسلمنا قبلك، فقال، كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث، أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما لله ولد. قالا، فمن أبو عيسى قال الحسن : وكان ﷺ لايعجل حتّى يأمره ربُّه فأنزل الله تعالى ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [١].

فقرأها رسول الله ﷺ عليهما ثم دعاهما إلى المباهلة[٢] وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين فقال أحدهما لصاحبه : اصعد الجبل ولاتباهله فإنَّك إن باهلتهُ بُؤْتَ باللعنة، قال: فما ترى قال: أرى أن نعطيه الخراج ولانباهله .

ثم ذكر كتاب النبي ﷺ إليهم وفيه أنه وضع عليهم ألفي حلة في كل عام .

ثم ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمضى ذلك عليهم .

ثم ذكر رواية من خبر سالم بن أبي الجعد قال : كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : أجْلِنا ، وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها

---

(١) سورة آل عمران /٥٨ - ٥٩ .

(٢) المباهلة الملاعنة وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

فأجلاهم ، فندمـوا بعد ذلك وأتوه فقالوا : أقِلْنا، فـأبى ذلك ، فلما قـام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتـوه فقـالوا: ننشـدك خطك بيمينك (١) وشفاعـتك لنا عند نبيك إلا أقَلْتَنا ، فقال : إن عـمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه .

وذكر أن بعضـهم جلا إلى الشام وبعضـهم إلى الكوفة ونزلوا في ناحية سُمِّيت النجرانية باسمهم .

وذكر أنهم أتوا إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه كتب إلى عامله على الكوفـة الوليد بن عقـبة بأن يضع من جزيتـهم مائتي حلة لوجه الله تعـالى وعُقْـبَى لهم من أرضهم وقال : وإنـي أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

وذكر أنهم لما ولي معاوية رضي الله عنه أو يزيد بن معاوية شكوا إليـه تفرقـهم ومـوت من مـات منهم وإسلام مـن أسلم منهم وأنهم أحضـروا كتـاب عثـمان بن عـفان رضـي الله عنه بما حطَّ عنهم من الحلل، وقالوا : إنما ازددنا نقصانا وضعفا فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة .

قال : فلمـا ولي الحجاج بن يوسف العراق وخـرج ابن الأشعث عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهـمهم معهم فـردهم إلى ألف وثمانمائة حلة، وألزمهم بنوع جيد منها.

قال : فلما ولي عمر بن عبـد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وإلحاح الأعـراب بالغارة عليـهم وتحمـيلهم إياهم المؤن المجحـفة بهم

(١) يعني أنه هو الذي كتب لهم الكتاب في عهد رسول الله ﷺ .

وظلم الحجاج إياهم، فأمر فأحصوا فوجدوا على العشر من عِدَّتهم الأولى ، فقال : أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح على أرضيهم، وجزية الميت والمسلم ساقطة فألزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم (١).

فهذا الخبر يبين لنا شيئًا من علم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعدله ورحمته ، فهو قد أدرك بأن جزية الذميين من أهل نجران على رؤوسهم وليست على أراضيهم، والأفراد ليس عددهم ثابتا بل يزيدون وينقصون، ولما كان عددهم قد أصبح على العشر من عددهم أيام رسول الله ﷺ فإن جزيتهم ينبغي أن تنقص إلى العشر، وهذا من الفقه في معرفة السنة النبوية، وقد كَلَّل فهمه هذا بالعدل والرحمة ، حيث أنقص جزيتهم إلى العشر، وهو بهذا يكون قد طبق سنة النبي ﷺ في تقدير جزيتهم .

إنصافه الذميين من أهل قبرص :

أخرج البلاذري من طريق محمد بن سعد عن الواقدي بإسناده قال: لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحطها عنهم ، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها، فجرى ذلك إلى خلافة أبي جعفر المنصور فقال: نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية (٢).

---

(١) فتوح البلدان / ٨٦ - ٩١ .

(٢) فتوح البلدان / ٢١٠ - ٢١١ .

فهذا أيضا مثل من إنصاف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في معاملة الذميين من أهل قبرص حيث وضع عنهم الزيادة التي رآها ظلما لهم، وقد تأسى به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في هذه العدالة رحمهما الله تعالى .

إنصافه أحد المظلومين من اليمن :

ذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن متظلما فقال :

تدعون حيران مظلوما ببابكم ... فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

فقال ماظلامتك ؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي، فقال : يامزاحم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه : أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان، فقال أخرجها من الدفتر وليكتَبْ برد ضيعته إليه ويطلق له ضِعْف نفقته [1].

وهكذا طمع في عدل أمير المؤمنين أبناء البلاد البعيدة ، فجاء هذا الرجل من اليمن يطلب حقه الذي اغتُصب منه، فأعاد إليه عمر أرضه وأعطاه ضِعْف نفقته التي صرفها في سفره، ليكون ذلك تعويضا عما صرفه في قدومه وماسيصرفه في عودته، لأن من حقه أن تعود إليه أرضه المغتصبة وهو في بلده من غير أن يخسر شيئا .

سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز :

أرسل عطاء بن رباح إلى فاطمة بنت عبد الملك يسألها عن أحوال

---

(١) الأحكام السلطانية / ١٠٣ .

عمر بعد موته فقالت : أفعلُ ، إن عـمر رحمة الله عليه كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته ، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه ، فـدعا بسراجه الذي كان من ماله، فـصلى ركعتين ثم أقعى واضعًا رأسه على يديه ، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائما ، فدنوت منه فقلت : ياأمير المؤمنين أليس كان منك ماكان ؟ قال : أجل فعليك بشأنك وخلِّيني وشأني ، قالت: فقلت : إني أرجو أن أتَّعظ ، قال: إذًا أخبرك ، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع،والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشباهَ ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلي عنهم ،وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم،فخفت أن لايقبل الله تعالى مني معذرة فيهم،ولاتقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يافاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني،ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكرًا ازددت منها خوفا، فاتَّعظي إن شئت أو ذَرِي (١).

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التي تحملها ، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد بقي من المسلمين من لم تُرفع إليه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٧٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٦٠ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤٥/١٩٧ .

حاجته ، فيكون مسئولا عنه .

وفي تذكُّره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد ، فأصبح ذلك دافعًا له إلى العدل والرحمة، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة .

وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف من الزلل، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات ، وقوي أمام جميع التحديات ، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم، وصغر في نظره كل أمر جسيم .

خبره مع الخوارج :

قال المؤرخ أبو الحسن محمد بن الأثير : في هذه السنة - يعني سنة مائة - خرج شوذب - واسمه بسطام - من بني يشكر في جوفي، وكان في ثمانين رجلا ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة :أن لايحركهم حتى يسفكوا دما ويفسدوا في الأرض ، فإن فعلوا وجه إليهم رجلا صليبا حازما في جند ، فبعث عبد الحميد محمد بن جرير البجلي في ألفين،وأمره بما كتب به عمر.

وكتب عمر إلى بسطام يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر عليه وقد قدم عليه محمد بن جرير ، فقام بإزائه لايتحرك، فكان في كتاب عمر: بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ولست أولى بذلك مني فهلم إلي أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك .

فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيًا اسمه عاصم ورجلا من بني يشكر ، فقدما على عمر بخناصرة فدخلا إليه فقال لهما : ما الذي أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم ؟ فقال عاصم: مانقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتززتهم أمرهم؟ فقال عمر: ماسألتهم الولاية عليهم ولاغلبتهم عليها،وعهد إلي رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضى بكل من عدل وأنصف مَنْ كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلاطاعة لي عليكم.

فقالا : بيننا وبينك أمر واحد قال : ماهو ؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ منهم ، فقال عمر . قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فاخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا ، وقال إبراهيم عليه السلام ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) وقال الله عز وجل :﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ** ﴾(٢) وقد سميت أعمالهم ظلمًا وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن الذنوب فريضة لابد منها فإن قلتم : إنها فريضة فأخبرني متى لعنت

(١) إبراهيم / ٣٦ .

(٢) الأنعام / ٩٠ .

فرعون ؟ قال: ماأذكر متى لعنته قال : أفيسعك أن لاتلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولايسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟

قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول : لاأعمل بسنة رسول الله ﷺ ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء .

قال عاصم : فابرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر: أخبرني عن أبي بكر ، وعمر أليسا على حق ؟ قالا : بلى قال : أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال ؟ قالا : بلى قال : أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية ؟ قالا : نعم قال : فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قالا : لا ، قال : أفتبرؤون أنتم من واحد منهما ؟ قالا : لا .

قال : فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلمان أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا . وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل؟ قالا: نعم قال : فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ قالا : لا، قال : أفتبرؤون أنتم من أحد من الطائفتين ؟ قالا : لا ، قال : أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد

علمتم اختلاف أعمالهم ولايسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟ فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ماردَّ عليهم رسول الله ﷺ وتردُّون عليهم ماقبل ، ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمنا وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونه ، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم .

فقال اليشكري : أرأيت رجلا ولي قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمه لله عز وجل أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا قال : أفتُسْلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لايقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي ، قال : أفترى ذلك من صُنع من ولاه حقا ؟ فبكى عمر وقال : أنظراني ثلاثا .

فخرجا من عنده ثم عادا إليه فقال عاصم : أشهد أنك على حق فقال عمر لليشكري : ماتقول أنت ؟ قال : ماأحسن ماوصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ماقلت وأعلم ماحجتهم، فأما عاصم فأقام عند عمر فأمر له عمر بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشر يومًا، فكان عمر بن عبد العزيز يقول : أهلكني أمر يزيد وخُصمت فيه فأستغفر الله [1] .

في هذا الخبر تبين لنا بروز أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبدالحكم / ١٢٧ - ١٣١ ، وتاريخ الطبري ٦/ ٥٥٥ .

وتفوقه في مجالات عديدة ، منها :

١ - أنه التزم المنهج الإسلامي في معاملة المخالفين، فحينما خرج أولئك الخوارج في عهده لم يسلك معهم طريقة أكثر الولاة الذين سبقوه ، حيث كانوا يعقدون الألوية لقتالهم من غير أن يدخلوا معهم في حوار علمي ، بل أرسل إلى أميرهم وطلب منه أن يحضر لمناظرته، وأبدى استعداده للرجوع عما هو عليه إذا تبين له أن الحق في غيره ، وهذا التنزل مع الخوارج الذين يعتبرون من أعنف المخالفين يدل على تجرده من هوى النفس ، وأن هدفه الأعلى تطبيق الإسلام كما جاء من عند الله تعالى .

٢ - غزارة علمه بالكتاب والسنة والتاريخ ، حيث دخل في حوار مع قوم قد كانوا فرغوا أنفسهم لقضايا علمية محددة خالفوا فيها السواد الأعظم من المسلمين وتعمقوا فيها واستعدوا للجدل والمناظرة حولها، فأفحمهم وقطع حججهم واستطاع أن يؤثر على الرجلين اللذين أوفدوهما حتى اقتنعا برأيه في أغلب القضايا التي ناظراه فيها.

٣ - حينما ناقشه الخارجيان في ولاية يزيد بن عبد الملك وظهر له الحق في ذلك لم يكابر ولم يغير الحقائق، ولم يدافع عن الواقع الذي هو فيه وإن كان باطلا ، بل ظهر منه ما يدل على اعترافه بأن ذلك الأمر باطل ، وقوله « أهلكني أمر يزيد وخُصِمت فيه فأستغفر الله» يدل على أنه كان يرى أن تصحيح ذلك الأمر سيوقع في فتنة كبيرة يترتب عليها سفك دماء المسلمين ، وهو شديد الورع في ذلك .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الوليد بن مسلم قال، قال الأوزاعي : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إليه رجل من

الشراة[1] يقال له عمرو بأبيات :

قل للمولّى على الإسلام مؤتنفا ... وقد يرى أنه رثٌّ القوى واهي
إذ رابه معشر عدُّوه مأكلة ... بنخوة الملك والإسراف والباه
إنا شرينا بدين الله أنفسنا ... نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرف ... كفى بذاك لهم من زاجر ناهي
وإن قصدت سبيل الحق ياعمرا ... آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واعظهم ... في جور سيرتهم فالحكم لله

قال فأجابه عمر بن عبد العزيز :

ياأيها الرجل المهدي نصيحته ... إن المحاسن والتوفيق بالله
إن كان أمر من السلطان تنكره ... فماعرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب كتاب الله نقرؤه ... مصدق الوحي فينا آمر ناهي
فقد يَزِلُّ الذي يبغى الهدى رهقا ... عند الشريعة وهو العالم الداهي
الملك ياعمرو ملك الله خالقنا ... والحكم ياعمرو مردود إلى الله

قال فأتاه فبايعه ولم يخرج عليه [2].

وهذا الخبر يدل على تفوق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في إنشاء الشعر حيث رد بهذه الأبيات الشعرية على البديهة، وهي أبيات رصينة في مبناها ومعناها .

---

(١) يعني من الخوارج .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز /١٩٧.

٤ - جهوده في الدعوة والإصلاح -

من توجيهاته في آداب الصحبة :

إن من مواقف عمر بن عبد العزيز رحـمه الله القيام بتوجيه أفراد الأمة نحو السلوك القويم، ومن نماذج ذلك مـاجاء في رواية لابن عبد الحكم قال : ولما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه ، فقال: يامعشر المسلمين إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعـد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض وسنَّ سننًا ، من أخذ بها لَحِق، ومن تركهـا مُحِق، ومن أراد أن يصحـبنا فليصحـبنا بخمس، يوصل إلينا حاجة من لاتصل إلـينا حاجته، ويدلنا من العدل إلى مـالانهتدي إليه ، ويكون عونـا لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولايغـتب عندنا أحدا، ومـن لم يفعل فـهو في حـرج من صـحبـتنا والدخول علينا (١) .

ففي هذا الخبـر مثل من تواضع عمر ورغـبته الأكيـدة في القضاء على العـادات الموروثة التي أشـبـه بهـا الولاة آنذاك الأكـاسـرة والقـياصـرة.. وعـزمٌ صارم على الـعودة بالأمـة إلى منهج الخلفـاء الراشدين.

وعمر بهذا يحـجِّم دافعَيْن قويين يدفعانه إلى مجـاراة عشيرته في مظاهرهم . . أولهـمـا طموح النفـس نحو الظهـور وفـرض السلطة والهيبة في قلوب الناس ، وثانيهما : رغـبة عشيرته الملحة في الإبقاء

(١) سيـرة عمـر بن عبد الـعزيز لابن عبـد الحكم / ٤١ وانظر البداية والـنهاية ٩/ ٢٠٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٢ ، وتاريخ دمشق ٤٥/ ١٦٩ .

على هذه المظاهر ، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه .

ولكنه تغلَّب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي، وكان الدافع الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله تعالى ورغبته فيما عنده ، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوي ، وكان هذا الدافع عنده أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح في إلجام نفسه عن هواها، وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن يكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية .

وفي قوله « إن الله فرض فرائض » بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، فمن طبقها لحق بركب المتقين في الدنيا ، وأكرمْ به من رفقة صالحة ، وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة ، وأكرمْ به من مآل وعاقبة .

ثم رسم منهجه الذي يريده ممن يريد صحبته في مجالسه حيث حدد لهم الخصال الخمس التي يريدها منهم ، وكأنه يقول لهم إن عهد النفعيين الذين يصحبون السلطان لتيسير مصالحهم ومصالح عشائرهم قد انتهى ، فمن كان يريد صحبة الأمير فليصحبه للنظر في حوائج المسلمين العامة ، والنظر في رفع مستوى الأمة في مجالات الخير، وتقريب الصلة بينها وبين ولاتها ، وذلك بإيصال حاجة من لايستطيع الوصول بنفسه ، وكم في الأمة من أمثال هؤلاء الذين يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لايستطيع أن يجاوز بها محيط أسرته، والذين يقومون بذلك هم من روّاد الإصلاح في المجالين: مجال

المسئـولين :حيث يعينونهم على أداء مسئوليتهم في أمـور قد لاتصل إليهم وهم مـسئولون عنها ، وفـي مجال أولئك المغمـورين الذين قد لايصلون إلى قضاء حوائجهم إلا بمثل هؤلاء المصلحين.

إن الذين يبذلون جاههم لوجه الله تعالى قليل ، وإذا فعلوا ذلك فربما بدؤوا وسـاطة الخيـر ثم قد لايكملونهـا، وكأنما أرادوا مـجاملة صـاحب القضـيـة ورأوا أن ماقـاموا به يكـفي في ذلك، ولكنهم في الحقيقة لم يصنعوا له شيئًا إذا لم يساعدوه على نجاح قضيته، أما الذين يريدون وجه الله تعالى فإن الذي يهمـهم هو النظر في إسعاد إخوانهم المسلمين والسعي في إنهـاء قضاياهم ليحـصلوا على ثواب الله العظيم الذي بذلوا جاههم من أجله .

وفي الخصلة الثانية يوصي عمر من أراد صحبته أن يدلَّه من العدل إلى ما لا يهـتدي إليه ، وهي رغـبة صادقـة من عمر رحـمه الله في الوصول إلى كمـال العدل ، فبالرغم من اجتـهاده في ذلك فإنه يدرك أن الحاكم قد تخْفَى عليه بعض جوانب العدل ، فإذا كان أصحابه من المهتمين بهذا الجانب ، وقد أدركوا رغـبته في ذلك فإن أفكارهم تَتَفَتقُّ على جوانب من العـدل قد لاتخطر ببـال ذلك الوالي وإن كان عظيم الاهتمـام بالعدل لأنه لايملك إلا فكرًا واحدًا ، لكنه حـينما يجنِّد من حوله لخـدمة هذه القضيـة التي وقف عليها حـياته فإنه سيـملك نتاج أفكار كثيرة، تُهدي إليه من درر النصائح مالايخطر له على بال .

وهكذا كانت عظمـة العظماء من الأمراء والقادة الذين رفـعوا في حياتهم قـضية كبرى ، ووجـهوا كل اهتماماتهم واهتـمام من حولهم

نحو هذه القضيـة ، فإنهم ينجحون في قضيتهم غـالبا ، سواء كانت من قضايا الدنيا البـحته أو من قضايا الدنيا والآخـرة ، بسبب مشورة الناصحين الذين يجندون عقولهم لخدمة تلك القضية .

وفي الخصلة الثـانية يقـول « ويكون لنا عونا على الحق » وعُـمَر بهذا يفتح المجال واسعـا أمام روَّاد الإصلاح الذين يرون الحق واضحا ويتمنون أن تكون لهم قدرة على تنفيذه ، فـقد فُتح الباب أمامهم في عهد عمـر من أعلى سلطة في البلاد ، ولاشك أن من لديه أيٌّ منهج للإصلاح وتنفيذ الحق سيسارع إلى تلبية هذا النداء ، مستفيداً من ذلك التعاون المتبادل بين الراعي والرعية .

ثم يقول « ويؤدي الأمانة إلينـا وإلى الناس » ، فأداء الأمانة دليل على قـوة الإيمان وطـهـارة النفس من الأنانيـة وحب الـدنيـا ،وعلى طموحهـا إلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعـادة الأخروية،وذكر أداء الأمـانة إلى الناس لبـيان أصـالة الأمانـة واشتـمال صـاحـبهـا على الإخلاص،لأن من يؤدي الأمـانة لأصحـاب السلطة ولايؤديها لعـامة الناس،قد يفعل ذلك خوفا من صاحب السلطة ومراءاة له،لكن حينما يكون أمينا مع عموم الناس فإن هذا يدل على إخلاصه لله تعالى .

ثم قال « ولايغـتب عندنا أحدا » وهذه الخصلة من الخـصال التي أوصى بها العباس ابنه عـبد الله رضى الله عنهما في مجالسـته لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حتى تظل ثقته به قائمة .

وذلك أن من تكلـم في الآخـرين عند المسـئـولين فـهـو رجل وُصولي، يحاول الوصول إلى كسب ثقة المسـئول على حساب تجريحه

لأعراض إخوانه المسلمين ، وهؤلاء الذين يغتابون الناس عند المسئولين هم من النوع الذي يستهويه المجد الدنيوي ويريد الوصول إليه بدون تضحية ولانصب ، فتلوح لهم أعراض إخوانهم كطريق سهل للوصول، ويجدون أحيانًا آذانًا صاغية ورغبة في الاستزادة فلايبالون في رمي جثث إخوانهم والتسلق عليها للوصول إلى أهدافهم الدنيوية .

ولقد كان اختيار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز موفقا في هذه الشروط التي اشترط توفرها فيمن يريد صحبته، وختْمها بهذا الشرط دليل على فقهه الاجتماعي ، وإدراكه العميق لما للغيبة من آثار سيئة، خاصة في العلاقة بين الحاكم والمحكومين وهو المجال الذي اهتم به عمر وحدّد هذه الشروط من أجله .

من تذكيره بالآخرة:

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الدعوة قوله في خطبة له : إني لم أجمعكم لأمر أحدثته ، ولكني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكا ، ثم نزل [1] .

وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وماقبله من عذاب القبر ونعيمه ومابعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لايُعدُّ العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقا أحمق، حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٢ .

أما المكذب به فهـو هالك لأن من كذب بالبعث فهو كـافر مخلد في النار يوم القيامة .

من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة :

إن من مظاهر العظمة في حـياة أميـر المؤمنين عمر بن عبـدالعزيز رحمه الله أنه جـمع بين السياسة الواعية العـادلة والعلم والدعوة فمن مواقـفه في الدعوة قـوله في إحدى خطبـه : أما بعد أيهـا الناس فلا يطولنَّ عليكم الأمد، ولايبعدَنَّ عليكم يومُ القيامة ،فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لايَستَعْتب من سيء ولايزيد في حسن، ألا لاسلامة لامرئ في خلاف السنة ،ولاطاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم تعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصيا، ألا وأن أَولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإني أعـالج أمـرًا لايعين عليه إلا اللـه ، قد فني عليـه الكبير ، وكبـر عليه الصغير ، وفصح عليه الأعـجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه دينا لايـرون الحق غيره، ثم قال : إنه لحبيب عليَّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولاقوة إلا بالله (١) .

ففي هذه الخطبـة يُذَكِّر عمـر بن عبد العـزيز المسلمين بقرب يوم القيـامة ، فإن من وافتـه منيته فقـد قامت قيامـته ، فلينظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة ، وحينهـا لايستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سوَّد بها صحيفته ، ولايستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيِّض به صحيـفته ، ويندم حينما لاينفع الندم على مـافاته في حياته يوم أن كان قادرًا على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٣ .

ثم يبين أن السلامـة كل السلامة في اتبـاع سنة رسول الله ﷺ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الـصالح ، وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعـة السنة ، وهو بهذا يعالج واقعًا لاينقص العمـلَ فيه الإخلاصُ وإنما ينقصه اتباعُ السنة ، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وفـسـادُ بعض الولاة الذين يحـاربون بعض السنن التي لاتتفق مع أهوائهم .

ثم يبين أحد العواصم الـتي تعصم من انتشار البدع وفـساد أمور الأمة حيث يقول « ولاطاعة لمخلوق في مـعصية الله » فإذا كان بعض الولاة قد تسوِّل لهم نفـوسهم الأمارة بالسوء أو مـجاملة الآخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله تعـالى ، أو يمهدوا السبل لذلك فإنه لاطاعة لهم ،وبهذا ينقطع سبب مهم من أسـباب سريان تلك المخالفات وهو ما لولاة الأمر من طـاعة على الأمة ، فإذا تحددت هذه الطـاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتـشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح .

ثم يبين أن ماجرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصـيا ليس له اعتبـار في النظر الشرعي ، لأن تصرفـه هذا هو أحد الأسـبـاب التي يتـخذها لـلخلاص من الـظلم ، وأَولَى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم .

وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى مـوقع من المسئولية دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة وإخلاصه لله تعالى .

ثم يصف الواقع الاجتماعي الذي اخـتلطت فيه العادات بالدين،

والبدع بالسنن ، ونشأ علـيه أفراد المجتمع ، وتربَّى على توجـيهه من أسلم من العجم ، ومن هاجـر من الأعراب حتى حسـبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجـاهلية فإن ذلك يؤثر على تربيـة أفراد المجتمع، وتَتَـشرَّبه قلوبهم لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبـية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة ، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلِّصوا العرف الاجتـماعي الإسلامي من تلك الأخـلاط المتسـرِّبة المتراكمـة على مر الزمن ، لأن كل انحـراف له أنـصـاره ومـؤيدوه ، وليس كل أفـراد المجتـمع يفهمـون الأمور على حقيـقتهـا ، وحينما يقـوم المصلحون بمحاولة التنقيـة يقوم دعاة السوء بتشويه إصـلاحهم ودعوة الناس إلى البقـاء على الموروثات ، لأن كونهـا موروثات يعطيهـا في نظر بعض الناس شيئًـا من القداسة ، ولكن حينما يَنْبُع الإصـلاح من أعلى قمة في المسئـولية كما هو الحـال في عهد عمـر بن عبد العزيز فـإن نتائج الإصلاح تكون كبيـرة وسريعة المفعول ، لأن معه مـاخوَّله الله تعالى من طاعة الرعـية مادام في طاعـة الله تعالى إلى جـانب قوة السلطان المعهودة .

إنكاره العصبية القبلية :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن، وكان مما جاء في كتابه : إن ما هاجني على كـتابي هذا أمر ذُكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أَمِروا حديثًا ، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ، ونسوا فيه بلاءه نسيانًا عظيمًا ،

وغيروا فيه نِعَمَه تغييراً لم يكن يصلُح لهم أن يبلغوه، وذُكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضَر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم ، وسبحان الله وبحمده ماأبعدهم من شكر نعمة الله، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أيةَ منزلة نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقي بنيَّته يشقى ، وأن النار لم تُخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قوله الله في كتابه ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (١)وقوله ﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢) وقد ذكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف وقال لاحِلْف في الإسلام قال : وماكان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلاّ شدة فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصنًا، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وَليجة، تحذيراً بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيراً بعد التذكير وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصيَة كل دابَّة ، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإني لم آلُكمْ بالذي كتبت به إليكم نصحًا ، مع أني لو أعلم أن أحدًا من الناس

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣.

يحرّك شيئًا ليؤخذ له به . أو ليدفع عنه، أحرصُ- والله المستعان - على مَذلته مَن كان : رجلاً أو عشيرةً أو قبيلة أو أكثر من ذلك ، فادعُ إلى نصيحتي وماتقدمت إليكم به ، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عونًا بألسنتهم، وإن كثيرًا من الناس لايعلمون . نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وأُلفتنا وذات بيننا والسلام (١) .

في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافا خطيرًا طرأ على المجتمع الإسلامي آنذاك ، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعي، قد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم على القبائل والعشائر، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل وسواء بالعدل أو بالظلم ، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها ، وقد أغفلوا بذلك الرابطة الإسلامية التي شرف الله تعالى العرب بها ، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين ، وسادوا بجماعتهم العالم .

وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين الذين خرجوا من بلاد العرب للجهاد في سبيل الله تعالى يتحاربون بينهم بدعوى قبليَّة ، مما سبب تأخرًا في تقدم الجهاد ، وجرأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة ، ووصلت الحال في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /١٠٣ - ١٠٦ .

أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم ، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، و ماذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التي هي نعمة كبرى على المسلمين ، وإتخاذ الروابط الجاهلية بديلا عنها .

اهتمامه بشكر النعمة :

لقد تفوق عمر بن عبد العزيز بالعلم والاهتمام بالدعوة، فمن ذلك أن عديَّ بن أرطأة واليه على البصرة كتب إليه يقول: لقد أصاب الناسَ من الخير خيرٌ حتى خشيت أن يبطُروا ،قال : فكتب إليه عمر: إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهلِ الجنة الجنة وأهلِ النار النار رضي من أهلِ الجنة بأن قالوا ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[1] فمُرْ من قِبَلك أن يحمدوا الله [2].

وهذا يعتبر إدراكًا عاليًا من عمر رحمه الله لشكر نعمة الله تعالى، وهو مثل من فهمه العالي لتوحيد الله جل وعلا، فإن النعمة مهما كثرت فإنه لاضرر منها على توحيد المسلم مادام حامدا لله تعالى، شاكراً لأنعمه ، بل إن زيادة النعمة تقتضي زيادة الحمد والشكر فيزداد العبد التقي إيمانًا وعملا صالحا .

واستشهد عمر رحمه الله بقول أهل الجنة ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ وقد وفق في ذلك ، فليكن المسلم في الدنيا على سَنَن

---

(١) الزمر / ٧٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٩ .

أهل الجنة في الحمد والشكر ، حيث إن الله تعالى سيوفق أهل الجنة إلى أعلى المقامات .

اهتمامه بتعليم أهل البادية :

اهتم عمر بن عبد العزيز بدعوة أهل البادية إلى الإسلام وتعليمهم، ومن أمثلة اهتمامه بهذا الجانب إرساله يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلّما الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ماكنت لآخذ على علم علّمنيه الله أجراً فَذُكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال: مانعلم بما صنع يزيد بأسا ، وأكثر الله فينا مثل الحارث [1] .

وهذا دليل على فقه عمر حيث أقر يزيد بن أبي مالك على أخذ المساعدة المادية ، لأنها في مقابل تفرغه لتعليم العلم حتى لايكون مضطراً إلى العمل في طلب الرزق فيشغله ذلك عن التعليم، وحيث أثنى على الحارث بن محمد على ورعه وطلبه الكمال في دينه .

وإن موقف الحارث هذا يعتبر مثلا جيداً من أمثلة الورع وشكر النعمة حيث اعترف بنعمة الله عليه بالعلم وعرف أن مِن شُكْرِ ذلك أن يهب علمه لمن شاء بلا أجرة ولامكافأة من الدولة .

اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام :

إضافة إلى ما تقدم ذكره من أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٦٠ لابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٠ .

قد وضع الجزية عمن أسلم وماكان لذلك من أثر من دخول الكفار في الإسلام فإنه قد كتب إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام، ومن ذلك ماذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة مائة للهجرة حيث قال: وفيها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين - وقد كانت سيرته بلغتهم - فأسلم جيسيه بن داهر (١).

وماجاء في هذه الرواية من ذكر ملوك السند المقصود بهم من لم يدخلوا في الإسلام قبل ذلك ، والمعروف في فتوح السند أن ملوك السند قد دخلوا في الإسلام ماعدا جيسيه بن داهر الذي فر إلى كشمير، فلعل صواب الرواية أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك السند والهند .

وقد جاء في خبر ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي مايؤيد ذلك حيث قال: قال ابن عساكر : كتب ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الهند والسند ملك الأملاك، الذي هو ابن ألف ملك وتحته ابنة ألف ملك، والذي في مملكته نهران يُنبتان العود والكافور والأكرة التي يوجد ريحها من اثني عشر فرسخا، والذي مربطه ألف فيل وتحت يده ألف ملك إلى ملك العرب :

أما بعد : فإن الله قد هداني إلى الإسلام فابعث إليَّ رجلا يعلمني الإسلام والقرآن وشرائع الإسلام، وقد أهديت لك هدية من

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٦٠ ، وقد جاء اسم هذ الملك في الكامل جيشبة بن زاهر، وهو خطأ والصواب ماأثبته كما تقدم كثيراً في فتوح السند .

المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها ، فإنما أنا أخوك في الإسلام، والسلام [1].

ومن أخبار انتشار الإسلام بين الكفار في عهد عمر بن عبد العزيز بسبب دعوته ماذكره البلاذري في أخبار فتح المغرب والأندلس قال: ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ولى المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، فسار أحسن سيرة ، ودعا البربر إلى الإسلام، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتبا يدعوهم بَعْدُ إلى ذلك، فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب [2].

وهكذا استثمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الفتوح الإسلامية التي سبقته للدعوة إلى الإسلام ، فإن دخول الناس في الإسلام هو الهدف من تلك الفتوحات، ولقد كان تجبُّر بعض الولاة السابقين وظلمهم من أسباب تعويق انتشار الإسلام، لأن الجهاد ماهو إلا فتح طرق لنشر الإسلام ، وذلك بإزالة الحكومات الطاغية التي تحول بين شعوبها والتعرف على الإسلام ، فإذا فتح الطريق وزالت العوائق فإن الأمم تنجذب إلى الإسلام بقدر ماترى من أخلاق أمة الإسلام وعدالة حاكميها، ولقد كان عمر بن عبد العزيز في قمة الأخلاق والعدالة واختار ولاة اجتهد في انتقائهم ليمثلوا الإسلام ويدعوا الناس إليه بأقوالهم وأفعالهم ، فكان لذلك نتائج طيبة في إقبال الناس على الدخول في الإسلام .

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٠ .

(٢) فتوح البلدان / ٣٢٤ .

اهتمامه بإصلاح المجتمع :

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز على الدعوة ، بل كان اهتمامه كبيرًا بإصلاح المجتمع والأمر بإزالة مايتفشّى فيه من المنكرات، وقد كَتَب في ذلك إلى أحد ولاته كتابًا طويلا بليغًا ، نورد بعض فقراته لأهميته وعظيم فائدته ، وفيه يقول : أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده،ولايزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقَمات ماقُمِع فيهم أهل الباطل ، واستخفي فيهم بالمحارم ، فلا يَظْهَرُ من أحدٍ منهم محرَّمٌ إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهنين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم ، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزَّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحدًا نجَّى أحدًا من أولئك ، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر ، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصِبْهم من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقَم ، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم ، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار ، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين ، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين .

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم وأَمِنَ الفسَّاق في مدائنكم وجاهروا من المحارم بأمر لايحب الله تعالى مَنْ فعله، ولايرضى المداهنة فيه ، كان لايُظهِر مثلَه علانيةً قوم يرجون لله وقارًا ،

ويخافون منه غيَرا ، وهم الأعـزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولابذلك تمت نعـمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كمـا قال الله تعالى ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (١) ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (٢) ولعمري إن من الجهـاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر ، وإنما سبيل الله طاعته .

ولقد بلغني أنه بطـأ بكثير من الناس عن الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقـاء التلاوم أن يقـال : فلان حـسن الخلق قليل التكلُّف، مقبل على نفسه ، ومـايجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقًا، بل أولئك أسوأكم أخلاقا ، وماأقبل على نفـسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولاسلم من الكلفة لها بل وقـع فيها ، إذ رضي لنفسه من الحـال غير ماأمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) .

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عـبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التي لاتتـخلف ، وهي أن أيَّ مجتمع يجـاهر فيه أهل الفساد بمعـاصيهم، ثم لاينهاهم أهل الصـلاح ولاينكرون عليهم فلابد أن يصيـبهم الله تعالى بإحدى ثلاث : أن يصيـبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده ، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتـقم الله بهم من العصاة الفجار،

(١) سورة الفتح / ١٩ .

(٢) سورة المائدة / ٥٤ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ .

أو يصيبَهم الله بالخوف والذل وأنواع النِّقم والمصائب .

ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضي الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي .

ويذكر أن من الجهاد في سبيل بالله تعالى الغلظة على منتهكي محارم الله والانكارَ عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب ، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته الشرعية، مثل قول الله جل وعلا ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (١) وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة في معاملتهم ، ومثل ماجاء في قول رسول الله ﷺ «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » (٢) .

ويصحح عمر في هذا الكتاب مفهومًا خاطئًا عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه ، حيث يبين أن هذا سيء الخلق، حيث تعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة ، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم ، ويَرُدُّ على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها في الجنة ، بل أقبل على هلكتها، حيث إن

---

(١) سورة التحريم / ٩ .

(٢) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح من رواية أبي داود والنسائي والدارمي، وصححه الألباني - ٢/ ٣٥٥ رقم ٣٨٢١ - .

السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها وقد توردە إلى النار ، وإذا كان في مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها في إصلاح المجتمع كما جاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: ماكان يقدم على أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير ، حتى خرج من الدنيا (١).

وهذا يبين لنا ضخامة المجهود الإصلاحي الذي قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

ويبين رحمه الله شدة اهتمامه بالإصلاح وحماسه له بقوله : فلو كان كل بدعة يميتها الله تعالى على يدي، وكل سنة ينعشها الله سبحانه على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرا (٢).

إباحته المراعي العامة للأمة :

أخرج ابن سعد من خبر إسماعيل بن أبي حكيم : أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف أباح الأحماء كلها إلا النقيع (٣) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٤٣ .

(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٥ .

وأخرج أيضا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب : فما حُمي من الأرض أن لايُمنع أحد مواقع القطر، فأبِح الأحماء ثم أبحها (١).

والحمى هو جزء من أرض المراعي يُحَمى لشخص أو قبيلة أو أي جهة أخرى، وقد كان الحمى في عـهد الخلفاء الراشدين لمصالح الأمة العامة كـمواشي الصدقة، ثم توسع الناس بعد ذلك في الحـمى فصار بعض الأحماء لمصالح خاصة، فلما تولى الخـلافة عمر بن عبد العزيز أبطل الأحماء الخاصة ولم يبق إلا مافيه مصلحة للأمة عامة، وهذا من إصلاحاته الكبيرة حيث أتاح الفرصة لأفراد الأمة للاستفادة من المراعي العامة .

توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة :

من إصـلاحـاته الفكرية أنه نهى الناس عن الخـوض في الخـلاف الذي جرى بين الصحابة رضي الله عنهم، كما أخرج ذلك محمد بن سعـد من خـبر محـمد بن الـنضر قـال : ذكروا اخـتلاف أصـحاب محمدﷺ عند عمر بن عبـد العزيز فقال : أَمْرٌ أخرج الله أيديكم منه ماتُعمِلون ألسنتكم فيه ؟!(٢)

وهذا الذي وجَّه إليه أمـير المؤمنين عمر بن عـبد العزيز هو الذي اعتمده أهل السنة والجماعة من عـدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من القتال والكف عن الحديث في ذلك .

(١) المرجع السابق ٥/ ٣٨١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٢ .

إبطاله سب عليّ على المنابر :

أخرج ابن سعد من خبر لوط بن يحيى الغامدي قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليّا رحمه الله، فلما ولي عمر أمسك عن ذلك ، فقال كُثَيِّر عزة الخزاعي:

وَلِيتَ فلم تشتم عليّا ولم تُخف بريّا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمتَ بالحق المبين وإنما تَبَيَّنُ آيات الهدى بالتكلُّم
فصدَّقتَ معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضيا كل مسلم[1]

وذكر المؤرخ ابن الأثير أن عمر بن عبد العزيز قال: وكان أبي إذا خطب فنال من عليّ رضي الله عنه تلجلج فقلت: ياأبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيرا، قال: أوَفطنت لذلك ؟ قلت : نعم ، فقال: يابني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي مانعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .

قال : فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا مايرتكب هذا الأمر العظيم من أجله فترك ذلك ، وكتب بتركه وقرأ عوضه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ [النحل: ٩٠] فحل هذا الفعل عند الناس محلا حسنا وأكثروا مدحه بسببه[2].

اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عمن أسلم :

ومن أهم إصلاحات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلغاء

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) الكامل ٤ / ١٥٤ .

الضرائب وإلغاء الجزية عمن دخل في الإسلام ، وقد كان الولاة قبله فرضوا ضرائب على المسلمين في أراضيهم وخيولهم وخدمهم ليزيد دخل بيت المال، كما فرضوا الجزية على من أسلم بحجة أن الناس يدخلون في الإسلام فرارا من دفع الجزية فوضع ذلك كله عمر بن عبد العزيز ، ومن الأخبار في ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر محمد بن قيس قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكْس عن كل أرض، ووضع الجزية عن كل مسلم [1].

وكذلك ماأخرجه من خبر ميمون بن مهران قال: دخل عامل لعمر بن عبد العزيز فقال:كم جمعتَ من الصدقة ؟ فقال: كذا وكذا، قال : فكم جمع الذي كان قبلك ؟ قال : كذا وكذا ، فسمَّى شيئا أكثر من ذلك ، فقال عمر :من أين ذاك؟ قال: ياأمير المؤمنين إنه كان يُؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدَّان خمسة دراهم، وإنك طرحت ذلك كله، قال:لا والله ماألقيته ولكن الله ألقاه [2].

وأخرج محمد بن سعد من خبر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن حيان بن شريح عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتب إليه: إنّ أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية .فكتب إليه عمر: أما بعد فإن الله بعث محمداً داعيًا ولم يبعثه جابيًا ،فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطْو كتابك وأقبل [3].

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٧٦ .

(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٨٤ .

وأخرج أيضا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب وهو خليفة إلى عامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم ووضع الجزية عنهم ، وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فقال له رجل من أشراف أهل خراسان: إنّه والله مايدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية، فامتحنْهم بالختان. فقال : أنا أردهم عن الإسلام بالختان ؟ هم لو قد أسلموا فحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع . فأسلم على يده نحو من أربعة آلاف(١).

وهكذا كانت نتيجة وضع الجزية عمن أسلم حيث دخل في الإسلام أربعة آلاف في قطر واحد .

وفي هذا الخبر موقف يذكر للبطل المجاهد الأمير الجراح بن عبد الله الحكمي حيث رفض مشورة ذلك الرجل الخراساني بامتحان من دخل في الإسلام بالختان لأن ذلك يعتبر تنفيرا لهم عن الإسلام .

ومما يبين كثرة دخول الكفار في الإسلام بعد إلغاء ضريبة الجزية عمن أسلم ماذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر جابر بن حنظلة الضبّي قال: كتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن العزيز : أما بعد فإن الناس قد كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج، فكتب إليه عمر: فهمت كتابك ، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حرّاثين نأكل من كسب أيدينا (٢).

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٦ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨١ .

وهذا موقف كبير من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الدعوة إلى الإسلام ورفع الظلم عن أهل الذمة .

ومما يبين دقة عمر بن عبد العزيز في تطبيق هذا الأمر ماأخرجه ابن سعد من خبر سويد بن حصين : أن عمر بن عبد العزيز كتب : إنْ أسلم والجزية في كفّة الميزان فلا تؤخذ منه .

وكذلك ماأخرجه من خبر عمرو بن المهاجر عن عمر بن عبد العزيز في الذمي يسلم قبل السنة بيوم قال : لاتؤخذ منه الجزية (١) .

ولم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز في دخول الكفار في الإسلام على وضع الجزية عمن أسلم، بل تجاوز ذلك إلى رفع مبلغ من المال لبعض زعماء الكفار ليتألفهم على الإسلام، ومن ذلك ماذكره ابن سعد من خبر عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة عن عمر بن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام .

وكذلك ماأخرجه من خبر ابن أبي سبرة عن رجل أخبره عن عمر ابن عبد العزيز أنه أعطى بِطْريقًا ألف دينار استألفه على الإسلام (٢) .

إحياؤه لسنة العطاء :

لقد فرض أمير المؤمنين العطاء السنوي لكل مولود في الإسلام كما جاء في أخبار منها ماأخرجه ابن سعد من خبر سعيد بن مسلم بن بانك قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول وهو خليفة : إنه لايحل

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٥٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٥٠ .

لكم أن تأخذوا لموتاكـم فارفعوهم إلـينا، واكتبـوا لنا كل منفوس [1] نفرض له [2].

وأخرج عـن محمـد بن عمـر الواقدي قـال: حدثني أبـي قال: ذهبَتْ بي حـاضنتي إلى أبي بكر بن حزم فـوضع في يدي ديناراً وأنا منفوس ، وولدت سنة مـائة ، ثم كان قابل فـأُعطينا دينارا آخر فكان دينارين، قال: وبه [3] سُمِّيت [4] .

كـما أخـرج من خبـر الهيـثم بن واقـد قال : وُلدت سنة سـبع وتسعين، فاستُخلِف عمر وأنا ابن ثلاث سنين فأصبت من قسمه ثلاثة دنانير [5].

حتى أهـل السجون كـان يصل إليهـم عطاؤهم، كمـا أخرج ابن سعد من خـبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نُخـرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز ، وكتب إليّ: من كان غـائبا قـريب الغيبـة فأعط أهل ديوانه، ومن كـان منقطع الغيـبة فاعزل عطـاءه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكِّل عندك بوكـالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله [6].

وبهذا أحيى عمر بن عبد العزيز سنَّة العطاء الإسلامي التي كانت

(١) أي مولود في حال نفاس أمه .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٦ .

(٣) أي بعمر بن عبد العزيز .

(٤) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٦ .

(٥) المرجع السابق ٥/ ٣٤٧ .

(٦) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٨.

في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضي الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم ، فلما قسم عمر بن عبدالعزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه الإسلامية رحمه الله تعالى .

إغناؤه المحتاجين عن المسألة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر يحيى ابن سعيد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم عليه بعض أهل المدينة فجعل يسائله عن أهل المدينة فقال: مافعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا كذا ؟ قال : قد قاموا منه ياأمير المؤمنين . قال: مافعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله . قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخَبَط للمسافرين (١) ، فالتمس ذلك منهم بعدُ، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز (٢).

وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح مايصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات من المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات لم يكن يصل إليها من قبل فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة .

---

(١) الخبط نوع من ورق الشجر تأكله الإبل .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥١ .

اهتمامه بدفع المهور من بيت المال :

كما اهتم أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك ، ومن الأخبار في ذلك ماأخرجه محـمد بن سعـد من خبر أبي العـلاء بَيَّاع المشاجب قـال: قُرِئَ علينا كتاب عمـر بن عبد العزيز رحمه الله في مسـجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليـه أمانة لايقدر على أدائها فـأعطوه من مال الله ، ومن تزوج امرأة لايقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله [1].

وهذا قرار مـهم في إصلاح المجتـمع، لأن صلاحـه يتوقف على تحصين أبنائه بالـزواج وظفرهم بالسعـادة الزوجية ، وقـد يكون المهر عائقا لبعض الفقراء دون الزواج، خصوصا في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة تـوفر ذلك لمن لا يستطيـع ذلك فإنها تسـهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب .

جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع :

إضافة إلى مـاذكر في هذا المجال من التسـوية بين أفراد الأمة في العطاء فإنه سوى بينهم في أحقيـة الجلوس في المساجد، ومن الأخبار في ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر يونس بن أبي شبيب قال: شهدت عمر بن عبد العـزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حفُّوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة ، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليـهم ، فلمـا رأى الفرجـة أومـأ إلى الناس : أن تقدمـوا ، فتقدموا حتى اختلطوا بهم [2].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٧ .

لقد دأب الولاة من بعد عهد أمـير المؤمنين معاوية رضي الله عنه على رفع طبقـات من الناس وتمييزهم على غيـرهم بالعطاء والمجالس وغـيـر ذلك ، وسرى ذلك فـي الأمة حـتى أصيب بعض أفـرادها بالضعف، وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلا للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليـهم اسم « الأشراف» وكان أكثر هؤلاء من بني أمـية ، ولقـد بلغ الضعف بعـامة المجـتمع إلـى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبـقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثـواب ، فلما تولى الخـلافة أمـير المؤمنين عـمر بن عـبد العزيز كان من أجَلِّ اهتماماتـه أن يقارب بين فئات المجتمع وذلك بأن يضع من سمعـة الطبقات العالية وأن يزيـل كبرياءهم ، وأن يرفع من شـأن الطبقـات المستـضعـفة وأن يقـوي مـعنوياتهم ويزيل شعـورهم بالضـعف ، فكان من جـهـوده في ذلك المسـاواة بينـهم في العطاء، ولاشك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وخفضهم.

وفي هذا الخبر تبين لنا اهتمامه في هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخاصـة ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم .

تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت :

مما خالف فيه أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز من سبقه من ولاة بني أمية تجرده من العصبية لعشيرته ، ومن الأخبار في ذلك ماأخرجه محمد بن سـعد من خبر جويرية بن أسماء قال: سـمعت فاطمة بنت

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذكرت عمر بن عبد العزيز فأكثرت الترحم عليه، وقالت : دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ فأخرج عني كل خصي وحرسي، حتى لم يبق في البيت غيري وغيره، ثم قال: يابنت علي والله ماعلى ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم، ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي [1].

وهذا دليل على قوة إيمانه وتجرده من العصبية للعشيرة، حيث فضل قرابة رسول الله ﷺ على قرابته ، فإن ذلك يعتبر من إكرام النبي ﷺ في أهل بيته .

وذكر محمد بن سعد في عدة أخبار أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر والي المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يقسم بين بني هاشم بالسوية عشرة آلاف دينار ، وذلك من حقهم في خمس ماأفاء الله تعالى يوم خيبر ، فشكروه في ذلك ، وكان فيمن كتب إليه بالشكر على ذلك فاطمة بنت الحسين ، رضي الله عنه ، وقد ذكر ابن سعد كتابها في ذلك من رواية يحيى بن أبي يعلى قال: لما قدم المال على أبي بكر بن حزم فقسمه أصاب كلّ إنسان خمسين ديناراً . قال فدعتني فاطمة بنت حسين وقالت: اكتب ، فكتبتُ : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ماولاه وعصم له دينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة[2] ويتحرى

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٢) الكتيبة جزء من خيبر فيه بساتين .

بذلك ماكـان يصنع من كان قبله من الأئمـة الراشدين المهديين، فـقد بلغنا ذلك وقسم فـينا ، فوصل الله أمير المؤمنين وجـزاه من والٍ خير ماجـزى أحدًا من الولاة ، فقد كـانت أصابتنا جَفْوة واحـتجنا إلى أن يُعمل فينا بالحقّ ، فـأقْسم لك بالله ياأمير المؤمنين لقـد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لاخادم له واكتسى من كان عاريًا واستنفق من كان لايجد مايستنفق . وبعثتْ إليه رسولاً ، قال :فأخبرني الرسول ، قال :فقدمتُ عليه فقرأ كتابها وإنّه ليحمد الله ويشكره وأمر لي بعشرة دنانير ،وبعث إلى فاطمة بخمسمـائة دينار وقال: استعيني بها على ما يَعْروك . وكـتب إليها بكتـاب يذكر فضلها وفـضل أهل بيتهـا ويذكر ماأوجب الله لهم من الحقّ . قال : فقدمت عليها بذلك المال .

قال عبد الملك بن المُغيرة : فاجتمع نفر من بني هاشم فكتبوا كتابًا وبعثوا به مع رسول إلى عمر بن عـبد العزيز يتشكّرون له مافعله بهم من صلة أرحامـهم وأنهم لم يزالوا مجـفيين منذ كان مـعاوية. فكتب عمر بن عـبد العزيز : قد كـان رأيي قبل اليوم هذا ولقد كلـمت فيه الوليـد بن عبـد الملك وسليمـان فأبيـا عليّ ، فلما وليتُ هـذا الأمر تحريتُ به الذي أظنه أوفق إن شاء الله (١) .

اهتمامه بالإصلاح بين الناس :

ومن جهود أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وجاء رجل من أهل المشرق هـو وابـن أخ لـه،

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٩١ .

فاختصما عند عمر بن عبد العزيز ، قال : بينما الشيخ يريد الصلة والصلح إذ غضب فدعته نفسه إلى القطيعة ، فنظر إليه عمر فقال: مارأيت أحلى منك ولا أمَرّ ، ولا أبعد ولا أقرب، بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم - وله شاربان قد غطّيا فاه - فقال : يامسينا - لحجّام له - : أَخرِج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربه ثم ائتني به ، ففعل ، فقال عمر : هذا أطيب وأنظف مع الفطرة ، هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك، قالا : نعم ، فأصلح ذات بينهما ، فرفع عمر يديه إلى السماء وقال : الحمد لله [1] .

فهذا مثل من أمثلة نجاح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح بين الناس ، والإصلاح بين الناس باب مهم من أبواب الدعوة وفعل الخير ، وأقدر الناس عليه من خولهم الله تعالى مسئولية على المسلمين ، لما لهم من حق الطاعة ، فإذا تم الإصلاح على أيديهم فهي نعمة عظيمة تستحق الشكر والحمد ، ولذلك حمد عمر الله تعالى لما وفقه من الإصلاح بين الرجلين .

وفي اهتمام عمر بالتخفيف من شارب ذلك الرجل دليل على حرصه على تطبيق السنة رحمه الله تعالى .

نماذج من مواعظه وحكَمِه :

من ذلك ماذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢١ .

تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى القرظي [1] : أما بعد فقد بلغني كتابك تعظني ، وتذكر ماهو لي حظ وعليك حق، وقد أصبت بذلك أفضل الأجر ، إن الموعظة كالصدقة ، بل هي أعظم أجرا وأبقى نفعًا ، وأحسن ذخرا ، وأوجب على المرء المؤمن حقا، لكلمة يعظ بها الرجل المؤمن أخاه ليزداد بها في هدًى رغبةً خيرٌ من مال يتصدق به عليه وإن كان به إليه حاجة ، ولما يدرك أخوك بموعظتك من الهدى خير مما ينال بصدقتك من الدنيا ، ولأن ينجو رجل بموعظتك من هلكة خير من أن ينجو بصدقتك من فقر، فعظ من تعظه لقضاء حق عليك ، واستعمل كذلك نفسك حين تعظ، وكن كالطبيب المجرب العالم الذي قد علم أنه إذا وضع الدواء حيث لاينبغي أعنته وأعنت نفسه ، وإذا أمسكه من حيث ينبغي جهل وظلم، وإذا أراد أن يداوي مجنونا لم يداوه وهو مرسل حتى يستوثق منه ويوثق له ، خشية أن لايبلغ منه من الخير مايتقي منه من الشر، وكان طبُّه وتجربته مفتاح علمه .

واعلم أنه لم يُجعل المفتاح على الباب لكيما يغلق فلا يفتح، أو ليفتح فلا يغلق، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه [2] .

في هذا الكتاب توجيه جيد من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نحو القيمة الكبرى للوعظ والتذكير ، حيث بين أن إهداء الموعظة للأخ المسلم أفضل من إهداء المال إليه ، ذلك لأن دعوة المسلم إلى

(١) هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي ، من علماء التابعين .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٢ - ١٣٣ .

الاستقامة على الدين تعني منحه خيري الدنيا والآخرة ، فأما الدنيا فإن الاستقامة تعني صلاح أمور الحياة والحماية من الأضرار التي تنتج عن السير على هدى العقل المجرد ، وأما في الآخرة فإن الاستقامة في الدنيا تعني رفعة الدرجات في الجنة والسلامة من عذاب النار ، فهل هناك هدية تقدم للمسلم من أخيه أعظم من موعظة هادية صادرة من القلب ؟!

كما أن في هذا الكتاب توجيهًا نحو المنهج السديد في الدعوة، حيث بين عمر بن عبد العزيز أن الواعظ كالطبيب ، والموعظة كالدواء، فلابد للطبيب الناجح أن يكون عالما بفنه حاذقا بتطبيق ذلك العلم، وأن يحسن اختيار الدواء وطريقة تناوله ومايحذر منه أثناء ذلك، فكذلك الواعظ لابد أن يكون متزودًا بالعلم النافع وأن يكون مخلصا في عمله حكيما في عرض مواعظه .

اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جعفر بن يرقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز : إن ناسًا يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة وإن مصيرهم ومرجعهم إلى الله ، وإن ناسا من هؤلاء القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم (١) فمروهم فليدْعوا للمؤمنين عامة وليلغوا ماسوى ذلك .

قال ، وعن جعفر بن يرقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة: أما بعد فإن ناسًا من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة

---

(١) يعني يدعون لهم .

الدنيا وإنما مصيرهم ومرجعهم إلى الله بعد الموت، وقد بلغني أن ناسا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عِدْلَ مايصلون على النبي ﷺ ، فإذا جاءك كتابي هذا فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدَعوا ماسوى ذلك . والسلام .

قال جعفر : أحب أن لايذكروا مع النبي ﷺ (1) .

هذا الخبر يصحح خطأ حدث بعد عصر الخلفاء الراشدين ، حيث دأب بعض الخطباء على ذكر الأمراء في خطب الجمعة، إما بالثناء عليهم أو بالدعاء لهم، وذلك يتضمن تسوية هؤلاء الأمراء برسول الله ﷺ الذي شرعت الصلاة عليه في الخطب، كما أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل التعظيم لأولئك الولاة، مما قد يترتب عليه وقوع في الشرك، إضافة إلى أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل النفاق والتقرب للولاة للحصول على شرف الدنيا كما جاء في هذا الخبر، فلذلك أصدر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمره بمنع الخطباء من ذلك حماية لتوحيد الله تعالى وحق النبي ﷺ .

كتابه لبعض عماله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن إبراهيم ابن أبي حبيبة . أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله، أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته، فإن بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته. وبها رافقوا أنبياءهم، وبها

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز /٢٠٣ .

نضرت وجوههم ، وبهـا نظروا إلى خالقهم، وهي عصـمة في الدنيا من الفتن، والمخرج من كرب يوم القيـامة، ولم يقبل ممن بقي إلا بمثل مارضي عـمن مضى ولمن بقي عبـرة فيما مـضى، وسنة الله واحدة، فبادر بنفسك قبـل أن تؤخذ بكظمك ، ويخلص إليك كما خلص إلى من كان قبلك، فقد رأيت الناس كيف يموتون وكيف يتفرقون، ورأيت الموت كيف يعجل التائب توبته وذا الأمل أمله، وذا السلطان سلطانه، وكفى بالموت موعظة بالغة، وشاغـلا عن الدنيا، ومرغبا في الآخرة، فنعوذ بالله من شر الموت ومـابعده، ونسأل الله خيره و خيـر مابعده. ولاتطلبن شيئا من عرض الدنيا بقول ولافعل تخاف أن يضر بآخرتك، فـيزرى بدينك، ويمقـتك عليـه ربك وأعلم أن القدر سـيجـري إليك برزقك ويوفيك أملك من دنـياك بغير مـزيد فيه بحـول منك ولاقوة، ولامنقوصا منه بضعف . إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك ، واعـتبر بما قسم الله لك من الإسـلام مازوى منك من نعمة الدنيا فإن في الإسلام خلفا من الذهب والفضة من الدنيا الفانية، اعلم أنه لن يضر عـبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة مـاأصابه في الدنيا من فقر أو بلاء ، وأنه لن ينفع عـبدًا صار إلى سخط الله وإلى النار مـاأصاب من الدنيـا من نعمة أو رخـاء، مايجـد أهل الجنة مس مكروه أصابهم في دنياهم، ومايجـد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كل شيء من ذلك كأن لم يكن. تشيعون غاديًا أو رائحا إلى الله قد قضى نحبه ، وانقضى أجله، و تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير مـتوسد ولاممتهد ، فـارق الأحبة، وخلع الأسلاب، وسكن التراب ، وواجه الحساب، مرتهنا بعمله، فقيرا إلى ماقدم غنيا

عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موافاته، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وماأعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وأستغفر الله وأتوب إليه (١).

وصيته للقضاة :

من وصاياه في ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز قال: لاينبغي للقاضي أن يكون قاضيا حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف ، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي ، لايبالي ملامة الناس (٢).

فالعفة تُحصِّن القاضي من أخذ الرشوة بأي شكل من أشكالها وتحول بينه وبين النفعيين الذين يريدون أن يُسخِّروا القاضي لمنافعهم الدنيوية .

والحلم يمنع القاضي من التفوه بما لايليق من الكلام، ويمنحه الفرصة الكافية لاستيعاب مايقوله الخصوم .

والعلم بماكان قبله يمنحه الخبرة القضائية، حيث يستفيد من دراسة أحكام القضاة الذين سبقوه ، وهذه أبلغ دراسة يستفيدها القاضي لأنها دراسة ميدانية .

واستشارة ذوي الرأي مهمة جدا في التوصل إلى أحكام مدروسة من عدة عقول ، فالذي يستشير أهل الرأي يملك عقولا كثيرة بينما الذي لايستشير لايملك إلا رأيا واحدا .

---

(١) الحلية ٥/٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٣٦٩ - ٣٧٠ .

أما عدم المبالاة بملامة الناس فهو الجُنَّة الحصينة التي تحمي صاحبها من التأثر بأقوال المخذِّلين والمعوِّقين الذين يَنْفرون من الإصلاح إذا خالف هواهم وهوى أصحاب النفوذ من وجهاء الناس .

ولم يذكر عمر بن عبد العزيز العلم بالشريعة لأنه أمر معلوم حيث لايصل القاضي إلى منصب القضاء إلا إذا كان من العلماء.

حثه على التقوى :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر ميسرة الحضرمي: أن عمر بن عبد العزيز كان يقول : ليس تقوى الله بصيام النهار ولابقيام الليل والتخليط بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ماحرم الله وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير[1] .

في هذا الخبر بيان لحقيقة التقوى، فالتقوى هي اتقاء سخط الله تعالى وعذابه ، وإنما يكون ذلك بفعل جميع الواجبات التي فرضها الله سبحانه، لأن تركها يترتب عليه العذاب، واجتناب جميع المحرمات التي حرمها لأن فعلها يترتب عليه العذاب، أما النوافل فإنها يترتب الثواب على فعلها ولايترتب العذاب على تركها، فلو أن إنسانا صام أفضل الصيام وهو صيام يوم بعد يوم وقام أكثر الليل ثم ترك واجبا أو فعل محرما لم يكن من المتقين في الظاهر، وإن كان قد يغفر الله له السيئات الصغيرة بالحسنات، لكن أمر المغفرة علمه عند الله تعالى، وفي هذا الخبر تحذير للذين يهتمون بالنوافل ويتساهلون ببعض الواجبات أو المحرمات .

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٣٠ .

كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر جعونة بن الحارث قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم أما بعد: فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أني بريئ من ظلم من ظلمكم ، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته، إلا أن يكون وهما مني ، أو أمرًا خفي علي لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعا عني مغفورا لي إذا عُلم مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا مُعوِّل كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لادُولةً بين أغنيائكم ، ولاأَثَرةً على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يُصلح الله به خاصا أو عاما من هذا الدين فله مابين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر مانوى من الحسنة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرءًا لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقا لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورا من الحق أحياها الله لكم، وأمورا من الباطل أماتها الله عنكم ، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم (١).

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهدا في رد المظالم التي

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

عرف عـنها، ولكنه يتـوقع أن هناك مظالم لم تصل إليـه، فكتب هذا الكتـاب وأعلـنه في مـوسم الحج الذي يضم وفـــودًا من أغلب بلاد المسلمين ، لتـبرأ ذمـته من مظالـم خفـية لم تبلغـه، وأعلن في هذا الكتــاب براءته مـن الولاة الذين يقع مـنهم شيء من الظـلم، وربط طاعتهم بطاعـة الله تعالى ، فهو بهذا يجعل كل فـرد من أفراد الأمة رقيـبا على أمـير بلده، يسـعى في تثبيـته إذا اسـتقام وفـي تقويمه إذا انحرف.

وإذا كان المتـقون في كل بلد مـسئولين عن سـير الحكم فـيه فلن يستطيع أي حاكم - وإن ضـعف إيمانه - أن يحكم بهواه ولاأن يحكم بأهواء النفعيين الذين لايهمهم إلا مصالحهم الخاصة .

ثم يبين أميـر المؤمنين عمر بن عـبد العزيز أن المال في عـهده لن يكون دولة بين الأغنياء ولامستأثرا به عن الفقراء لأن الفيء يقسم على عامة المسلمين بالتساوي .

ومن أروع مـاجاء في هذا الكتـاب تخـصيص مـبلغ من المال لمن يسعى في إصـلاح أمور الأمة ، وفي ذلـك ضمان النفـقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لايقعد به التفكر في تأمين تلك النفقة .

ثم يخـتم كتـابه بشكر المنعم جـلا وعلا عـلى ماوفـقه إليـه من الإصلاح الذي تحـقق على يديه، وهذا مثل من الإخـلاص القوي لله تعـالى ، بحيـث يتلاشى حظ النفـس ، ولايكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته .

من خطبه في الزهد :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر الحسين بن محمد الخزاعي عن رجل من ولد عثمان أن عمر بن عبد العزيز قال في بعض خطبه : إن لكل سفر زادًا لامحالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كمن عاين ماأعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولايطُولنَّ عليكم الأمد فتقسى قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله مابُسط أمل من لايدري لعله لايصبح بعد مسائه، ولايمسي بعد صباحه، ولربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لايداوي كَلْمًا(1) إلا أصابه جرح في ناحية أخرى (2) أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي ، وتظهر غيلتي، وتبدو مسكنتي ، في يوم يبدو فيه الغنى والفقر ، والموازين منصوبة، ولقد عنيتم بأمر لو عُنِيَتْ به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما !(3).

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الله بن محمد ابن سعد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر واجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإني لم

(1) الكلم بالفتح الجراحة والجمع كلوم .

(2) يعني فكيف يفرح ؟

(3) حلية الأولياء / ٢٩١ - ٢٩٢ .

أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق والمكذب به هالك ، ثم نزل (١) .

موعظة له في التوكل والعفة :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ من أخوانه في الله عز وجل ، فكان في كتابه : لاتطلبن شيئا من عرض الدنيا بقول ولافعل تخاف أن يضر بآخرتك ويزري بدينك ويمقتك عليه ربك، واعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوفيك أكلك من دنياك غير متزيد فيه بحول منك ولا قوة ولامنتقص منه بضعف ، إن ابتلاك الله عز وجل بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك، واغتفر بما قسم الله لك من الإسلام ماروى عنك من نعمة دنياك، فإن في الإسلام خلفا من الذهب والفضة والدنيا الفانية، وأعلم أنه لايضر عبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ماأصابه في الدنيا من فقر وبلاء ، وأنه لن ينفع عبدًا صار إلى سخط الله وإلى النار ماأصابه من نعمة أو رخاء، مايجد أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم، ومايجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كأن شيئا من ذلك لم يكن (٢) .

خطبة له وجيزة بليغة :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر ابن العيزار قال: خطبنا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٢ .

عمر بن عبد العزيز بالشام على منبر من طين فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم تكلم بثلاث كلمات فقال : أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعلموا لآخرتكم تُكفَوا دنياكم، واعلموا أن رجلا ليس بينه وبين آدم أب لُمْعْرَق له في الموت[1] ، والسلام عليكم[2] .

فهذه الخطبة الموجزة تشتمل على ثلاث مواعظ : الأولى صلاح العمل الظاهر، فالأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته هي الشيء الذي يعلنه ويراه الناس ، ومايُكنُّه قلبه من النيات والمقاصد هو الشيء الذي يُسِرُّه ، فإذا أصلح الإنسانَ قلبه وطهره من النوايا السيئة صلحت أعماله الظاهرة ، فالجنايات والأعمال العدوانية مثلا هي نتيجة لما يكنه القلب من الغل والحسد والبغضاء ، والتنافس على مظاهر الحياة من لباس وفراش ومراكب ومساكن هو نتيجة لما يكنه القلب من تعظيم الدنيا وتضخيمها، والاستقامة على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته هما نتيجة لما يكنه القلب من حبه وتعظيمه والخوف منه، وكذلك كل الأعمال الظاهرة فإنها مبنية على سرائر القلوب .

والثانية : العمل للآخرة على أنها هي المطلب الأعلى والمقصد الأسمى ، فإذا شغل الإنسان فكره بالعمل للآخرة سخر الله تعالى له من الدنيا مايغنيه ويكفيه من غير إعمال فكر ، وفتح له من أبواب الرزق مالايخطر له على بال .

---

(١) يعني إذا كان آباؤه جميعا إلى آدم قد ماتوا فإنه حتما سيموت .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٦ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٨٦ .

والثالثة : التـذكير بالموت بأسلوب مؤثر ، فـالإنسان إذا تذكر أن جـميع آبائه الذين يصلونه بـآدم عليه الصـلاة والسلام في النسب قـد ماتوا فكيف يؤمل بالبقاء ؟! ولماذا لايحمله ذكـر الموت على الاستقامة والعمل لما بعد الموت ؟!

آخر خطبة خطبها :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر يعقوب بن عبدالرحمن عن أبيه قـال: خطب عمـر بن عبد العـزيز هذه الخطبة وكـانت آخر خطبة خطبها ، حمد الله وأثنى عليـه ثم قال: إنكم لم تخلقوا عبثا، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم ، وخاب وخـسر من خرج من رحـمة الله وحرم جنة عرضـها السموات والأرض، ألم تعلموا أن لايـأمن غدا إلا من حذرَ الله اليوم وخافه وباع نافـدا بباق، وقليلا بكثير، وخـوفا بأمان؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهـالكين ، وستـصير من بعـدكم للباقين، وكـذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم إنكم تشيّـعون كل يوم غاديا ورائحا، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله، حـتى تغيبوه في صدع من الأرض، في شق صدع، ثم تتـركوه غير ممهـد ولاموسد، فارق الأحبـاب، وباشر التراب، ووُجِّه للحـساب، مرتهن بما عمل غني عما ترك ، فـقير إلى ماقدم . فاتقوا الله ومـوافاته وحلول الموت بكم، أما والله إني لأقول هذا وماأعـلم عند أحد من الذنوب أكـثر مما عندي واسـتغفـر الله ، ومامنكم من أحد يُبلغنا حاجته لايسع له ماعندنا إلا تمنيت أن يُبدأ بي وبخاصتـي حتى يكون عيشنا وعـيشه واحدا، أما واللـه لو أردت غير

هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولا، وكنت بأسبابه عالما، ولكن سبق من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته ثم رفع طرف ردائه فبكى وأبكى من حوله[1].

فهذه خطبة بليغة في التذكير بالموت والعمل للآخرة، ولقد كان- رحمه الله - نذيرا للعالم في عصره، ذلكم العصر الذي غرق أكثر الناس فيه بالتوجه نحو مظاهر الحياة الدنيا واشتغلوا بذلك عن ذكر الموت ومابعده ، فمازال يلح على الناس بالتذكير بمختلف الأساليب والمناسبات حتى أحيى الله به قلوبا ميتة وذكَّر الله به قلوبا غافلة، وحكم له بالصلاح ملوك العالم من غير المسلمين فضلا عن المسلمين، ثم مازالت سيرته الزكية بعد موته مادة غزيرة في الدعوة إلى الله تعالى وإصلاح المجتمعات الإسلامية .

فهمه لشمول العبادة :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن زيد بن جدعان قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب بخناصرة فسمعته يقول: ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم [2].

وأخرج من خبر عبد العزيز بن أبي رواد قال: قال عمر بن عبدالعزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة [3].

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي / ١٩٠.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٦ .

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣١٤ .

فهذا فهم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لشمول العبادة لكل أمور الدين، فإن إطلاق العبادات على أمور الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج إطلاق اصطلاحي لتمييزها عن أمور الدين الأخرى، ولايعني ذلك عدم شمول العبادة لسائر أمور الدين، ومن أبرز الأدلة علي شمول العبادة قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] فإن العبادة في الآية تشمل جميع أمور الدين.

تعزيته البليغة لأهل صديقه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن الحسين قال: كان لعمر بن عبد العزيز صديق ، فأخبر أنه قد مات، فجاء إلى أهله يعزيهم فصرخوا في وجهه فقال لهم عمر : إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم وإن الذي يرزقكم حي لايموت، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئا من حُفركم ، إنما سد حفرة نفسه، وإن لكل امرئ منكم حفرة لابدَّ والله أن يسدها ، إن الله تعالى لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء ، ولا امتلأت دار حَبْرة إلا امتلأت عبرة، ولااجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكيًا فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدًا (١).

فهذا نموذج رائع في التعزية ، أكد فيه أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى على أن الرازق هو الله جل وعلا وحده، فلايجوز لأهل الميت أن يشعروا بأنهم قد فقدوا بفقده مصدر رزقهم،

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٢٩ - ٣٣٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٣٠ .

وذكَّرهم بأن ميِّتهم قد سار إلى مآل هم صائرون إليه، وإنما الفرق بينهم وبينه أنه قد سبقهم إلى ذلك المصير، فليشتغل كل إنسان بالتفكير بالمصير الذي هو صائر إليه عما قريب، وإن في ذلك لشغلا عن الحزن على الفقيد ، كما ذكَّرهم بأن الدنيا ليست دار سرور دائما فلا ينبغي للمسلم أن يتألم لما يصيبه فيها من مصائب، وإنما هي دار ابتلاء وعمل ونصب ، فليس من خلق المسلم أن يكون هلوعا جزوعا عند مواجهة المصائب .

مثل من صبره ويقينه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سهل بن الربيع بن سبرة حدثني أبي عن أبيه الربيع قال: لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وسهل بن عبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة، دخل الربيع بن سبرة عليه وقال : أعظم الله أجرك ياأمير المؤمنين، فما رأيت أحدًا أصيب أعظم من مصيبتك في أيام متتابعة ، والله مارأيت مثل ابنك ابنا ، ولامثل أخيك أخا، ولامثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه ، فقال لي رجل معي على الوسادة : لقد هيجت عليه ، قال ثم رفع رأسه فقال : كيف قلت الآن ياربيع ؟ فأعدت عليه ماقلت أولا ، قال : لا والذي قضى عليه – أو قال عليهم – بالموت ، ماأحب أن شيئا من ذلك كان لم يكن .

وأخرج أيضا من خبر عثمان بن عبد الحميد حدثني أبي . قال: بلغنا أن ابنا لعمر بن عبد العزيز مات صغيرا، فدخل عليه الناس يعزونه وهو ساكت لايتكلم طويلا حتى قال بعضهم إن ذا لمن جزع،

قـال ثم تكلم فقـال : الحمـد لله دخل ملك الموت حـجرتي فـذهب ببعض ، وكأنه ذهب بي [1].

فهذا مثال على الرضى بقضـاء الله وقدره والصبر على المصائب، فبالرغم من أن هؤلاء الثـلاثة كانوا هم خاصته الذين كـان يتقوى بهم ويستشـيرهم ، وبالرغم من تتابع المصيـبة بفقدهم فإنه قـد بدا جميل الصبر راسخ اليقين مؤمنا بأن الأمـور كلها بيد الله عز وجل وأن الخير فيما قضاه وقدره .

وفي الخبر الثاني نجده يحمد الله تعالى على أن ملك الموت دخل حجرته فذهب ببعضه لما مات ابنه فكأنه هو الذي ذُهِب به، وفي ذلك توطين للنفس على مواجهة الموت واشتغال بانتظاره والاستعداد لما بعده بالعمل عن الحزن على فقد أحد الأقارب وإن كان عزيزا على النفس.

جوابه على من قال أبقاك الله :

أخرج عـبد الله ابن الإمـام أحمد بـن حنبل من خبر طـلحة بن يحيى قال: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فجاءه رجل فقال له: ياأمير المؤمنين أبـقاك الله ماكان البقـاء خيرا لك، فقال: أمـا ذاك فقد فُرِغَ منه ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار [2].

فهذا جواب سديد ، لأن الدعاء بالبقاء وطول العمر لامعنى له ،

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٠ .

(٢) الزهد للإمام أحمد /٢٩٧ - ٢٩٨ ، وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ٣٣٠، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /٢٠٦ .

حـيث إن الإنسان يُكتب له أجله وهـو في بطن أمه، وإنما ينبغي أن يُدْعَى للمسلم بالسعادة في الدنيا والآخرة .

من مواعظه البليغة :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر خالد بن دينار قال قال عمر لميمون بن مهران : ياميمون لاتدخل على هؤلاء الأمراء وإن قُلْتَ آمرهم بالمعروف ، ولاتخلوَنَّ بامرأة وإن قُلْتَ أُقرئها القرآن، ولاتَصِلَنَّ عاقّا فإنه لن يصلك وقد قطع أباه [1].

فهذه ثلاث مواعظ في غاية الجودة :

فالأولى : النهي عن الدخول على الأمراء ، والمحذور الذي خافه أميـر المؤمنين عمر بن عـبد العزيز من ذلك أن يتـأثر من دخل عليهم بشيء من مظاهر الحياة التي يتغالى كثيـر منهم فيها، فيكون ذلك سببا في فـتنة من دخل عليـهم ، أو يقصـر في إنكار المنكرات عليـهم أو يوافقهم في بعض ذلك فيكون آثما ، ولعل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى من واقـع تجربته مع الأمـراء قد رأى فيمن يـدخلون عليهم خللا في دينهم .

وهذا الأمـر لايؤخذ على إطلاقـه في جمـيع الأحوال ، بل قـد يكون الدخول على الأمراء واجبا لإنكار المنكر فيما إذا كان ذلك متعينا على فرد أو طائفة من المسلمـين، وقد يكون مستحبـا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيـما إذا لم يكن متعينا علـى الشخص، وقد يكون محرما فيما إذا تأكـد الإنسان من ضرورة وقوعه في الإثم، وقد يكون

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٤٥ .

مكروها فيما إذا احتمل الأمر ذلك، وقد يتردد الأمر بين الوجوب والتحريم، وذلك فيما إذا تعين عليه إنكار المنكر وعلم أنه سيقع في الإثم، أو يتردد ا لأمر بين الاستحباب والكراهة، وذلك فيما إذا لم يتعين عليه إنكار المنكر وخشي من الوقوع في الإثم، وفي كلتا الحالتين فالأمر يحتاج إلى اجتهاد العالم في ترجيح مصلحة الإسلام والمسلمين.

والثانية : النهي عن أن يخلو الرجل بالمرأة وهو من غير محارمها، وإن كان الدافع لذلك إقراءها القرآن، وهذا واضح في الشريعة ولايجوز التساهل فيه لقول رسول الله ﷺ « لايخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١).

والثالثة : عدم وضع الثقة بمن عق والديه ، لأنه قد خان الأمانة ولم يتخلق بخلق الوفاء لمن رعياه وخدماه وبذلا له مهجمها في الصغر وهو في أمس الحاجة إليهما ، فإذا عقّ الإنسان والديه أو أحدهما لم يكن أمينا معهما ولاوفيا لهما فأحرى به أن لايكون أمينا ولاوفيا مع غيرهما .

موعظته لمن سأله شيئا من الدنيا :

قال ابن عبد الحكم : وكان رجل من قريش - وكانت الخلفاء لاترده عن حاجة - فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله حاجته فقال عمر

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٥٢٣٣ ، النكاح (٩/ ٣٣٠) صحيح مسلم ، رقم ١٣٤١ ، الحج (ص ٩٧٨) .

ابن عبـد العزيز : لايجوز هذا ، ورده عنها ، فـخرج مغضـبا فناداه عمر فظن أنه قـد بدا له في قضاء حاجته فقـال له : ياأبا خالد فرجع إليه فقال له : إذا رأيت شيئا من الدنيا فأعجبك فاذكر الموت فإنه يقلّله في نفـسك ، وإذا كنت في شيء من أمر الدنيـا قد غـمَّك ونزل بك فاذكر الموت فإنه يسهِّله عليك ، وهذا أفضل من الذي طلبت (١).

نماذج من أدبه وحكمته :

ذكر الحـافظ ابن الجوزي من خبر المدايني قـال: دخل حريث بن عثمان الدجني مع أبيه على عمر بن عبد العزيز فسأل الأب عن الابن ثم قال له : علمه الفقه الأكبر ، قال: وما الفقه الأكبر ؟ قال: القناعة وكف الأذى (٢).

والفقه الأكبر بمعـنى الفهم الأكبر في الدين، ومن تأمل في هذين الأمرين اللذين اخـتارهما عمر بن عـبد العزيز رحمه اللـه تعالى يجد أنهما من أمور الدين المهمة ، فـالذي يُرزق القناعة يتورع عن اكتساب المال من طريق المحرمات والشبهات ، ويعف نفسه عن السؤال والتطلع إلى مـا في أيدي الناس ، ويسلم من أخـلاق السوء كـالحسـد والغل والحقـد، أما كف الأذى فهو أن يعـصم الإنسان جميع جـوارحه من الاعـتداء على المسلمـين ، ومن أبرز ذلك حفظ اللسـان من الغـيبـة والنميمـة وغير ذلك من فلتات اللسان ، ويكفي في بيـان أهمية كف الأذى عن المسلمين أن النبي ﷺ اعـتبر من طبق ذلك هو المسلم حـقا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٥ .

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قالوا : يارسول الله أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده » [(١)] .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز فقال رجل لرجل : تحت إبطك ، فقال عمر : وماعلى أحدكم أن يتكلم بأجمل مايقدر عليه، قالوا : وماذاك ؟ قال : لو قال : تحت يدك كان أجمل [(٢)].

فهذا توجيه إلى حسن اختيار الألفاظ الذي تؤدي المقصود ولايتقزز الناس من سماعها ، فذلك من الأدب في الحديث .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي هاشم القرشي قال: قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك ، فقال وصلك الله ياأمير المؤمنين فقد أجزلت العطية وكفيت المسألة ، فأعجب به عبد الملك ، فقال بعض أولاد عبد الملك هذا كلام تعلمه فأداه ، فدخل على عبد الملك يوما فقال: ياعمر كيف نفقتك ؟ فقال الحسنة بين السيئتين ياأمير المؤمنين ، قال فماهما؟ قال : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧] فقال عبد الملك : من علمه هذا [(٣)].

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١١ ، الإيمان (١/ ٥٤) ، صحيح مسلم رقم ٤٠ ، الإيمان (ص٦٥) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٧ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٢ .

فهذا الخبر يدل على سرعة بديهة عمر بن عبد العزيز ومقدرته على اختيار الألفاظ الجزلة والمعاني العميقة ، وسرعة الاستشهاد بالآيات القرآنية المناسبة ، وقد كان عبد الملك بن مروان معجبا بفكره وحكمته وأدبه .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر علي بن بكار قال قال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه فإنه يُلَقَّى الحكمة [1].

والمقصود بالحكمة وضع الشيء في موضعه من قول أو عمل، وهي تنتج عن التفكير السَّوي الذي يأتي نتيجة التأمل الطويل العميق، وهذا التأمل لايحصل غالبا إلا بشيء من العزلة والجو الهادئ البعيد عن الضجيج والارتباطات الاجتماعية التي تشغل الفكر بالأمور الحالية، ولاتترك للفكر مجالا واسعا للتأمل العميق .

وليس هذا الأمر على إطلاقه فربما يُلَقَّى الإنسان الحكمة مع كثرة الارتباطات الاجتماعية لكونه ذا مقدرة عالية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولكن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لاحظ بتجاربه أفرادًا من الناس يمتازون بالحكمة ، ورأى أن أبرز صفاتهم كثرة الصمت وحب العزلة فعبر عن نتائج تجاربه التي رآها .

تأثره من شعر الزهد واستشهاده به :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الصمد بن عبد الأعلى قال: كان عمر بن عبد العزيز وجَّه عبد الأعلى بن أبي عمرة رسولا إلى

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨١ .

طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عبد الأعلى : ياأمير المؤمنين ائذن لي في بعض ولدي يخرج معي - وكان أبا عشرة - فقال له : ومن يخرج معك من ولدك ؟ فقال عبد الله . فقال إني رأيت عبد الله يمشي مشية مقِتُّها ، وبلغني أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : ياأمير المؤمنين أما مشيته فغريزة هي فيه : وأما الشعر فإنما هو نوَّاحة ينوح على نفسه ، فقال مر عبد الله يأتيني العشية وأخرج معك غيره ، فراح به إليه فدخل عليه فاستنشده ، فأنشده :

تجهزي بجهاز تبلغين به
يانفس قبل الردى ، لم تخلقي عبثا
وسابقي بغتة الآجال وانكمشي
قبل اللزوم فلا منجا ولا غَوثَا
ولاتكدِّي لمن يبقى وتفتقري
إن الردى وارث الباقي وما ورثا
واخشَيْ حوادث صرف الدهر في مهل
واستيقظي لاتكوني كالذي بحثا
عن مدية كان فيها قطع مدَّته
فوافت الحرث موفورا كما حُرثا
لاتأمني فجع دهر مترف خَتَلٍ
قد استوى عنده من طاب أو خبثا

يارُبَّ ذي أمل فيه على وجل
أضحى به آمنا أمسى وقد حدثا
من كان حيث تصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشَّين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته
فسوف يسكن يوما راغما جدثا
في قعر مُوحشة غبراء مقفرة
يطيل تحت الثرى في قعرها اللَّبثا

قال : فبكى عمر من شعره (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم من خبر وهيب بن الورد قال : كان عمر ابن عبد العزيز كثيرا مايتمثل بهذه الأبيات :

يُرَى مستكينا وهو لِلَّهو ماقت
به عن حديث القوم ماهو شاغله
وأزعجه علم عن الجهل كله
وما عالم شيئا كمن هو جاهله
عبوس عن الجهال حين يراهمُ
فليس له منهم خَدِينٌ يهازله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٩٥ .

تذكَّـــر مـــايـبـقى من الـعـيش آجـــلا
فـــأشـغلـه عن عـاجـل العـيـش آجله

وأخرج أيـضا من خـبر القاسـم بن غزوان قـال : كان عمـر بن عبدالعزيز يتمثل بهذه الأبيات :

أيقـظان أنـت اليــــوم أم أنـت نائـم
وكـــيف يـطيق النوم حـــيــــران هائم
فلـو كنت يـقظان الغــــداة لخــــرَّقَتْ
مـحـاجـر عـينيـك الدمـوع السـواجم
بَلَ اصبـحت في النوم الطويل وقد دنت
إليك أمـــور مـــفــضـــعـــات عـظائم
نهـــارك يامـــغـرور ســـهـــو وغـــفلة
ولـــيـلـــك نـــوم والـردَى لـــك لازم
يغـــرك مـــايـبلَى وتُشـــغل بـالهـــوى
كـــمـــا غُـــرَّ باللـذات في النوم حـــالم
وتُشـغَـل فـيـمـــا سـوف تكره غِـــبَّـه
كـذلك في الدنيـا تعـيش البـهـائم (1)

(1) حلية الأولـيـاء ٥/٣١٨ - ٣٢٠ ، وانظر سـيـرة عــمـر بن عـبـد الـعـزيز لابن الجوزي/ ١٩٣ .

إيمانه بالقضاء والقدر :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر قال: شهدت عمر يقول لحرسه : إن بي عنكم غنى، كفى بالقدر حاجزًا وبالأجل حارسا ، ولاأطرحكم من مراتبكم ليجري لكم سنة بعدي، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله (١).

وأخرج محمد بن سعد من خبر أرطاة بن المنذر قال: كان عند عمر بن عبد العزيز نفر يسألونه أن يتحفظ في طعامه و يسألونه أن يكون له حرس إذا صلّى لئلاً يثور ثائر فيقتله، ويسألونه أن يتنحّى عن الطاعون، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك . قال لهم عمر: فأين هم ؟ فلمّا أكثروا عليه قال: اللهمّ إن كنتَ تعلم أني أخاف يومًا دون القيامة فلا تُؤمّنْ خوفي (٢).

وقال أبو محمد ابن عبد الحكم وكان عمر بن عبد العزيز يدعو بهذا الدعاء : اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحب تعجيل ماأخرت ولا تأخير ماعجلت. وكان عمر بن عبد العزيز يقول : مابرح فيَّ هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء (٣).

موقفه من الشعراء المداحين :

قال الحافظ ابن كثير : وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم

---

(١) تاريخ دمشق ٢١٩/٤٥ - ٢٢٠ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٩٨/٥ ، وانظر حلية الأولياء ٢٩٢/٥ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١١١ .

قال : لما استخلف عـمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعـراء فمكثوا ببابه أيامًا لايؤذن لهم ولايلتفت إليهم ، فساءهم ذلك وهمّوا بالرجوع إلى بلادهم، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير :

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتهُ هــــذا زمـانكَ فاستـأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئًا ، فمرَّ بهم عدي بن أرطأة فقال له جرير منشدًا :

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتهُ هـــذا زمانك إني قدْ مضى زمني

أبـلـغ خليفتنا إن كنت لاقيهُ أني لدى الباب كالمصفودِ في قرن[1]

لاتنسَ حاجتنا لاقـيتَ مغفرةً قد طال مكثي عنْ أهلي وعن وطني

فدخل عـدي على عمـر بن عبـد العزيز فـقال: يا أميـر المؤمنين الشعراء ببـابك وسهامهم مسـمومة وأقوالهم نافـذة ، فقال : ويحك ياعدي، مالي وللشعراء ، فقال : ياأمير المؤمنين إن رسول اللهﷺ قد كان يسمع الشعر ويجزي عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروي منها شيئًا ؟ قال : نعم فأنشده :

رأيتـك يـاخـيـرُ البريـة كـلـهـا نشرتَ كتابًا جـاءَ بالحق معـلما

شرعتَ لنا دينَ الهدى بعدَ جوْرِنا عن الحقِ لما أصبحَ الحقُ مظـلما

ونوّرتَ بالبرهانِ أمـرًا مدلّسًا [2] واطفأت بالقرآن نـــارًا تضرّما

فـمـن مبلغ عنّي الـنـبي محمـدًا وكلُ امرئ يُجزَى بما كانَ قدّما

---

(١) يعني كالموثق في قيد .

(٢) مدلسًا : مخادعًا - كاذبًا .

أقمتَ سبيلَ الحق بعد اعـوجاجـهِ   وكـــان قـــديمًا ركنهُ قدْ تهدّما
تعالى علوّا فــــوقَ عـرش إلهنا   وكـان مكانُ الله أعلى وأعظما

فقال عمر : من بالباب منهم ؟ فقال : عمر بن أبي ربيعة، فقال أليس هو الذي يقول :

ثــــم نبهتها فهبَّتْ كعابا (١)   طفلةٌ مــا تبينُ رجـــعَ الكـلام
ساعة ثـــــم إنها بعدُ قالتْ   ويلنا قد عجلتَ يا ابنَ الكـرام
أعَـلى غير موعدٍ جئتَ تسري   تتـخـطـى إلـى رؤوس الـنـيام
مـاتجـشَّمت ماتريدُ مـن الأمر   ولاحـيتَ طـــارقًـا لخـصـامِ

فلو كان عدو الله إذ فـجر كتم وستر علـى نفسه، لايدخل والله أبدًا ، فمن بالبـاب سواه ؟ قال : همام بن غـالب - يعني الفرزدق- فقال عمر : أو ليس هو الذي يقول في شعره :

همـا دلَّياني مـــــن ثمانينَ قـامـةً   كما انقض بارٍ أقتمُ الريش كاسره
فلما استوتْ رجلايَ بالأرض قالتا   أحـــيٌّ [فيُرجَى] أم قتيلٌ نحاذرهْ

لايطأ والله بسـاطي وهو كـاذب ، فـمن سواه بالـباب ؟ قـال: الأخطل، قال : أو ليس هو الذي يقول :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوعًا   ولستُ بآكل لحمَ الأضاحـي
ولستُ بزاجرٍ عِيسًا بكورٍ (٢)   إلى بَطْـحَاء مكّـةَ للنجـاحِ

---

(١) كعابًا : هي التي نهدَ ثديُها .

(٢) عيسًا : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف .

ولستُ بزائرٍ بيتًا بعيدًا بمكةَ أبتغي فيهِ صَلاحي

ولستُ بقائم كالعَير[1] أدعو قبيلَ الصبح حيَّ على الفلاح

ولكني سأشربها شمولاً وأسجد عندَ منبلج الصباح

والله لايدخل علي وهو كافر أبدًا[2]، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نَعَمْ الأحوص، قال : أليس هو الذي يقول :

اللَّهُ بيني وبينَ سيِّدها يفرُّ منّي بها وأتبعهُ

فما هو دون من ذكرت، فمن ههنا غيره؟ قال جميل بن معمر، قال : الذي يقول :

ألا ليتَنا نحيا جميعًا وإن نَمُتْ يوافقُ في الموتى خريجي خريجها

فما أنا في طول الحياةِ براغبٍ إذا قيل[قد] سوّى عَلَيْها صَفيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحًا ويتوب، والله لايدخل عليَّ أبدًا ، فهل بالباب أحد سوى ذلك؟ قلت: جرير ، قال أما إنه الذي يقول :

طرقتكِ صائدةَ القلوب وليس ذا حينَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

فإن كان لابد فأذن لجرير ، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول:

إن الذي بعثَ النبيّ محمدًا جعل الخلافةَ للإمام العادل

وسعَ الخلائقَ عدلهُ ووفاؤهُ حتى ارعوى وأقامَ ميلَ المائلِ

---

(١) العَيْر الحمار .

(٢) من المعروف أن الأخطل نصراني ، ولو كان مسلما لأقيم عليه الحد بذلك .

إنـــي لأرجو منكَ خيرًا عاجـلاً   والنفسُ مولعةٌ بحب العاجـل

فقال له : ويحـك ياجرير ، اتق الله فيما تـقول ، ثم إن جريرًا استأذن عمر في الانشاد فلم يأذن له ولم ينهـه ، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بهـا ، فقال له : ويحك ياجـرير لا أرى لك فيما ههنا حـقّا، فـقال: إني مـسكين وابن سـبيل ، قـال: إنا ولينا هذا الأمـر ونحن لانملك إلا ثلاثمائة درهم ، أخـذت أم عبد الله مائة وابنهـا مائة وقد بقيت مـائة ، فأمر له بهـا ، فخرج على الشـعراء فقـالوا : ماوراءك ياجريـر ؟ فقال : مـايسوءكم ، خـرجت من عند أميـر المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رُقـَى الشيطانِ لاتستفزُّه   وقد كانَ شيطاني مِنَ الجنِ راقيا[1]

هذا خبر مـهم في سيرة عمـر بن عبد العزيز رحمـه الله تعالى، وقد اخترته لأنه يمثل منهجا جديدًا فـي ذلك العهد في معاملة الشعراء الذين يقصدون الأمراء بشعرهم فيـمدحونهم طلبا لرفدهم ، وقد كان هذا الاتجاه مشهورا في الجاهلية،ويدخل فيه الغلو والمبالغات والكذب.

ولما قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية وفد على النبي ﷺ عدد قليل جدّا من الشعراء ومدحوه بقصائدهم ووصل بعضَهم بشيء رمزي هو عبـارة عن اللباس ونـحوه تكريما لهم ، وكـان مدحهم بـالدرجة الأولى إشـادة بالإسـلام ، وقد كـان إقـرار النبي ﷺ إياهم لأهداف دعوية منها : أن الشـعر كان له - آنذاك - دور كبيـر في رفع القبائل والدول وخفـضها . فكان النبي ﷺ يقصـد من إقرارهم وتكريمهم أن

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٣ - ٢٧٥ .

يرفعوا بشعرهم سمعة دولة الإسلام ، وذلك نوع من الجهاد الذي كان يحارب به النبي ﷺ أعداءه ، ولقد أدرك كفار مكة خطورة ذلك عليهم فمنعوا الأعشى ، الشاعر المشهور ، من الوفادة على النبي ﷺ ومدحه بقصيدته المشهورة كما تقدم .

ومنها أنه كان ﷺ يتألف بذلك أولئك الشعراء ليدخلوا في الإسلام، أو ليثبتوا عليه إن كانوا قد أسلموا .

ولقد انقطع هؤلاء الشعراء حينما عزت دولة الإسلام ولم يعد هناك حاجة لتألف البارزين من العرب إلى الإسلام ، وقد تقدم لنا إنكار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد - رضي الله عنهما - حينما قصده الأشعث بن قيس .

ثم عاد الشعراء في عهد بني أمية إلى انتجاع الأمراء ومدحهم وبالغوا في ذلك كثيرًا ، إلى أن تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقصدوه كما كانوا يقصدون من قبله من الأمراء، فكان له هذا الموقف الإسلامي النبيل المذكور في هذا الخبر .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يدرك المقاصد الدعوية التي من أجلها أقر النبي ﷺ الشعراء الذين وفدوا عليه ، ويعلم أن تلك المقاصد قد انتهت وخلَفها مقاصد دنيوية تُفْسد بِنْيَة المجتمع ، وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة ، من الكذب والتغرير والنفاق ، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته .

ولقد دل هذا الخبر على أن عمر بن عبد العزيز كان ضليعا في الأدب حافظًا للشعر،وإن سرعة إدراكه لسوءات أولئك الشعراء

الواقفين على بابه وروايته شيئًا من أشعارهم التي انحطوا فيها دليل على غزارة حفظه وتمييزه بين جودة المقاصد الشعرية ورداءتها .

ولقد كان إذنه لأحد أولئك الشعراء بالدخول عليه وهو جرير اليربوعي التميمي من أجل أن يكون رسولا إلى الشعراء لإعلامهم بالمنهج الإسلامي الذي يسير عليه عمر بن عبد العزيز ، ولقد أدى هذه الرسالة حيث غادر أولئك الشعراء باب أمير المؤمنين ولم يعودوا ، ولقد كان اختيار جرير لأنه كان أقرب أولئك الموجودين إلى التقوى.

ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين ، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين .

اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى :

الناظر إلى سيرة عمر بن عبد العزيز من حيث اهتمامه الكبير المتواصل في إصلاح دولة الإسلام من داخلها يظن أنه قد أوقف جهاد الأعداء لشغله أكثر وقته وفكره في الإصلاحات الداخلية، خصوصا مع معرفة اهتمامه بإعادة جيش مسلمة من القسطنطينية، ولكننا نراه مع قيامه بتلك الإصلاحات الكبيرة قد اهتم بجهاد الأعداء ولكن بأسلوب يضمن أكبر قدر ممكن من سلامة جنود الإسلام، وقد رُويت في ذلك أخبار منها ماذكر الإمام الطبري بقوله : وفي هذه السنة- يعني سنة مائة - أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص الصائفة [١].

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٥٦ ، والصائفة هي الحملة العسكرية التي تخرج في الصيف .

ومن ذلك ماأخرجه ابن سعد من خبر خالد بن ربيعة عن أبيه قال: كتب عمر بن عبد العزيز : إذا دخلتَ الصائفة فلا تتركن أحدا يدخل في أثرهم إلا في قوة وجماعة من الرجال والخيل والعدد (١).

وكذلك ماأخرجه من خبر صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله : أن لاتقاتلن حصنا من حصون الروم ولاجماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم ، وإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء .

وأخرج أيضا من خبر المنذر بن عبيد قال : كتب إليَّ عمر بن عبد العزيز في الذمي يغزو مع المسلمين فَيُؤَمِّن العدو، فكتب : لايجوز أمانه ، وقال : إنما قال رسول الله ﷺ : يجير على المسلمين أدناهم وهذا ليس بمسلم (٢).

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٥٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٣٥٥ .

٥ – اهتمامه بمكارم الأخلاق

نفوره من الاتهام بالكذب :

نجد من مواقف عمر بن عبد العزيز تقديره البالغ لمكارم الأخلاق وغضبه واشمئزازه من مساوئها ، ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن عبدالحكم من أن عمر خرج مع سليمان بن عبد الملك يريد الصائفة[١]. فالتقى غلمانه وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا، فضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، فشكوا ذلك إلى سليمان، فأرسل إلى عمر فقال له: ضرب غلمانك غلماني ، قال : ماعلمت ، فقال له سليمان : كذبت ، قال : ماكذبت مذ شددت عليَّ إزاري وعَلمتُ أن الكذب يَضُرُّ أهله ، وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسعة ، فتجهز يريد مصر ، فبلغ ذلك سليمان فشقَّ عليه فدخلت فيما بينهما عمة لهما، فقال لها سليمان : قولي له يدخل عليَّ ولايعاتبني ، فدخل عليه عمر فاعتذر إليه سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ماغتممت بأمر ولاأكربني أمر إلا خطرتَ فيه على بالي ، فأقام [٢] .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر إحساسا إسلاميًا رفيعا وإدراكًا بالغا لخطورة الكذب ومهانة مرتكبيه ، فالمؤمن الحق قد يتعرض لبعض الذنوب التي منها ارتكاب الظلم ولكنه لايمكن أبدًا أن يكذب لأن الكذب يتنافى مع الإيمان كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام

---

(١) يعني الجهاد في الصيف ، وكانوا لشدة البرد في بلاد الروم يخرجون صيفا غالبا .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ –٢٨ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٩ .

مالك عن صفوان بن سُلَيم أنه قال قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ فقال: نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال : لا » [1] .

ونظرًا لخطورة الاتهام بالكذب ومايحدثه في نفس المؤمن الواعي من فزع وهول فإننا نجد عمر بن عبد العزيز قد فزع كثيرًا حينما اتهمه سليمان بن عبد الملك بالكذب ، ونفى عن نفسه بسرعة أن يكون قد قارف الكذب من حين بلوغه سنّ التمييز ، وأنه قد أدرك في تلك السنّ المبكرة خطورة الكذب فحمى نفسه من الوقوع فيه، ويبلغ فزعه من هذه التهمة وتأثره بها إلى حد العزم على مغادرة الشام إلى مصر، لمفارقة البلد الذي اتُّهم فيه بهذه التهمة الفظيعة .

والكذب يعتبر ضعفا في النفس ، وجبنا عن المواجهة ، ولذلك نجد بعض الكبراء يُنزهون أنفسهم منه لامن منطلق منافاته للإيمان، وإنما من منطلق تعارضه مع الرجولة الكاملة وكونه من صفات النقص والضعف ، فنجد الحجاج بن يوسف مثلا يقول لأحد كتابه : مايقول الناس فيّ ؟ فاستعفاه فلم يُعْفه ، قال : يقولون إنك ظلوم غشوم قتال عسوف كذاب ، قال : كل ماقالوا فقد صدقوا فيه إلا الكذب فو الله ماكذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله [2] .

من أمثلة تواضعه :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر

---

(١) موطأ مالك ، كتاب الكلام ، رقم ٢/ ٩٩٠ .

(٢) هامش سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٢٨ .

الرعيني قال: رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى المكتوبة انصرف إلى أهله لايتطوع [1] ، وربما جلس فجاء الغريب الذي لايعرفه، وكان يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة يسأل عن أمير المؤمنين وفي أي حلقة هو ! فيقف لايدري أيهم حتى يشار إليه : هذا أمير المؤمنين ، فيسلم عليه بالخلافة [2] .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: كان عمر ابن عبد العزيز يجلس إلى قاصٍّ العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة لها تمسك بيدها، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويداه في ثيابه ، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه، وجلس بين يديها، وماترك لها حاجة إلا قضاها[3] .

وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم وناداه رجلٌ فقال: ياخليفة الله في الأرض. فقال له عمر : مَهْ إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا فسَمَّوْني عمر فلو ناديتني ياعمر أَجبتُك . فلما كبرت اخترت لنفسي الكُنى فكُنِّيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتُك . فلما وليتُموني أُموركم سميتموني أمير المؤمنين فلو ناديتني ياأمير المؤمنين أجبتك .وأمَّا خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبيُّ عليه السلام وشبهُه قال الله تبارك

---

(1) أي لايصلي السنة الراتبة في المسجد وإنما يصليها في البيت لكون ذلك أفضل .

(2) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٠ - ٢١١ .

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز /١٤٦ .

وتعالى : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] (١).

جوابه لمن اتهمه بالكبر :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قل له: إن فيك كبرًا وأنك تتكبر، فقيل ذلك له ، فقال عمر : لبئس ماظننتَ إن كنتَ تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه . الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازعه إياه، و لكن كنت غلاما بين الغلمان - أو قال بين ظهري قومي - يدخلون عليَّ بغير إذن ويتوطئون فرشي ويتناولون مني مايتناول القوم من أخيهم الذي لاسلطان له عليهم . فلما أن وليت خيرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أتمنع منهم في بابي ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذي دعاني إلى هذا(٢) .

وهكذا اتُّهم هذا الولي الصالح و الحاكم العادل بالكبر، وإنه لعجيب جدًا أن يُظَنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خلَّف الدنيا بجاهها ومالها وراء ظهره، ولكن الذين ليست لديهم تجارب إدارية يعتقدون أن المسئول يجب أن يكون بابه مفتوحا للناس في جميع الأوقات، ولايعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيرا من أمور الأمة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٨ .

المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن، كما أن المسئول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب عن عامة الناس بعض الوقت .

مثل من حلمه على من جهل عليه :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوزاعي : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه .

قال : وأسمعه رجل كلاما فقال له : أردتَ أن يستفزني الشيطان فأنال منك اليوم بما تنال أنت مني يوم القيامة ، انصرف عني عافاك الله ورحمك [(١)].

مثل آخر من حلمه :

ومن أمثلة تخلقه بخلق الحلم ماأخرجه محمد بن سعد من خبر عمر بن حفص قال: حدثنا شيخ قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسيّ فدخل المسجد فمرَّ في الظلمة برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون أنت ؟ قال: لا، فهمَّ به الحرسي ، فقال له عمر: مَهْ إنما سألني أمجنون أنت فقلت لا[(٢)].

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥ /٢٠٥ - ٢٠٦ ، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٠١ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

(٢) الطبقات الكبرى ٥/ ٣٩٧ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

وهكذا يمثِّل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد بلغ القمة في الجاه الدنيوي ، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض، ومع ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب ذلك الرجل .

عفوه عن الذي شجه في وجهه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك قال: وقام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار، قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، فخاف أن يحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه فشجه، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس ، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته وخلى سبيله !! (١).

مثل من عفوه عند الغضب :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوما على رجل غضبا شديدًا فبعث إليه فجرده ومده في الحبال، ثم عاد بالسياط حتى قلنا : هو ضاربه ، قال: خلوا سبيله ، أما إني لولا أني غضبان لسؤتك ، وقرأ ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤] (٢).

فهذا الرجل قد أغضب بجهله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

---

(١) حلية الأولياء ٥/٣١١ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ - ١٥١.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥٠ .

ولكنه وسعه بحلمه ، والحلم عند الجهل من مكارم الأخلاق العالية.

وفي قوله « أردت أن يستفزني الشيطان» إدراك منه لسلاح من أسلحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسئولية، فيحملهم على السلوك المنافي لمكارم الأخلاق .

ونجده - رحمه الله - يتذكر الآخرة حالا فيبين أن النزول إلى مستوى الجاهلين ينزِّل من درجات المسلم في الآخرة ، بينما تكون عاقبة الصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا » [1] .

مثل من رحمته بالمجاهدين :

ذكر ابن عبد الحكم أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفتح خلافته بثلاثة كتب، ذكر منها هذا الكتاب حيث قال: كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغزاه إياها برّاً وبحراً وأشفى على فتحها ، ثم خُدع عنها حتى أحرزوا طعامهم وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها، فبلغ ذلك سليمان فغضب مما فُعل به فحلف أن لايقفله منها مادام حيّا ، فاشتدَّ عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدوابَّ من الجهد والجوع حتى يتنحى الرجل عن دابَّته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابَّة كذا وكذا درهمًا. ولجَّ سليمان في أمرهم . فكان ذلك يغمُّ عمر فلما وَلي رأى أنه لايسعه

(١) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠ ، كتاب الأدب باب ٨ ، والزعيم هو الضامن وربض الجنة يعني طرفها ، والمراء هو الجدال والنزاع .

فيمـا بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئا مـن أمور المسلمين ثم يؤخر قفلهم ساعةً فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب (١).

رحمته بالأسرى :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبـهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: كتب عمـر بن عبد العزيز إلى بعض عمـاله : أن فاد أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم (٢).

مثل من رحمته بالأيتام :

قـال الحافظ ابن كـثيـر : وخرج ابن له وهو صـغيـر يلعب مع الغلمان فشـجه صبي منهم ، فاحتـملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر ، فـسمع الجلبة فخـرج إليهم فإذا مريئـة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فـقال لها عمـر : هوني عليك ، ثم قال لها عـمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت: لا قال : فاكتبوه في الذرية ، فقالت زوجته فـاطمة : أتفـعل هذا به وقـد شجَّ ابنك ؟ فـعل الله به وفـعل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية ، فقال : ويحك إنه يتيم وقد افزعتموه! (٣) .

وهكذا يشـمل لطفـه ذلك اليـتيم مع إسـاءته إلى أحـد ابنائه ، ويحظى منه بالتعـويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حـصل له، فما أبلغ رحمة عـمر ، ومأأرق مشـاعره ، وما أسمى تفكيـره في معاملة إخوانه المسلمين !!

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧ .

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٢ .

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ .

مثل من رحمته بالغلمان :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة : ما أكمل مروءة أبيك، سمرت عنده ذات ليلة فعشى السراج فقال لي : ماترى السراج قد عشى ؟ قلت : بلى ، وإلى جانبه وصيف راقد، قال قلت: ألا أنبهه؟ قال : لا دعه يرقد [1] ، قال : قلت : أفلا أقوم أنا ؟ قال: لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه ، قال: فوضع رداءه ثم قال إلى بَطَّة زيت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع، قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبدالعزيز [2].

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها. فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم، ويؤثر اكرام الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على وجه الأرض آنذاك، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء، ولايتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره وجسمه ووقته.

رحمته بجاريه له :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر النضر بن سهيل عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز لجارية له : ياجارية روحيني، فأقبلت تروحه

---

(١) وفي رواية ابن كثير « لاأحب أن أجمع عليه عملين » .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ ، وانظر الزهد للإمام أحمد / ٢٩٨، والبداية والنهاية ٩/ ٢٠٣ .

فغلبتها عينها فنامت، فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت فصاحت، فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرِّ ماأصابني ، وأحببت أن أروِّحك مثل الذي روحتني [1] .

مثل من رحمته بأهل الذمة :

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال: قُرِئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا : بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطأة ومن قِبَله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم ، وإذا كُبُر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه ، فإن كان له حميم فمُرْ حميمه ينفق عليه، وقاصِّه من خراجه [2] كما لو كان لك عبد فكبرتْ سِنُّه لم يكن لك بُدّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق [3].

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه ، وهو بالتالي شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله ، فالذمي الذي يفتقر لايضيع في دار الإسلام ، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين، وهي لاترجو منه نفعا ولادفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

(٢) أي حُطَّ عن صديقه من خراجه ماأنفق عليه .

(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٠ .

مثل من رحمته بالحيوان :

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان بل شملت الحيوان الأعجم ، ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر : إنه بلغني أن بمصر إبلاً نَقَّالات ، يُحمل علي البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل [1].

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال : كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل له، يأتيه بدرهم كل يوم ، فجاءه يوما بدرهم ونصف، فقال: مابدا لك ؟ فقال : نَفَقَت السوق، قال : لا ولكنك أتعبت البغل، أرْجِه ثلاثة أيام [2].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٤ .

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠ ، وارْجِه بمعنى أخِّره للراحة .

٦ – مواقفه في الزهد والورع والخشية –

خبر بدء إنابته :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن كثير قال: قيل لعمر بن عبد العزيز : ماكان بُدُوُّ إنابتك ؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي : ياعمر اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة [١] .

فهذه موعظة صادفت قلبا مهيئا لها فتمكنت منه، وكانت سببا في يقظة عمر بن عبد العزيز وإنابته .

خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فأصابهم ليلة برق ورعد، فكادت تنخلع أفئدتهم، فقال سليمان: ياأبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها ؟! قال : ياأمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله ، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله ؟![٢].

فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها .

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك :

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ماذكر ابن عبد الحكم قال : وخرج عمر

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ٤٥/ ١٥٣ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١٢١ .

ابن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدَّم فيه ثقلا ، فبلغ المنزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدَّمه ،وصار سليمان إلى حجرة ،ثم فقد عمر فقال : اطلبوه فما أراه قدَّم شيئًا،فطُلب فوُجد تحت شجرة باكيا ، فأُخبر بذلك سليمان فدعاه فقال: مايبكيك ياأبا حفص؟ قال: أبكاني ياأمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة،من قدَّم شيئًا وجده،ولم أقدم شيئًا فلم أجد أشيئًا (١) .

وهكذا رأينا مثالا للوعي الدقيق والتذكر البليغ لأهوال يوم القيامة وأسباب النجاة فيه ، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخْرِج معه متاعا ذهب كل إنسان بما أعد لنفسه ، وبقي عمر بدون شيء ، وكان بإمكانه أن يطلب من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك مايشاء وهو الأثير عنده ، ولكن غلب عليه تذكر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا .

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكر ، فإذا وقع الإنسان منهم في عسر وشدة تذكر شدائد يوم القيامة ، فشغله التفكير فيها عن التألم لوضعه الحاضر في الدنيا .

وإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعيم الآخرة فزهد في الدنيا ، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جلا وعلا .

ويشبه هذا الموقف ماذكره ابن عبد الحكم قال : وخرج سليمان ابن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز إلى الحج فأصابهم مطر شديد ورعد وبرق ، فقال سليمان : هل رأيت مثل هذا ياأبا حفص؟ فقال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ .

ياأمير المؤمنين هذا في حين رحمته فكيف في حين غضبه [١] .

خبره مع الغراب وما فيه من العبر :

قال الحافظ ابن كثير : وقال عثمان بن زبر: أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان وفيه تلك الخيول والجمال والبغـال والأثقال والرجال، فقال سليمان : ماتقول يـاعمر في هذا ؟ فقال : أرى دنيـا يأكل بعضها بـعضا وأنت المسئـول عن ذلك كله ، فلما اقتـربوا من المعسكر إذا غراب قـد أخذ لقمة في فيـه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعـبه، فقال له سليمان : مـاهذا ياعمر ؟ فقال : لاأدري ، فقـال ماظنك أنه يقول؟ قلت : كـأنه يقـول : من أين جـاءت وأين يُذهب بهـا ؟ فـقـال له سليمان: مـاأعجبك !! فقال عـمر : اعجب ممن عرف الله فـعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها [٢] .

ونجد في هذا الخـبر أن أمير المؤمنين سـليمان بن عبـد الملك كان معجـبا بحكمة عمـر بن عبد العزيز وتأمـلاته العميقة فـي أمور الدنيا وربطها بأمور الآخرة .

ونجد عمر عـبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغـتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاسـتقامة على أمـور الدين وتذكُّر الحياة الآخـرة، فهو حينما سـأله سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقـمة اغتنم الفرصـة ليذكِّره بلزوم الاسـتقامة في كـسب الأموال وإنفاقـها ، وإذا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٠، وانظر البداية والنهاية ٩/ ١٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠ .

ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرزق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف والخيلاء.

وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل الأخروي لمن استقام عليها ولمن انحرف عنها .

خشيته من العذاب بالريح :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبي مطيع قال: نُبِّئتُ أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح، فدخل عليه رجل فإذا هو منتقع اللون ، فقيل له : ياأمير المؤمنين مالك؟ قال: ويحك وهل هلكت أمة قط إلا من الريح [1].

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولاتثير في أنفسهم شيئا من الخشية لاعتيادهم عليها ، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثرا شديدا من ذلك، وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيته من الله تعالى .

خشيته من ارتكاب السيئات بمكة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد المَلاَّء من خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث : فقال له عبد الله بن عمر بن عيسى بن عمار: لو أقمت فاستمتعتَ بهذا البيت واستمتعنا معك ! فقال:

---

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٣ .

ماأظن أحدا منكم أشد حبا لهذا البيت مني، ولكن والله لكأني على الرَّضَف [1] من حين أدخله إلى حين أخرج فرقًا من أن أُحدث .

قال : وهذا حينما كان واليا على المدينة زمن الوليد [2].

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها، بالرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف ، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات .

زهده في مظاهر الخلافة :

من مواقفه التي جرت منه بعدما بويع بالخلافة انصرافه عن مظاهر الدنيا وتحكيمه للكتاب والسنة في دقيق الأمور وجليلها، قال ابن عبد الحكم رحمه الله : ولما دُفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز فقرِّبت إليه المراكب قال : ماهذه ؟ فقالوا : مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي ، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال : يامزاحم ضمَّ هذا إلى بيت مال المسلمين ، ونُصبت له سرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول مايَلُون، فقال : ماهذه؟ فقالوا : سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أو ما يلي ، قال : يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول مايلون، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يُفضي

(١) أي الحجارة المحماة .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٧ .

إلى الحصير ، ثم قال : يامزاحم ضمَّ هذا لأموال المسلمين .

قال : وبات عيال سليمـان يُفَرِّغون الأدهان والطيب هذه القارورة إلى هذه القـارورة ، ويلبَسُون مـالم يُلبَسُ من الثـياب حتى تتـكسر، وكان الخليـفة إذا مـات فما لُبـس من الثياب أو مُسَّ من الـطيب كان لولده، ومالم يُلبس من الثياب وما لم يُـمَسَّ من الطيب فهو للخليفة بعده ، فلمـا أصبح عمـر قال له أهل سليـمان : هذا لك وهذا لنا ، قال: وماهذا وماهذا ؟ قالوا : هذا مالبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فـهو لولده ، ومالم يمـسَّ ولم يلبس فهـو للخليفـة بعده وهو لك، قال عـمر : ماهذا لي ولا لسليمـان ولا لكم ، ولكن يامزاحم ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين ، ففعل .

فتوامر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار (١) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ماقد علمتم ، وبقـيت خـصلة وهو الجـواري نعرضـهن عليـه ، فـعسى أن يكون ماتريدون فيهن ، فإن كـان وإلا فلا طمع لكم عنده ، فأُتِي بالجواري فعُرِضـن عليه كأمثـال الدُّمَى ، فلما نظر إليهن جعل يسـألهن واحدة واحدة : من أنت ولمن كنت ومن بعث بك ؟ فتخـبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخـذت ، فيأمر بردهن إلى أهليـهن، ويُحملن إلى بلادهن حـتى فـرغ منهن ، فلـمـا رأوا ذلك أيسـوا منه وعلمـوا أنه سيحمل الناس على الحق (٢) .

---

(١) يعني اللباس والزينة ومتاع البيت .

(٢) سيرة عمـر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٣٨ - ٤٠ ، وانظر سيرة عـمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٤٢ .

وهكذا رأينا مشهداً من العادات السيئة والمظاهر الدنيوية التي توارثها الأمراء قبل عمر بن عبد العزيز وأصبحت تتراكم شيئًا فشيئا حتى وصلت إلى حد لايختلف كثيراً في الأبّهة والتعاظم عما كان عليه ملوك فارس والروم ، وكان الأمراء يرون في تلك المظاهر تثبيتًا لحكمهم وتعظيما لهيبة السلطان في نفوس الرعية .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز رأى أن قيمة تلك المظاهر أُخذت من بيت مال المسلمين بدون حق،إلى جانب كونها تنطلق من خُلق الكبر الذي جاء ذمه في الإسلام،وتتنافى مع خلق التواضع الذي جاء مدحه في الإسلام،فأمر مولاه مزاحمًا بأن يُدخلها في بيت مال المسلمين،وركب مركبه السابق الذي لايميزه عن عامة المسلمين وأوساطهم.

وفي هذا الخبر تبين لنا كيف كان الولاة يتصرفون بأموال المسلمين بغير حق ، ويبتكرون عوائد من الحقوق الخاصة بالوالي الذاهب والوالي القادم في أموال ليس لهم حق التصرف فيها .

وفي تصرف عمر إزاء ذلك مثل واضح على عدله ورعايته لحقوق المسلمين العامة حيث رد تلك الأطياب والملابس إلى بيت مال المسلمين، وبيّن أنه ليس له حق فيها ولا للأمير الذي قبله وأن هذه العادة مخالفة للإسلام .

كما أن في هذا الخبر دلالة على رعاية عمر للحقوق الخاصة، فتلك الجواري التي كانت تساق كالدُّمَى ، وقد حُرِمن من المطالبة بحقوقهن ، واعتُبِرن من جملة المتاع الذي يرثه الأمراء خَلَفًا عن

سلف، قد نظر عمر في أمرهن من ناحية الشرع فلما تحقق أنهن قد أُخذن بطريقة غير مشروعة أعادهن إلى أهاليهن .

ونجد في هذا الخبر مثلا من تفكير أصحاب النفوذ ممن ألفوا تلك المظاهر والعوائد ، حيث أرادوا اختبار عمر بالجواري لما ردَّ الفرش والأثاث والبيوت لأن داعي الاحتفاظ بالجواري أقوى لدى النفوس التي لاتلتزم في سيرها بهدي الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة، فلما ردَّ الجواري أيسوا منه وعرفوا أنه سيحمل الناس على الحق الذي يعرفونه ولكنْ يمنعهم من العمل به اتباع الهوى المنحرف .

زهده في مخصصات الخلافة :

من مواقف عمر بن عبد العزيز في الورع ماذكره ابن عبد الحكم قال : وكان عمر قد طلق نفسه من الفيئ فلم يُرزَق منه شيئًا إلا عطاء مع المسلمين ، فدخل عليه ابن أبي زكريا فقال : ياأمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بشيء ، قال : قل ، قال : قد بلغني أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار ، قال : نعم ، قال : ولمَ ذلك؟ قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة ، قال: فأنت ياأمير المؤمنين أولى بذلك ، قال : فأخرج ذراعه وقال : ياابن أبي زكريا إن هذا نبت من الفيئ ولست معيدًا إليه منه شيئًا أبدًا (١) .

وهكذا حرم عمر نفسه من الأجر الذي يعطيه للولاة تورعا ، ولو سوَّى نفسه بهم لم ينكر عليه أحد ، بل لو زاد عنهم قليلا مقابل كثرة نفقته لمنصبه لما كان ذلك منكرا ، ولكنه تورع عن ذلك، وكان تذكره

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٤٦ .

للتجـاوز الذي كان من ولاة عشيرته مـانعًا له حتى من أخـذ حقه في بيت المال فرحمه الله رحمة واسعة .

مثل من طموحه نحو المعالي :

أخرج محـمد بن سعد من خبـر سعيد بن عـامر عن جويرية بن أسمـاء قال: قال عمـر بن عبد العزيز : إن نفـسي هذه نفس تواقة، وإنها لم تعط شيئـا إلا تاقت إلى ماهو أفضل منه، فلما أُعطِيَت الذي لاشيء أفضل منه في الدنيا تاقت إلى ماهو أفضل من ذلك .

قال سعيد : الجنة أفضل من الخلافة [1].

فهذه المقـارنة تبين لنا عظمة عمـر بن عبد العزيز ورجـاحة عقله وسـمو تفكيـره ، فإن أعلى منزلة فـي الدنيا لاتعـادل أدنى منزلة في الجنة، فـمن ضـيع منازل الجنة بالحـرص على منازل الدنيـا كـان من الخاسرين .

ورعه عما حمل على دواب البريد :

مثل آخر من ورع عمر الدقيق رحمه الله فقد أتت إليه سلتا رطب من الأردن ، فقال: ماهذا ؟ قالوا :رطب بعث به أمير الأردن، قال : علام جيء به ؟ قالوا : على دواب البريد، قال: فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين، أخرجوهما فبـيعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد ، فـغمزني [2] ابن أخيـه فقـال لي : إذهب فإذا قامـتا على ثمن فخـذهما عليّ ، فـجئت بهمـا إلى ابن أخيه فـقال:

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٤٠١ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/٢٠٨ .

(٢) القائل هو راوي الخبر أبو شيبان وهو الذي قدم بالرطب .

اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبَس لنفسه واحدة، فأتيته بها فقال : ماهذا ؟ قلت : اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى ، قال: الآن طاب لي أكله [1] .

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام فإن فكر المسلم العادي لايذهب إلى السؤال عن الدواب التي حُمل عليها الطعام ، وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري، ومع أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعا ، وأمر بجعل ثمنه علفًا لدواب البريد ، وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه، فما أعظم الإسلام متمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين الحلال الخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام !

رده أحد أملاكه من الإقطاع :

من مواقفه رحمه الله في الورع ماحدث به الإمام عبد الله ابن المبارك رحمه الله تعالى قال : قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم- وكان مزاحم مولاه وكان فاضلا - قال : إن هؤلاء القوم - يعني أهله- أقطعوني مالم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني ، وإني قد هممت بردها على أربابها قال فقال مزاحم : فكيف تصنع بولدك؟ قال: فَجَرَتْ دموعه على وجنته وجعل يمسحها بأصبعه الوسطى ويقول: أَكِلُهم إلى الله ، قال عبد الله : وكأن مزاحما - مع فضله-

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٣٣ .

لم يقنع بقوله : فخرج مزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز ، فقال : إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمر لَهُو أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا ، إنه همَّ بردِّ السهلة - قال عبد الله : وهي باليمامة وهي أمر عظيم - قال : وكان عيش ولده منها ، قال عبد الملك : فماذا قلت له ؟ قال كذا وكذا ، قال : بئس لعمر الله وزير الخليفة أنت ، قال : ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله، قال : فاستأذن فقال له البواب : إنه قد تبوأ مقيله، قال : مامنه بد ، قال : سبحان الله ألا ترحمونه ! إنما هي ساعته، قال : فسمع عمر صوته فقال : عبد الملك ؟ قال : نعم ، قال : ادخل ، فدخل ، قال : ماجاء بك ؟ قال : إن مزاحما أخبرني بكذا وكذا ، قال : فما رأيك فإني أريد أن أقوم بالعشية ؟ قال: أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثا ، قال: فرفع يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ، قال: ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها (١) .

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليمامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذين سبقوه تحرج من بقائها في ملكه، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك، فلم ير أن له حقّا في الاختصاص بملكها، فردها إلى بيت مال المسلمين، مع ماذُكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٩ - ٩٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/١٧٩--١٨٠ .

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز ورعا تقيا كأبيه، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عونا لأبيه في حمل الناس على الاستقامة، خاصة فما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى.

مقدار مارده من ماله لبيت المال :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز قال: دعاني أبو جعفر (1) فقال : كم كانت غلة عمر حين أفضت إليه الخلافة ؟ قلت: خمسون ألف دينار، فقال: كم كانت يوم مات ؟ قلت :مازال يردها حتى كانت غلته مائتا دينار، ولو بقي لردها (2).

وإذا كانت غلة أملاكه خمسين ألف دينار فكم هي قيمتها ؟! إنها مبلغ كبير ، ومع ذلك عفّ عنه ورده إلى بيث مال المسلمين، فخلَّد بذلك ذكره في الدنيا وحاز على الدرجات العُلَى في الآخرة .

مثل من تورعه عن مال المسلمين :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يزيد بن أبي حبيب قال: وقيل لعمر بن عبد العزيز : ياأمير المؤمنين لو أنك أخذت كما يأخذ عمر بن الخطاب، يأخذ درهمين كل يوم ، قال: إن عمر لم يكن له مال، وأنا لي مال يغنيني عن ذلك، ورد عمر بن عبد العزيز في بيت المال ماكان أعطاه سليمان والخلفاء قبله (3).

---

(1) هو أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور .

(2) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٠ .

(3) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٢ .

استجابة دعائه في ابنه الصغير :

من مواقفه أيضًا في الورع رحـمه الله ماقام به من رد أمواله التي شك في أصل اكتسابها إلى بيت مال المسلمين، وفي ذلك يقول: مامن شيء إلا وقـد رددته في مال المسلمين إلا الـعينَ التي بالسويداء فـإني عـمدت إلى أرض براح ليس فـيهـا لأحـد من المسلمين ضربة سـوط فـعملتـها من صلب عطائي الـذي يُجمع لي مع جـماعـة المسلمين، فجـاءته غلتها مـائتا دينار ؛ وجـراب فيه تمر صـيحاني وتمر عـجوة، فقال: هات اصبُبْ للقوم من هذه العجوة فهي أبرد وأصح .

وهكذا رد عمر أمواله إلى بيت مال المـسلمين لاعتقاده بأن أصلها من مال المسلمين العام،وأن الولاة الذين سبـقوه أعطوه إياها بغير حق لأنهم لم يعطوا سائر المسلمين مثلها ماعـدا ذلك البستان الذي ذكر في السويداء حيث كان من عطائه الذي يـأخذ مثله أي فرد من المسلمين، فأصبح يأكل من غلته القليلة وهو قرير العين لأن أصله حلال ليس فيه شبهة .

وجاء في سـياق هذه الرواية « قال : وسـمع النساء بمال قـد قدم عليه فأرسلن إليه بابن له غلام ليعطيه من ذلك المال ، فلما جاء الغلام قال : احفنوا له من ذلك التمر ، فـحفنوا له من ذلك، فخرج الغلام فرحًا حتى إذا انتهى إلى النساء فرأين التمر ضربن الغلام، ثم قلن له: اذهب فانثـره بين يديه،فأقـبل الغلام فنثره بين يديـه وأهوى بيديه إلى الذهب ، فقـال عمر للوليـد بن هشام من آل أبي معـيط:أمسك يديه ياوليد، فـأمسك يديه الوليد ، ودعـا عمر بدعـاء له كثيـر،وكان من

دعائه اللهم فاطر السموات والأرض عـالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانـوا فيه يختلفون، بَغِّض إلى هذا الغلام هذا الذهب كما حبَّبتها إلى فلان بن فلان ، أرسل يديه ياوليد، فارتعشت يداه فما مس منها ديناراً وانصرف ، فقال له رجل : لقد استجيبت لك ياأمير المؤمنين ، ثم قـال عـمر : أخـرجـوا زكـاة هذه المائتي دينار [1]فقال الرسول : ياأمير المؤمنين لقد أُخِذ خرص هذا الحائط، قال : يابني ليس هذا من عملك ، قال: فـأخرجوا خمسـة دنانير ،ثم قال: دلوني على رجل أعمى ليس له قائد، قـال: بينما القوم يتذاكرون، قال عـمر: لقد وقعت عليـه وقد ذكـرته وهو الشيخ الجزري الأعـمى، يأتي في الليلة المظلمـة الماطرة ليس له قائـد، أخرجـوا له ثمن قائد، لاكـبيـر يقهـره ولاصغيـر يضعف عنه، قال: فأخـرجوا له منها خمـسة وثلاثين ديناراً قال: ثم دعا عـمر بالذي يقوم على نفقة أهله فـقال: خذ هذه الذهب فأنفـقها على عـيالنا إلى أن يخرج عطائي مع المسـلمين أو يقضي الله قبل ذلك [2] .

وفي هذا الخبر رأينا فزع عمر حينما جاء ولده الصغير فرمى بالتمر وأخذ الذهب ودعـا الله تعالى أن يبـغِّض إليه الذهب فـارتعشت يدا الولد ، ولم يمسَّ منها ديناراً ، وهكذا استجاب الله تعالى دعوة ذلك

---

(١) يعني غلة بستانه .

(٢) سيرة عـمر بن عبد العـزيز لابن عبد الحكم / ٤٧ ، وانظر سـيرة عمر بن عبـد العزيز لابن الجوزي / ٩١ .

الإمـام العـادل في الحـال ، وهذا دليل على قـربه من الـله تعـالى وصلاحه .

ونجد عمر في هذا الخبر مع شدة احـتياجه للمال وقلة غلة بستانه ينفق منها خمسة وثلاثين ديناراً أجرة لقائدٍ خصصه لرجل أعمى .

فمـا أعظم عمـر بن عبـد العزيز ! ومااأشـد إحسـاسه بحـاجات الناس!

أمثلة من تحريه في ملكية الجواري :

من ذلك خبـر الجارية التي أهدتهـا إليه زوجتـه فاطمة بنت عـبد الملك ، فـقـال للجـارية : لمن كنـت ؟ قـالت : وهبني عـبـد الملك لفـاطمة، قـال : فلمن كنت قبـل عبـد الملك ؟ قالت : كنت لقـوم بالبصرة فـأخذ عاملها أمـوالهم ، فكنت فيما أخـذه ، فبعث بي إلى عبدالملك فوهبني لفاطمة ، فدعا عمر بالبريد فكتب إلى عامل البصره فأمره بردها إلى أهلها [1] .

فهذا مثل من أمثلة بعده عن شـهوات الدنيا ، وتحريه عن مصادر الأموال ليعيد الحقوق إلى أصـحابها، فقد بحث عن أصل ملكية تلك الجارية حتى تبين له أنهاً وصلت إلى فـاطمة بنت عبد الملك من طريق غير صحيح فأعادها إلي أهلها .

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبـهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى قال حدثني أبي عن جـدي. قال: كانت لفاطمة بنت

(١) سيرة عـمر بن عبد العزيز لابن عبـد الحكم / ٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عـبد العزيز لابن الجوزي / ٨٧ ، ١٣١ .

عبد الملك امرأة عمر جارية، فبعثت بها إليه وقالت إني قد كنت أعلم أنها تعجبك وقد وهبتها لك فتناول منها حاجتك. فقال لها عمر اجلسي ياجارية فو الله ماشيء من الدنيا كان أعجب إلي أن أناله منك، فأخبريني بقصتك وماكان من سبيك ؟ قالت : كنت جارية من البربر جَنَى أبي جناية فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على أفريقية فأخذني موسى بن نصير فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني عبد الملك لفاطمة فأرسلت بي إليك ، فقال: كدنا والله نفتضح، فجهزها وأرسل بها إلى أهلها (1).

وهكذا سما عمر بن عبد العزيز بإيمانه القوي ويقينه الراسخ على شهوات النفس ، مع أن الظاهر من الخبر أن تلك الجارية مباحة له بعد أن أهدتها إليه زوجته التي تملكها، ولكنه لم يكن في وقته متسع للنساء بعد أن شغل جُلَّ وقته بأمور الرعية ، ثم ألهمه الله تعالى إلى البحث عن أصل تلك الجارية فتبين له أنها وصلت بطريق غير مشروع فردها إلى أهلها لأنها لم تعُدْ جارية مملوكة بل حرة اغتصبت من أهلها، وهكذا يفتح الله تعالى على السابقين بالخيرات أنواراً من الفرقان يفرقون بها بين الحق والباطل .

تورعه عن مزارع خيبر :

ومن ذلك ماجاء في رواية لابن عبد الحكم قال: وكان عمر ابن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خيبر والسويداء فسأل عن خيبر من أين كانت لأبيه ؟ قيل : كانت في نِحَل

(1) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠ ، وانظر تاريخ دمشق ١٩٥/٤٥ ، والبداية والنهاية ٢٠١/٩.

رسول الله ﷺ فتركها رسول الله ﷺ فيئا للمسلمين ثم صارت إلى مروان أبيك ، ثم أعطاكها أبوك ، فخرق عمر سجلها وقال : أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثل على ورع عمر بن عبد العزيز واحتياطه بالبعد عن الشبهات، فحيث علم أن أصل مزرعة خيبر قد جعلها رسول الله ﷺ فيئًا للمسلمين ، فإنه قد جعلها كذلك، مع أنه لم يبحث طريق وصولها إلى جده مروان .

تورعه عن حلي زوجته :

ومن ذلك خبر حُليِّ زوجته فاطمة حيث قال لها : قد علمتِ حال هذا الجوهر ، وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه، فهل لك أنْ أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين ، وأنفق مادونه ، فإن خلُصْت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنَّه إليك، قالت له : افعل ماشئت ففعل ذلك، فمات رحمه الله ولم يصل إليه ، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبدالملك ، فامتنعت من أخذه ، وقالت : ماكنت لأتركه ثم آخذه، فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه (٢) .

فهذا ابتلاء داخل بيت عمر حيث تذكَّر أن حلي زوجته فاطمة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٢ .
وانظر الكامل لابن الأثير ٤/ ١٥٣ .

بنت عـبد الملك قد أعـطاه إياها أبوها ، ولعله كان من مـال المسلمين العام، فلم يسعه أن يبقيه بيـدها وقد أخذ على نفسه أن يعيد إلى بيت مال المسلمين كل ما أُخذ منه بغير حق .

وقد كـانت له مطيعة بارة ، ثم تبين ورعـها حين رد ذلك الحلي إليها أخوها يزيد فلم تأخذه .

لقد استطاع عمر بتوفيق الله تعالى أن يؤثر عليها وعلى بنيه، وأن يكوِّن أسرة عالية في الصلاح والتقوى رحمهم الله جميعا .

تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج :

ومثل آخر من ورعه وسمو هدفـه في هذه الحياة، فقد قال لمولاه مزاحم : إني قد اشـتهيت الحج فهل عندك شيء ؟ قال: بضعـة عشر دينارا ، قال : ومـاتقع مني ؟ ثم مكث قليـلا ، ثم قال له : ياأمـير المؤمنين تجهز فـقد جاء مال سبعة عـشر ألف دينار من بعض مال بني مروان ، قـال : اجعلها في بيت المال ، فـإن تكن حلالا فقـد أخذنا منها مايكفينا ، وإن تكن حراما فكفانا ماأصبنا منها .

فلما رأى عـمر ثِقَل ذلك علـيَّ قال: ويحك يامزاحـم، لايكثُرنَّ عليك شيء صنعـتُـه لله ، فإن لي نـفسـا توَّاقـة ، لم تتق إلى منزلة فنالتهـا إلا تاقت إلى ماهي أرفع منها ، حتـى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة (١) .

ففي هذا الخبر تورع عـمر رحمه الله عن ذلك المال الذي لايدري

---

(١) سيرة عـمر بن عبد العزيز لابن عبـد الحكم / ٦٢ ، وانظر سيرة عمر بن عـبد العزيز لابن الجوزي / ٥٣ .

هل هو حلال أم حرام ؟ ولم يرض أن ينفق منه في الحج كما كان قبل ذلك لايرضى أن ينفق على نفسه من مال فيه شبهة ، بل إن موضوع النفقة في العبادة أولى بالتحري والبعد عن الشبهات .

وفي آخر الخبر مثل من سمو تفكيره وعلو مقصده ، حيث ذكر وصوله إلى أعلى قمة في الحياة الدنيا ، وأن نفسه قد تاقت إلى ماهو أعلى من ذلك بكثير وهو الظفر بنعيم الجنة ، فأصبح يُسخِّر كل مابيده من سلطان للوصول إلى الجنة ، ولذلك كان قويا في عدله ، حازما في قراراته لأن هدفه الأعلى لايحصل له إلا بذلك .

أما الذين يجعلون هدفهم منازل الحياة الدنيا فإنهم يترددون في إصدار القرارات ويتناقضون فيها بين الحين والآخر ، لأنهم يراعون أمور الدنيا ، وهي متقلبة بتقلب أبنائها .

تورعه عن دماء الناس وأموالهم :

هذا ومن نماذج تورعه عن دماء الناس وأموالهم ماجاء في كتابه إلى عدي بن أرطأة ، عامله على البصرة حيث قال فيه : أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن قِبَلَك عُمَّالاً قد ظهرت خيانتهم ، وتسألني أن آذن لك في عذابهم ، كأنك ترى أني لك جُنَّة من دون الله ، فإذا جاءك كتابي هذا فإن قامت عليهم بينة فخذهم بذلك ، وإلا فأحلفهم دُبُرَ صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختانوا من مال المسلمين شيئًا ، فإن حلفوا فخل سبيلهم ، فإنما هو مال المسلمين ، وليس للشحيح منهم إلا جهد أيمانهم ، ولعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم

أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم ، والسلام [1] .

وهكذا كان عمر رحمه الله شديدًا في محاسبة الولاة ، حريصا على أموال المسلمين ، ولقد فهم والي البصرة أن مما يترتب على هذا المنهج أن يقوم بتعذيب العمال الذين ظهرت خيانتهم ، فاستأذن أمير المؤمنين عمر في ذلك، فكان جوابه جواب الرجل الذي يخشى الله تعالى في دماء المسلمين وأعراضهم .

وقد أشار إلى نقطة مهمة وهي أن كل وال مسئول عن عمله وعن كل مايقوم به من إحسان أو عقوبة، وأن صدور الأوامر من مسئول أعلى منه لايسوِّغ وقوعه في الخطأ والتجاوز لأن المسئول الأعلى قد لايعلم تفاصيل الأمر كما يعلمها هو .

ويبين في كتابه لذلك الوالي أنه إذا قامت البينة على مسئول بخيانة فيجب أخذه بذلك،وإن لم تقم عليه بينة فيكفي لبراءته ظاهرا أن يحلف بعد صلاة العصر بالله الذي لاإله إلا هو مااختان من مال المسلمين شيئًا .

ثم يختم عمر كتابه ببيان ماينتظره وينتظر الولاة من الوقوف للحساب بين يدي الله تعالى فيما إذا وقع منهم ظلم للآخرين، وفي هذا تذكير للمسئولين بأن يراقبوا الله سبحانه، ويتذكروا وقوفهم بين يديه للحساب ، وهذا يجعلهم يترددون كثيرًا قبل أن يقدموا على ثواب أو عقاب .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٨ .

نماذج من تورعه عن المال العام :

ومن ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال : أعْلِم أمير المؤمنين أن بالباب رسولا من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر، وقد كان أراد أن ينام، فقعد وقال: إئذن له ، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة فأججت نارًا ، وأجلس الرسول، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذي حق حقه، وهل له شاك وهل ظلم أحدا ؟

فأنبأه بجميع ماعلم الرسول من أمر تلك المملكة، فلم يدع شيئًا إلا أنبأه به، كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له : ياأمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تُعْنَى بشأنه ؟ قال : فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال: ياغلام عليَّ بسراج، فدعا بفتيلة لاتكاد تضيء فقال : سل عما أحببت ، فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال: ياأمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرًا مارأيتك فعلت مثله ، قال: وماهو ؟ قال : إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك.

فقال : ياعبد الله إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين وكنتُ أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك

الشمعة تَقِدُ بين يديَّ فيما يصلحهم وهي لهم : فلما صرتُ لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين [1] .

فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عبد العزيز في غاية السمو من الورع ، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين .

ولو تصور أيّ مسئول هذا الأمر لأدرك أن القليل جدّاً من المسئولين يُحظَى بهذا التذكر السريع في أمر حقير كهذا، ثم القليل من هؤلاء الذي يتورع بهذه الدقة ، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين العام في مثل هذا الأمر الصغير .

ويشبه هذا في حياة المسئولين استعمال الورق والأقلام والظروف ونحوها لصالح المسئول الخاص مما كان خاصا بالعمل .

وقد يحتقر المسئول هذا الأمر ولايُلقي له بالاً لعدم ظهور النقص في الحق العام بشكل واضح ، ولكن المبدأ واحد في عدم جواز استخدام حق المسلمين العام في الشئون الخاصة ، سواء في أمر خطير أو في أمر حقير .

وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال: قال عمر يامزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي، قال فأتاه برحْلٍ فأعجبه، قال: من أين أصبتَ هذا ؟ قال: ياأمير المؤمنين دخلتُ بعضَ الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رحْلاً . قال: انطلق فقوِّمْه في السوق. فانطلق فقوَّموه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره ، قال: تُرانا إن وضعنا في بيت المال ديناراً أنسلم منه ؟ قال: إنّما قوَّموه نصف دينار. قال: ضَعْ في بيت المال دينارين .

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥ .

وأخرج أيضا من خبر عليّ بن مسعدة قال: حدثنا رياح بن عبيدة قال: أخرج مسك من الخزائن فلما وضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه، فقال له رجل من أصحابه: ياأمير المؤمنين ماضرّك أن وجدتَ ريحه؟ فقال عمر: وهل يُبْتغى من هذا إلاّ ريحه؟

وأخرج أيضا من خبر فُرات بن مسلم قال: كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كلّ جمعة فعرضتُها عليه فأخذ منها قرطاسًا قدر شبر أو أربع أصابع بقي فكتب فيه حاجة له، فقلت: غفل أمير المؤمنين. فلمّا كان من الغد بعث إليّ أن تعالَ وجئ بكتبك، فجئته بها فبعثني في حاجة، فلمّا جئت قال: مانال لنا أن ننظر في كتبك بعدُ، قلتُ: لا إنّما نظرتَ فيها أمس. قال: خُذْها حتى أبعث إليك. فلمّا فتحتُ كتبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدر قرطاسي الذي أخذ.

وأخرج أيضا من خبر وهُيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبدالعزيز اتّخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل. قال وتقدّم إلى أهله: إيّاكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها فإنّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل. فجاء يومًا فإذا مولاة له معها صحفة فيها غرفة من لبن فقال لها: ماهذا؟ قالت: زوجتك فلانة حامل كما قد علمتَ واشتهت غرفةً من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهت شيئا فلم تُؤتَ به تخوّفت على مافي بطنها أن يسقط، فأخذتُ هذه الغرفة من هذه الدار. فأخذ عمر بيدها فتوجّه بها إلى زوجته وهو

عالي الصوت وهو يقول : إن لم يُمْسك مافي بطنها إلا طعامُ المساكين والفقراء فلا أمسكه الله . فدخل على زوجته فقالت له: مالك؟ قال: تزعم هذه أنّه لا يُمسك مافي بطنك إلا طعام المساكين والفقراء ، فإن لم يُمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله . قالت روجته : رُدّيه ويحك ، والله لاأذوقه . قال : فردّته .

وأخرج من خبر عُبيد بن الوليد قال: سمعتُ أبي يذكر أنّ عمر ابن عبد العزيز كان يسخَّن له في مطبخ العامة ماء يتوضّأ به وهو لايعلم، ثمّ علم بعد ذلك فقال : كم لكم منذ أسخنتموه ؟ فقالوا: شهر أو نحوه . قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطبًا (١).

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الحكيم بن عمر قال: شهدت عمر بن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكبة من لحم، فعجل بها ، فقال : أسرعت بها ! قال : شويتها في نار المطبخ- وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم - فقال لغلامه : كُلْها يابني فإنك رُزقتها ولم أُرزقها (٢).

فهذه الأخبار تفيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام، وهي تبين ورعه عن أشياء صغيرة جدا لاتلفت نظر أكثر الناس، لكنه لدقة إحساسه بالحرام والشبهات تنبه لها ، فقدم بذلك أمثلة رائعة للورع أصبحت عبرة

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٦٦/٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ - ٣٧٩ ، ٣٩٩وانظر تاريخ دمشق ٢١٤/٤٥ - ٢١٩ .

(٢) حلية الأولياء ٢٩١/٥ .

لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بـعده رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

خوفه من الرياء والسمعة :

أخرج محمـد بن سعد من خبر ميمـون بن مهران قال: كنت في سمر عند عـمر بن عبد العزيز ليلة فتكلم فـوعظ، قال: ففطن لرجل خذف بدمعـته فسكت ، فقلت : ياأميـر المؤمنين عُدْ لمنطقك لعل الله أن ينفع بك من بلغه وسـمعه ، فـقال : ياميمـون إن الكلام فتنة وإن الفعل أولى بالمرء من القول (١).

وهكذا سكت عن الـوعظ حـينمـا أحس بشيء من الإعـجـاب بالنفس لما رأى أن كـلامه أبكى ذلـك الرجل، وهذا يدل على كمـال إخلاصـه لله تعالى وقـوة توحيـده ، وقد ذكر لميـمون بن مـهران أن الكلام فتنة ، وذلك أن الإنسان قد يعجب بنفسه لما يرى من قوة تأثيره على الناس فيكون ذلك سـببا في نقص إخلاصه ، حـيث يتكلم ليراه الناس فيمدحوه ويتحدثوا عنه .

وفي هذا المعنى ماذكر الحافظ أبو الفـرج عبد الرحمن بن الجوزي من خبر سعيد بن عبد العزيز قال: كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي (٢).

---

(١) طبقات ابن سعـد ٥/ ٣٧١ وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٩ وسيرة عمر بـن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٨٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥١.

وكذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر نـعيم بن عبد الله كاتب عمر بن عـبد العزيز أن عمر بن عبد العـزيز قال : إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة [١].

مثل من حرصه على إخفاء عمله الصالح :

ذكر الشيخ عمـر بن محمد الخضر الملاء من خبـر رجاء بن حَيْوة قال: لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخـلافة ، أتاه عمـر بن الوليد بن عـبد الملك فقـال ليزيد : ياأميـر المؤمنين ! إن هذا المرائي - يعني عمـر بن عبـد العزيز - الذي مضى بـالأمس قد أخذ كل مـاقدر عليـه من جوهر ثمين وجـعله في بيتين، فأرسل يزيد إلى أختـه فاطمة وسألها عما أُخْـبر به. فقالت : والله يا أخي إن عـمر ماترك سـبدًا ولا لبدًا إلا مـافي هذا المنديل من الثياب. فَحلَّهُ فوجد فيه قميصًا مرقوعًا ورداءً غليظًا قشبًا، وجبَّة محشوة غليظة ذاهبة البطانة . قال: ليس عن هذا أسألك، إنما سألتك عن البيت المقفل . فقالت: والذي فجـعني بأمير المؤمنين مادخلت إلى ذلك البيت منذ وُلِّي عمـر الخلافة ، لعلمي أنَّه كـان يكره ذلك، وهذه مفاتيـحه فانظر مافيه، فإن كان مايقال لك حقًا فحوِّل مافيه إلى بيت المال .

فجاء يزيد ومعه عمر بن الولـيد والناس ففتحوا البيت الأول وإذا فيه كرسي من أدم وأربع آجرّات مبسوطـات، وقمقم نصفه ماء. فقال عمر: استغفر الله .

ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مـسجدًا مفروشًا بالحصى وسلسلة

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/٢٢٩ .

معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق يدخل رأسه فيها - كان يجعله في رقبته إذا نعس في الصلاة - وصندوقًا مقفلاً . ففتح الصندوق فإذا فيه دراعة وثياب من شعر وعطاف من مسوح ، فبكى يزيد وبكى الناس. واستغفر عمر - أي ابن الوليد - الله تعالى (١).

تورعه عن البناء :

قال ابن عياش : كانت لعمر مِرْقاتان يرقى من صحن داره إلى قعر بيته عليهما ، فانقلعت إحدى المرقاتين فأتاها رجل من أهل بيته فأصلحها كراهية أن يشق على عمر، فلما جاء عمر ونظر إليها قال: من صنع هذا ؟ قالوا : فلان قال: عليَّ به فلما جاء قال: ويحك يافلان ، أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة؟ والله لولا أن يكون فساد بعد إصلاح لغيرتها إلى ماكانت عليه(٢).

تورعه عن قبول الهدية :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر تفاحا فقال لو أن عندنا شيئا من تفاح فإنه طيب؟ فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحا، فلما جاء به الرسول قال: ماأطيبه وأطيب ريحه وأحسنه ، ارفع ياغلام واقرأ على فلان السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب، قال عمرو بن مهاجر :

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٦٦٤ - ٦٦٥ ، وانظر البداية والنهاية ٢٢٣/١٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ .

فقلت له ياأمـير المؤمنين ابن عمك رجل من أهل بيـتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهـدية ولايأكل الصدقة ، قال: إن الهـدية كانت للنبي ﷺ هدية ، وهي لنا رشوة[1] .

مثل آخر من رده الهدية :

أخرج الحـافظ ابن عساكـر من خبر يعـقوب قال : سـمعت أبي يحـدث أن عمـر بن عـبـد العزيز جـاءه ثلاثون ألف درهم من مـال بالبحـرين، فجـاءه الذي كان يقـوم على طعام أهله، فـقال: ياأمـير المؤمنين قد جـاءك الله بنفقة ، قال: من أين ؟ قـال: من مالك الذي بالبحرين، جاءتك ثلاثون ألفا ، قال: فـاسترجع عمر وقال: ادع لي مُزاحـما ، فلما جـاءه مزاحم قال: أي مـزاحم ، ماردتَ ذلك المال الذي جاءنا من البحرين في مال الله ! قال مزاحم : سقط عليّ ياأمير المؤمنين ، قال : فاردده وصل بهذا المال في بيت مال المسلمين. قال: فدخل عليه قَيّمُ ذلك المال فقال : ياأمـير المؤمنين اعتق رقبتي من الرق أعتـقك الله من النار ، قال: فنظر إليه ثم قـال: إنّما أنت وذاك المال من مال الله فـلا سبيل إلى عتقـك، قال: ياأمير المؤمنين جَـرّة زنجبيل مُربّت كنت أهديها لك كلّ عام وقد جئت بها، قال : ائت بها، قال: فأخرَج منـه عودًا فوضعه على شـفتيه ثم قـال: مَهْ، إذا شككت في الشيء فدعه ، لاحاجة لي بجرتك [2].

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٤ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٠ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢١ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٠ .

مثل من إجلاله رسول الله ﷺ :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الله بن يونس قال: سمعت بعض شيوخنا يذكر أن عمر بن عبد العزيز أُتِيَ بكاتب يخط بين يديه، وكان مسلما وكان أبوه كافرًا نصرانيا أو غيره، فقال عمر للذي جاء به: لو كنت جئت به من أبناء المهاجرين ! قال: فقال الكاتب: ماضرَّ رسول الله ﷺ كفر أبيه ، قال فقال عمر : وقد جعلته مثلا ! لاتخط بين يدي بقلم أبدا (١).

أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق :

ومن أمثلة اقتصاده وحفاظه على مال المسلمين العام ماجاء في كتابه لأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة وقد جاء فيه: أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم، فابتليتُ بجوابك فيه، ولعمري لقد عهدتك ياابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك مايغنيك والسلام.

وكتب إليه أيضًا : أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه كان يُجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه، فإذا جاءك كتابي هذا فأَرِقَّ القلم، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة

---

(١) حلية الأولياء ٥/٢٨٣ - ٢٨٤ .

فإنه لاحـاجة للمـسلمين في فضل قول أضَـرَّ ببيت مـالهم، والسلام عليك [(١)] .

فهذان مـثلان عاليان في الاقتـصاد ، فالمسئـول مؤتمن على أموال الدولة ، فـلايجوز له أن يُسـرف حتى في الأشـياء الرخـيصة الثـمن كالورق والأقلام ونـحوها ، لأن القليل مع القليل كثيـر ، وقبل ذلك لأن الذمة لاتبرأ إلا في الاقتصار على مايؤدي الغرض المطلوب.

وماأشار إليـه عمر في هذين الكتابين يعـتبر توجيـها سديدا لكل مسـئول،بحيث يكون في ذهنـه لزوم الاقتصـاد في أموال الدولة،من أجل أن تصرف على مستحقيها،بدلا من أن تضيع في معاملات طويلة تستنفـد وقتا طـويلا وتكاليف كثيـرة وهي يمكن أن تؤدَّى في أقل من ذلك.

إن عـدم الشـعور بوجـوب حـفظ مـال الدولة - الذي هو مـال المسلمين العـام - يعتـبر نوعـا من التفـريط في الواجب ، وقد يـقود صاحبه إلى أنواع من المآثم التي قد لايحسب لها حسابا .

أما إذا شعر بأن كـل فرد من أفراد المسلمين له حق في ذلك المال الذي أصبح مسئولا عنه ،وأن الله تعالى سيحاسبه على القليل والكثير من ذلك إذا صرفه في غير حقه، فإن ذلك يجعله يفكر كثيرًا في حفظ ذلك المال ، وعدم صرفـه إلا في وجوهه المشروعة ، وأن يجـتهد في الاقتصاد في ذلك ، بحيث يؤدي العمل الكثير بالانفاق القليل .

---

(١) سيـرة عمـر بن عبـد العزيز لابن عـبد الحكم / ٦٤ - ٦٥ ، وانظر سـيرة عـمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي / ٦٦ ، وحلية الأولياء ٥/ ٣٠٧ .

وعظه مسلمة في الاقتصاد في المأكل :

ومن أمثلة زهده وتزهيده في الدنيا ماروُي عن مسلمة بن عبدالملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلايدخل عليه أحد، فجاءت جارية بطبق تمر صيحاني - وكان يعجبه التمر - فرفع بكفيه فقال : يامسلمة أتُرى رجلا لو أكل هذا ثم شرب عليه من الماء - فإن الماء على التمر يطيب - أكان يُجزيه إلى الليل ؟ فقلت : نعم ياأمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى مايبالي أن لا يذوق طعاما غيره، قال: فعلامَ تدخلُ النار ؟

قال مسلمة : فما وقعَتْ مني موعظة ماوقعت مني هذه (١) .

فهذه موعظة بليغة من عمر تأثر بها مسلمة بن عبد الملك، وإنما قصد عمر نهي مسلمة عن الإسراف في الطعام ، وكان ممن اشتهر بذلك .

والإسراف في الطعام قد نهى الله تعالى عنه وكذلك في اللباس ونحوه من متاع الدنيا ، كما قال تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) .

حواره مع عمته في رد مخصصاتها :

ومن ذلك ماذكره ابن عبد الحكم رحمه الله قال: ولما ولي عمر ابن عبد العزيز أتت عمة له إلى فاطمة امرأته فقالت: إني أريد كلام

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /١٥٧ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) سورة الأعراف / ٣١ .

أمير المؤمنين ، قالت لها : اجلسي حتى يفرغ فجلست، فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجا .

فقالت لها فاطمة : إن كنت تريدينه فالآن ، إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع ، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجه، فقامت فدخلت عليه، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت، وهو يتعشى ، فقالت : ياأمير المؤمنين أتيت بحاجة لي ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي .

قال : وماذاك ياعمة ؟ قالت : لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا، قال: ليس عندي ياعمة ، ولو كان عندي لفعلت، قالت: ياأمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يُجري عليَّ كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادني ، ثم وليت أنت فقطعته عني .

قال : ياعمة إن عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين، وليس ذلك المال لي فأعطيكه، ولكني أعطيك مالي إن شئت ، قالت: وماذاك ياأمير المؤمنين ؟ قال: عطائي مائتا دينار فهي لك ، قالت: ومايبلغ مني عطاؤك؟ قال: فليس أملك غيره ياعمة ، قالت[1] : فانصرفَتْ عنه [2] .

في هذا الخبر مواقف إسلامية رائعة من عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فهو أولا يضرب مثلا عاليا في الورع حيث لايستعمل في

---

(١) يعني فاطمة بنت عبد الملك .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

حوائجه الخاصة شيئًا من مال المسلمين العام ، وقد تقدم خبر يشابه ذلك .

وهو ثانيًا يضرب مثلا عاليا في الزهد حيث اكتفى بتلك النفقة القليلة والطعام الزهيد ، الذي أشفقت عليه منه عمته فبدأت بلومه على ذلك .

ثم هو ثالثًا يضرب مثلا عاليا في الحزم والقوة في تطبيق الحق وتنفيذ العدل حتى مع أقاربه الكبار حيث قطع عنهم المخصصات التي كانت تصرف لهم ، ولم يثنه عن عزمه في ذلك كثرة شكواهم وإلحاحهم عليه في الطلب .

ولقد أبدى لعمته استعداده لمنحها ماله الخاص مع أنه لايملك غيره، فهو الأمر الذي يوقن بأن الله تعالى لن يسأله عنه، أما مال المسلمين العام فإنه مسئول عنه أمام الله تعالى يوم القيامة ، فكيف يجامل أقاربه مهما كان حقهم وقدرهم ليواجه الحساب يوم القيامة ولا حجة له.

ولكن هذه المرأة - مع كبر سنها - زهدت في عطاء عمر لأنه لايساوي شيئًا يُذكر أمام مخصصها الذي قُطع ، مع أن هذا العطاء قد خُصِّص من أهل النظر لكفاية بيت من بيوت المسلمين، وذلك لأنها تعودت على نمط من الحياة لايغطي تكاليفه إلا المال الكثير .

وهكذا تكون طبيعة النفوس إذا ألفت على الإنفاق الكثير فإنها لاتستطيع أن تألف على القليل .

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

رفضه أن يوصي لأولاده بشيء :

ومن ذلك ماذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: ياأمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم! فلما سمع مقالته قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يامسلمة ، أما قولك : إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فو الله ماظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئًا لغيرهم، وأما ماقلت في الوصية فإن وصيِّي فيهم ﴿ **اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٩٦] ، وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله، ادْعُ لي بَنيّ ، فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسي فتيةٌ تركتهم عالة لاشيء لهم- وبكى-: يابَنِيّ إني قد تركت لكم خيرًا كثيرًا، لاتمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقا، يابَنِيَّ إني قد مَثُلتُ بين الأمرين : إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إليّ ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله (١)

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١١٥ - ١١٦، وانظر تاريخ دمشق ٢٥٢/٣٤٥ ، وحلية الأولياء ٥/ ٣٣٣.

وقد جاء في إحدى الروايات أن الراوي قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر [1] .

في هذا الخبر مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى في وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمَّل ذمته شيئًا لايدري على أي وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لايحل ، فيلحقه بذلك شيء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه .

لقد تصور في معاملة أولاده وقوعه بين أمرين : أن يغنيهم في الحياة الدنيا ، وذلك بمنحهم شيئا من المال العام للمسلمين فيتعرض بذلك للفحات النار، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة ، فاختار الطريق الأخير مع ثقته بالله تعالى أنه لن يضيعهم ، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية ، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة ، وأكرِمْ بذلك من تِركة !!

إنها تركة عظيمة لاتقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة .

وفي قوله « إنما ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله » لفتة جليله إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذًا من قول الله تعالى ﴿ **وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ ، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن

---

(١) هامش السيرة المذكورة /١١٦ .

يبذل الوالد أقصى جهده في تربيــة أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعــالى ، وليس المهم أن يســعى في جمع المال لهــم حتى يغــتنوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فــسيكون ذلك المال عونا لهم على معصية الله تعالى .

وصيته لمسلمة بالتحري في الأموال :

ومن أمثلة تحري أمــير المؤمنين عمر بن عبد العــزيز الحلال وبعده عن الشبهات ماذكره ابن عبد الحكم قال: ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضــه الذي مات فيه، فأوصاه عمر بأن يحضر مــوته وأن يلي غسله وتكفينه ، وأن يمشي معــه إلى قبره، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده ، ثم نظر إليه وقال: انظر يامسلمة بأي منزل تتركني ، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنــيا، فقال له مسلمة: فأوص ياأمير المؤمنين ، قال : مالي من مال فأوصي فيه، قال مسلمة: هذه مائة ألف دينار فــأوصِ فيهــا بما أحببت ، قال: أوَخــير من ذلك يامسلمة ؟ أن تردها من حــيث أخذتها، قال مســلمة : جزاك الله عنا خيرا ياأمير المؤمنين والله لقد ألَنْتَ لــنا قلوبا قاسية، وجعلت لنا ذكرًا في الصالحين (١) .

ففي هذا الخبــر يوجه أمير المؤمنين عــمر بن عبد العــزيز ابن عمه مسلمــة بن عبــد الملك إلى التحــري في اكتســاب المال ، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لايجعله حلالا، بل لابد من التحري في كــسبه ، فــإذا لم يكن للإنســان حق فــيــه وجب عليــه أن يرده إلى مستحقيه ، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢٢ - ١٢٣ .

اعتباره بزهد النبي ﷺ :

قال الحافظ ابن الجوزي : وعن عمرو بن مـهاجر قال: كان متاع رسول الله ﷺ عند عمر بن عـبد العزيز رضي الله عنه في بيت ينظر إليه كل يوم قال: وكان ربما اجتمـعت إليه قريش فأدخلهم ذلك البيت ثم استقـبل ذلك المتاع فيقول : هذا ميـراث من أكرمكم الله وأعزكم به، قال وكـان سريراً مرمـولا بشريط ومرفـقة من أدم محـشوة بليف وجفنة وقـدحا وقطيفة من صـوف كأنها جرمـقانية[1]، قـال: ورَحَى وكنانة فيـها أسهم وكان في القـطيفة أثر وسخ رأسه ، فـأصيب رجل فطلبوا أن يغـسلوا بعض ذلك الوسخ فيسـعط به ، فذُكر ذلك لعـمر فسُعط فبرأ[2].

من أمثلة زهده :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر مسلمة بن عبدالملك قال: دخلت على عـمر بن عبد العـزيز أعوده في مرضه، فـإذا قمـيص وسخ فقلت لامـرأته فاطمـة : اغسلوا قـميص أميـر المؤمنين فقالت: نفـعل ذلك إن شاء الله ، ثم عدت فإذا القـميص على حاله فقلت : يافاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قـميص أمير المؤمنين ! فقالت: والله ماله قميص غيره [3].

---

(١) نسبة إلى الجرامقه وهم من العجم يصنعون هذه القطائف .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٥ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١١ .

تربيته أولاده على التقشف والزهد :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر يعقوب عن أبيه أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أتى إلى أبيه وهو خليفة يستكسي أباه، فقال: ياأبت اكسني ، فقال : اذهب إلى الخيار بن رياح البصري فإن لي عنده ثيابا فخذ منها مابدا لك ، قال : فذهبت إلى الخيار بن رياح فقلت: إني استكسيت أبي فأرسلني إليك وقال: إن لي عند الخيار بن رياح ثيابا ، فقال صدق أمير المؤمنين ، فأخرج إليه ثيابا سنبلانية أو قطرية ، فقال : هذا ما لأمير المؤمنين عندي فخذ منها مابدا لك ، قال عبد الله : ماهذا من ثيابي ولا من ثياب قومي، فقال: هذا مالأمير المؤمنين عندي، فرجع عبد الله إلى أبيه عمر فقال: ياأبتاه استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رياح فأخرج لي ثيابا ليست من ثيابي ولا من ثياب قومي . قال : فذاك مالنا عند الرجل، فانصرف عبد الله حتى إذا كاد يخرج ناداه فقال: هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم ، قال : نعم ياأبتاه ، فأسلفه مائة درهم فلما خرج عطاؤه حوسب بها فأُخذت منه [1].

موعظة المنصور بسيرة عمر المالية :

قال الحافظ ابن الجوزي : وبلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : عظني . قال: بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال: بما رأيت قال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلَّف أحد عشر ابنا وبلغت تركته سبعة عشر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٣٥ .

ديناراً كُفِّن منها بخمسة دنانير واشتُري له موضع قبره بدينارين وقُسم الباقي على بنيه ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً ، فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف . ورأيت رجلاً من ولد عمر ابن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه [1].

وإن في هذا الخبر لعبرة للمعتبرين ، حيث تحولت حال أبناء عمر ابن عبد العزيز الذين لايملك الواحد منهم عشرين درهماً إلى أن ملكوا الألوف ، بينما تحولت حال أبناء هشام بن عبد الملك الذين يملك الواحد منهم مئات الألوف إلى أسوإ حال، وذلك من آثار صلاح عمر ابن عبد العزيز ومن بركة دعائه الصالح لأولاه، فإن صلاح الآباء يكون خيراً وبركة على أبنائهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فمن أدلة ذلك خبر الغلامين اللَّذَين حفظ الله تعالى لهما رزقهما بسبب صلاح أبيهما كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف : ٨٢] .

وأما في الآخرة فإن الله تعالى يُلحق بفضله وكرمه ذرية الصالحين بهم في الجنة كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا**

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٥٤ .

كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] ، وإن في ذلك لبشرى لمن وُفقوا بآباء صالحين، وذلك مما يدفعهم إلى الاستقامة على ماكان عليه آباؤهم حتى يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

دقة موازنته بين الدنيا والآخرة :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جزيمة أبي محمد بن العابد أن عمر بن عبد العزيز قال: ماأعطيت أحدًا مالا إلا وأنا استقله، وإني لأستحي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل (١).

وهذا يدل على اهتمامه بالجنة وتعظيمه إياها وأنه يرى أن الدنيا لاتساوي شيئا عندها ، فلذلك يرى أن من تكرم على أخيه بسؤال الجنة له لاينبغي له أن يبخل عليه بالدنيا مهما كان حجم الطلب منها، وفي ذلك عبرة للمسلمين الذين يستهينون بطلب نعيم الآخرة الخالد، بينما يبدون اهتماما كبيرا بطلب متاع زائل .

أمثلة من زهده وإصلاحه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال: شهدت عمر حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمها. قال وكم هي ؟ قالوا هي كذا وكذا . قال أبعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريد وأجعل أثمانها في مال الله عز وجل، تكفيني بغلتي هذه الشهباء ، وجاءه صاحب الرقيق يسأل أرزاقهم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٣.

وكسوتهم ومايصلحهم ، فقال عمر : كم هم ؟ قالوا : هم كذا وكذا ألفا ، فكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه ، فأمر لكل أعمى بقائد وأمر لكل اثنين من الزَّمنَى بخادم، وفَضُل من الرقيق فكتب : أن ارفعوا إليّ كل يتيم ومن لاأحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية (١).

فلينظر العقلاء وليوازنوا بين عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعهود من قبله من الأمراء بالنسبة لهؤلاء المملوكين الذين خُصِّصوا للخدمة ونحو ذلك، كم هي نفقاتهم وهم قد بلغوا عدة آلاف؟ وكم هو النقص الذي يحصل على بيت مال المسلمين منهم ؟! ثم ليعتبروا بما قرره عمر بن عبد العزيز من التخلي عنهم وتوزيعهم على المسلمين من أصحاب العاهات واليتامى ليقوموا بخدمتهم ، فهو بهذا وفَّر نفقاتهم الكبيرة على بيت المال ، وفي الوقت نفسه نفع بهم أعداداً كثيرة من المسلمين هم بحاجة إليهم ، فهكذا تكون الاستقامة ، وهكذا تكون العدالة !!

مثل من خشيته وموقف لأبي قلابة :

أخرج الإمام أحمد من خبر حميد الطويل أبي عبيدة الخزاعي قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز بكى وقال: ياأبا قلابة هل

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٠ .

تخشى علي ؟ قلت : كيف حبك الدرهم ؟ قال: لاأحبه، قال: لاتخف إن الله عز وجل سيعينك [١].

فهذا فهم جيد من أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي رحمه الله تعالى ، فقد ذكر أهم أسباب الفتنة وهو حب المال، فإن حب المال يحمل صاحبه على اكتسابه من طريق الحرام والشبهات، وإذا وقع المسئول في ذلك سارع إلى منافسته ومحاولة احتوائه أمثاله من أهل الدنيا، فيضطر إلى إنفاق المال على الكبراء من هؤلاء الذين هم خبراء به لكيلا يفضحوه أمام الناس ، فيكون الجميع شركاء في نهب أموال الأمة وحرمان أصحاب الحقوق .

نهاية عمر بن عبد العزيز وما في ذلك من مواقف :

ذكر ابن سعد من خبر محمد بن قيس قال: حضرت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أول مرضه ، اشتكى لهلال رجب سنة إحدى ومئة، فكان شكوه عشرين يوما ، فأرسل إلى ذمي ونحن بدير سمعان، فساومه موضع قبره ، فقال الذمي : ياأمير المؤمنين إنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي ، قد حللتك، فأبى عمر حتى ابتاعه منه بدينارين ، ثم دعا بالدينارين فدفعهما إليه [٢].

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: كان قد شدد على أقاربه وانتزع كثيراً مما في أيديهم فتبرموا وسموه، فروى معروف بن مشكان عن مجاهد قال قال لي عمر بن عبد

---

(١) الزهد / ٣٠١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٤٠٦ .

العزيز: مـايقول الناس في ؟ قلت : يقولون إنك مـسحور، قـال: ماأنا بمسحور، ثم دعـا غلاما له فقـال له ويحك ماحملك على أن سقـيتني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتُها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف، فجاء بها . فألقاها عمر في بيت المال . وقال: اذهب حيث لايراك أحد[1].

فهذا مـثل عجيب في العفو ، حـيث عفا أميـر المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قـادر على أن يقتله شـر قتلة ، ولكنه يوقن بأن مـاعند الله خير وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على العفو، وإن انتصر منه فـأقام عليه الحد لم يأثم ولكنه لايحصل على أجـر العفو، ونظرًا إلى أن أغلى شيء عنده في هـذه الحيـاة أن يرتفع رصيـده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على الانتصار للنفس .

ومما جرى منه في مرضه ماأخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب السختـياني قال: قيل لعـمر بن عبد العزيز : ياأمـير المؤمنين لو أتيت المدينة فإن قضى الله مـوتا دُفِنتَ في الموضع الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعـمر ، قـال: والله لأن يعذبني الله بكل عـذاب إلا النار فإني لاصـبر لي عليه أحب إليَّ من أن يعلم اللـه تعالى من قلبي أني أُراني لذلك أهلا [2].

فهذا مثال على خشيته العظيـمة وتواضعه الكبير رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٢١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٠٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٨ .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي زيد الدمشقي قال: لما ثة
عمر بن عبد العزيز دُعي له طبيب فلما نظر إليه قال: الرجل قد سُة
السم ، ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره فقال: ولاتأمن المو
أيضا على من لم يسق السم ؟ قال الطبيب هل أحسست بذلك ياأم
المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت حين وقع في بطني ، قال: فتعال
ياأمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك ، فقال ربي خير مذهو
إليه والله لو علمت أن شفاي عند شحمة أذني مارفعت يدي إلى أذن
فتناولته . اللهم خِرْ لعمر في لقائك ، قال: فلم يلبث أياما حت
مات[1] .

وأخرج ابن سعد من خبر عمرو بن عثمان قال: مات عمر ب
عبد العزيز لعشر ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وهو اب
تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر
ومات بدير سمعان [2] .

سؤال الفقهاء عن حال عمر في بيته :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر وهيب بن الور
قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى امرأة
يعزّونها به فقالوا لها : جئناك لنعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة
الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر، كيف كانت حاله في بيته؟ فإ
أعلم الناس بالرجل أهله ، فقالت : والله ماكان بأكثركم صلا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٣٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٤٠٧ - ٤٠٨ .

ولاصياما ، ولكني والله مارأيت عبـدا لله قط كان أشد خوفا لله من عمـر، والله إن كان ليكون في المكـان الذي ينتهي إليـه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف فيخطر على قلبـه الشيء من أمر الله فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء ثم ينشج ، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه التي بين جنبيه ، فأطرح اللحاف عني وعنه رحمة له، وأنا أقول : ياليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله مارأينا سرورا منذ دخلنا فيها (١).

من ثناء العلماء على عمر :

من ذلك ماأخـرجه ابن عـساكـر من خبر حـماد بن واقـد قال: سمعت مالك بن دينار يقـول : يقولون مالك بن دينار زاهد ! (٢) أيُّ زهد عند مالك وله جـبة وكساء !! إنمـا الزاهد عمر بن عبـد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها (٣).

ثناء ملك الروم عليه :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خـبر محمد بن معبد أن عـمر بن عبد العزيز أرسل بأسارى من أسارى الروم فـفادى بهم أسارى من أسارى المسلمين ، قـال: فكنت إذا دخلـت على ملك الروم فـدخلَتْ عليـه عظماء الروم خرجت، قال: فـدخلْتُ يوما فإذا هو جالس في الأرض مكتئـبًا حزينا ، فقلت : مـاشأن الملك ؟ قال: وماتدري مـاحدث؟!

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، وأخرج نحوه الإمام أحمد في الزهد /٢٩٩ .

(٢) يعني نفسه .

(٣) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٩ ، وانظر حلية الأولياء ٥/ ٢٥٧ .

قلت: وماحدث ؟ قال : مات الرجل الصالح، قلت: من ؟ قال: عمر بن عبد العزيز . قال: ثم قال ملك الروم : لأحسب أنه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم عليه السلام لأحياهم عمر بن عبدالعزيز ، ثم قال: لست أعجب من الراهب أغلق بابه ورفض الدنيا وترهَّب وتعبَّد ، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها ثم ترهب (١).

* * *

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٠ ، وأخرج نحوه ابن عساكر - تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٦١-٢٦٢، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١٤٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٤٩.

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شـارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٦)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الرابع

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخوارج
ومواقف أئمة المسلمين
وقادتهم منهم

لم يكن من منهجي في هذا الكتاب التعرض للحروب التي ثارت بين المسلمين ، لأن ذلك يسيء إلى سمعة هؤلاء المتحاربين، والمقصود من هذا الكتاب هو إبراز مواقف المسلمين ، وتجلية العبر في تاريخهم، ولكني رأيت أخيراً أهمية الحديث عن مواقف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في معاملة الخوارج ، لأن النبي ﷺ ذكرهم وذمهم ووعد من قاتلهم بالأجر العظيم، كما سيأتي في ذكر قتالهم مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ولذلك كان قتالهم يحوز على ثناء علماء المسلمين ، فالحديث عن القتال معهم يعتبر إدانة لهم وإشادة بمن قاتلهم .

- الخوارج وماورد فيهم من أحاديث -

الخوارج هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفـقت الجماعة عليه (١) .

وبداية وجودهم في عهد رسول الـله ﷺ ، وذلك حينما اعترض عليـه أحدهم في قـسـمة الغنائم يوم حـنين، وقد أخـرج خبـر ذلك الشيـخان من حديـث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه قـال: بينما النبيﷺ يقسم جاء عـبد الله بن ذي الخُوَيصرة التميـمي فقال: اعدل يارسول الله ، فقال : ويلك، ومن يعـدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب : دعني أضـرب عنقه. قـال : دعه فـإن له أصحـابا يحقـر أحدكم صلاته مع صـلاته وصيامه مع صيامه، يمرقـون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلايوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلايوجد فيه شيء، ثم ينظر نضيَّه فـلا يوجد فيه شيء، قد سَبقَ الفرثَ والدم. آيتهم رجلٌ إحدى يديه - أو قال ثدييه - مثل ثدي المرأة ، أو قـال: مثل البضعة تدردرُ . يخرجون على حين فرقة من الناس. قـال أبو سعيد : أشهدُ سمعتُ من النبي ﷺ ، وأشهدُ أن عليّا قَتلَهم وأنا معه، جيء بالرجل عَلَى النعتِ الذي نعته النبيُّ ﷺ (٢) .

وقوله « كـما يمرق السـهم من الرَّمِيَّـة » معناه أن خـروجهم من

---

(١) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ١/ ١٥٥ .

(٢) صحيح البخـاري ، رقم ٦٩٣٣ ، كتاب استتابة المرتدين ١٢/ ٢٩٠ صـحيح مسلم، رقم ١٠٦٤ ، كتاب الزكاة ص ٧٤٤ .

الإسلام يتم بسرعة كخروج السهم من الصيد المرمي بقوة وسرعة من قوة الرمي .

وقوله « ينظر في قُذذه » هي ريش السهم.

وقوله « ثم ينظر إلى نصله » يعني حديدة السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى رصافه » يعني إلى مدخل النصل من السهم.

وقوله « ثم ينظر إلى نَضِيِّه » هو السهم بلانصل ولاريش .

وقوله « سبق الفرث والدم » أي أن السهم جاوزهما ولم يعلق فيه منهما شيء .

والمقصود هو التعبير عن سرعة خروج الخوارج من الإسلام بتشبيه ذلك بسرعة خروج السهم من الصيد المرمي بحيث لايعلق بأي جزء من أجزائه شيء منه .

وفي حديث آخر أخرجه الشيخان أن النبي ﷺ قال في وصفهم: « يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمِيَّة ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » (١) .

وفي رواية لمسلم « يتلون كتاب الله لَيِّنًا رطبا » (٢) .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ / ١٤٣ ، الزكاة (ص ٧٤١ - ٧٤٢) .
صحيح البخاري ، رقم ٣٣٤٤ ، الأنبياء (٦/ ٣٧٦) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤/ ١٤٥ ، الزكاة (ص ٧٤٣) .

وجاء في حديث آخر أخرجه الشيخان « سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام،يقولون من خير قول البرية، لايجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة »(١) .

وجاء في رواية لمسلم « يخرجون في فُرقة من الناس، سيماهم التحالق ، هم شر الخلق – أو من أشر الخلق – يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وفي رواية أخرى لمسلم « يَتيهُ قوم قِبَل المشرق، مُحلَّقة رؤوسهم»(٢) .

ففي هذه الأحاديث بيان شيء من صفات الخوارج ، فمن ذلك أنهم يشتهرون بكثرة التعبد بالشعائر التعبدية كالصلاة والصيام، وأن الصحابة رضي الله عنهم على كثرة تعبدهم يحقرون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم .

ومنها أنهم من قراء كتاب الله تعالى وأنهم يحسنون أداءه، ويحسنون أصواتهم به ، ولكنهم لايتأثرون به في قلوبهم ولايؤثر على سلوكهم .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٣٠ ، ٦٩٣٤ ، كتاب استتابة المرتدين (١٢/ ٢٨٣، ٢٩٠) .

صحيح مسلم رقم ١٠٦٦/ ١٥٤ ، الزكاة ، (ص ٧٤٦ – ٧٤٧) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة رقم ١٤٩ ، ١٦٠ (ص٧٤٥ ، ٧٥٠) .

ومنها أنهم من صغار السن وأنهم سفهاء العقول لايفكرون تفكيراً سليما .

ومنهـا أنهم ينطقـون بالكلام الحسن الذي يجذب انـتبـاه الناس ولكنهم يسيئون الأفعال، وذلك من قول رسول الله ﷺ عنهم «يقولون من خير قول البرية »قال الحـافظ ابن حجر: تقدم قول مـن قال إنه مقلوب وأن المراد من قول خير البـرية وهو القرآن، قال قلت: ويحتمل أن يكون على ظـاهره» والمراد القـول الحسن في الظاهر وبـاطنه على خلاف ذلك، كقولهم «لاحكم إلا لله»، قال: وفي حديث أنس عن أبي سعيد عند أبي داود والطبراني «يحسنون القول ويسيئون الفعل»(١).

ومنهـا أنهم يكثـرون من الأقـوال التي ظـاهرها الإيمان ، ولكن قلوبهم بخلاف ذلك « لايجاوز إيمانهم حناجرهم » .

ومنها أنهم يحلقون رؤوسهـم على الدوام على خلاف المعتاد من حياة الناس في ذلك الزمن .

ومنهـا أنهم يعـاملون من خالفـهم من المسلمـين بعنف وقسـوة، ويستـحلون دماءهم وأموالهم ، بينـما يعاملون الكفـار من أهل الذمة بلين ولطف ، ويتورعون عن دمائهم وأموالهم .

مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج :

كان أول ظهـور الخوارج بشكل جمـاعي في عهد أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك بعـد معركة صفين حـينما دعا أصـحاب معاوية رضي الله عنه إلـى إيقاف القتال والتـحاكم إلى

(١) فتح الباري ٢/ ٢٨٧ .

كتاب الله تعالى ، فكَرِهَ ذلك علي رضي الله عنه لأنه كان قد أوشك على النصر وقَبِل ذلك فرقة من جيشه وألزموه بإيقاف القتال وقبول التحكيم ، ثم إن طائفة من هؤلاء غيروا رأيهم واعتبروا أن التحكيم كفر وأنَّ من قبل ذلك فقد كفر ، ثم أظهروا توبتهم من ذلك الكفر ورفضوا قبول التحكيم ، وخرجوا على علي رضي الله عنه .

وقد وردت في ذلك أخبار منها ماأخرجه المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الإمام الشعبي قال: لما اجتمع علي ومعاوية على أن يُحكِّما رجلين اختلف الناس على علي فكان عُظمهم وجمهورهم مقرين بالتحكيم راضين به، وكانت فرقة منهم - وهم زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعبَّاد منهم - منكرة للحكومة ، وكانت فرقة منهم وهم قليل متوقفين، فأتت الفرقة المنكرة عليّا فقالوا: عد إلى الحرب - وكان علي يحبّ ذلك - فقال الذين رضوا بالتحكيم: والله مادعانا القوم إلا إلى حق وإنصاف وعدل، وكان الأشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا إلى الحرب، فقال علي للذين دعوا إلى الحرب : ياقوم قد ترون خلاف أصحابكم وأنت قليل في كثير ، ولئن عُدتم إلى الحرب ليكوننّ أشدّ عليكم من أهل الشام، فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنوكم ، والله مارضيت ماكان ولاهويته، ولكني ملت إلى الجمهور منكم خوفًا عليكم . ثم أنشد :

وماأنا إلا من غُزَيَّةَ إن غَوَتْ   غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففارقوه ومضى بعضهم إلى الكوفة قبل كتاب القضية، و أقام الباقون معه على إنكارهم التحكيم ناقمين عليه يقولون : لعلّه يتوب

ويراجع ، فلما كُتبت القضية (١) خرج بها الأشعث فقال عروة بن حُدير: ياأشعث ماهذه الدنية ؟ أشرط أوثق من شرط الله ؟ واعترضه بسيف فضرب عجز بغلته وحكَّم (٢) فغضب للأشعث أهل اليمن حتى مشى الأحنف ، وجارية بن قدامة ، ومعقل بن قيس ، وشبث بن ربعي ، ووجوه تميم إليهم فرضوا وصفحوا (٣) .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال: لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين خاصمته الحرورية ستة أشهر وقالوا: شككت في أمرك وحكَّمت عدوك ووهنت في الجهاد، وتأولوا عليه القرآن فقالوا : قال الله : ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾(٤) الآية : وطالت خصومتهم لعلي ، ثم زالوا براياتهم وهم خمسة آلاف عليهم ابن الكواء ، فأرسل إليهم علي عبد الله بن عباس وصعصعة بن صوحان فدعواهم إلى الجماعة وناشداهم فأبوا عليهما ، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطلح، وقال لهم : أبرزوا منكم اثني عشر نقيبًا ، وأبعث منا مثلهم ونجتمع بمكان كذا فيقوم خطباؤنا بحججنا وخطباؤكم بحججكم. ففعلوا ورجعوا فقام علي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإني لم أكن أحرصكم على هذه القضية وعلى التحكيم ولكنكم وهنتم في القتال، وتفرقتم عليَّ وخاصمني القوم بالقرآن

---

(١) أي قضية الصلح بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بتحكيم الحكمين .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا لله .

(٣) أنساب الأشراف ٣/ ١١٢ .

(٤) سورة غافر الآية (٢٠) .

ودعَوْنا إليه، فخشيت إن أبيت الذي دعوا إليه من القرآن والحكم، أن يتأولوا عليَّ قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] الآية: ويتأولوا قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[2] ويتأولوا قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[3] الآية فلم آب عليهم التحاكم، وخشيت أن تقولوا: فرض الله في كتابه الحكومة في أصغر الأمر فكيف الأمر الذي فيه سفك الدماء، وقطع الأرحام وانتهاك الحريم ، وخفت وهَنكم وتفرقكم .

ثم قامت خطباء الحرورية ، فقالوا: دعوتنا إلى كتاب الله والعمل به فأجبناك وبايعناك وقد قُتِلَتْ في طاعتك قتلانا يوم الجمل وصفين، ثمّ شككت في أمر الله وحكّمت عدوك ، ونحن على أمرك الذي تركت ، وأنت اليوم على غيره، فلسنا منك إلا أن تتوب منه وتشهد على نفسك بالضلالة . فلما فرغوا من قولهم : قال علي :

أما أن أشهد على نفسي بالضلالة فمعاذ الله أن أكون ارتبت منذ

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٣) .

(٢) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٣) سورة النساء الآية (٣٥) .

أسلمت، أو ضللت منذ اهتديت، بل بنا هداكم الله من الضلالة، واستنقذكم من الكفر، وعصمكم من الجهالة، وإنما حكَّمت الحكمين بكتاب الله والسنة الجامعة غير المفرقة ، فإن حكما بكتاب الله كنت أولى بالأمر في حكمهما ، وإن حكما بغير ذلك لم يكن لهما علي وعليكم حكم.

ثم تفرقوا فأعاد إليهم عبد الله بن عباس وصعصعة فقال لهم صعصعة : أذكِّركم الله أن تجعلوا فتنة العام مخافة فتنة عام قابل، فقال ابن الكواء : ألستم تعلمون أني دعوتكم إلى هذا الأمر؟ فقالوا: بلى . قال : فإني أول من أطاع هذا الرجل فإنه واعظ شفيق. فخرج معه منهم نحو من خمسمائة فدخلوا في جملة علي وجماعته، وبقي منهم نحو من خمسة آلاف رجل فقال عليّ : اتركوهم حتى يأخذوا ، ويسفكوا دمًا حراما ففعل ذلك .

وأخرج أيضا من خبر الصلت بن بهرام قال: لما قدم عليٌّ الكوفة من صفين جعل يخطب الناس وجعلت الخوارج تقول - وهو على المنبر -: قَبِلتَ الدنيَّة بالقضيَّة [1]، وجزعت عن البلية لاحكم إلا لله. فيقول :حكم الله انتظر فيكم. فيقولون : ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[2]، فيقول علي: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ [3].

---

(١) يعني حينما رضيتَ بالتحكيم .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٥) .

(٣) سور الروم (٦٠) .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال: أنكرت الحكومة على عليّ طائفة من أصحابه قدمت إلى بلدانها من صفين، وانحاز منهم اثنا عشر ألفًا - ويقال ستة آلاف - إلى موضع يقال له: حروراء بناحية الكوفة فبعث إليهم علي ابن عباس وصعصعة ، فوعظهم صعصعة . وحاجهم ابن عباس فرجع منهم ألفان وبقي الآخرون على حالهم حينًا ، ثم دخلوا الكوفة ، فلما انقضت المدة في القضية وأراد علي توجيه أبي موسى أتاه حرقوص بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي في جماعة من الحرورية ، فقالوا: اتقِ الله وسر إلى عدوك وعدونا ، وتب إلى الله من الخطيئة ، وارجع عن القضية ، فقال علي : أما عدوكم فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم فتواكلتم ووهنتم وأصابكم ألم الجراح فجزعتم وعصيتموني، وأما القضية فليست بذنب ولكنها تقصير وعجز أتيتموه وأنا له كاره، وأنا استغفر الله من كل ذنب . فقال له زرعة: والله لئن لم تدع التحكيم في أمر الله لأجاهدنك ، فقال له علي: بؤسًا لك ماأشقاك ، كأني أنظر إليك غدًا صريعًا تسفي عليك الرياح، قال: وددتُ ذلك قد كان ، فانصرفوا وهم يظهرون التحكيم [(١)] ويدخلون الكوفة، فإذا صلى علي وخطب حكّموا ، فيقول علي: كلمة الحق يُعتزى بها باطل .

وبلغ يزيد بن عاصم المحاربي قول علي لزرعة بن البرج، فأتاه فقال: ياعلي أتخوفنا بالقتل، إنا لنرجو أن نضربكم بها عن قليل غير

---

(١) أي يقولون لاحكم إلا لله .

مصفحات (١) ، ثم تعلم أينا أولى بها صليًّا ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في دينك فإنها إدهان وذلّ (٢) .

وأخرج الإمام الطبري نحو ذلك في عدة أخبار، وقد جاء في خبر عبد الملك بن أبي حرة الحنفي أن عليا رضي الله عنه خرج ذات يوم يخطب، وإنه لفي خطبته إذ حكَّمت المحكِّمة (٣) في جوانب المسجد فقال علي : الله أكبر ، كلمه حق يراد بها باطل ، إن سكتوا غممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم، فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال: الحمد لله غير مودَّع ربُّنا ولامُستغنًى عنه، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدَّنيَّة في ديننا، فإن إعطاء الدنية في الدين إدهان في أمر الله عز وجل وذلٌّ راجع بأهله إلى سخط الله .

وفي خبر آخر عن كثير بن بهز الحضرمي، قال: قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجلٌ من جانب المسجد: لاحكم إلا لله، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يُحكِّمون ، فقال علي: الله أكبر ، كلمة حق يُلتمس بها باطل! أما إن لكم عندنا ثلاثًا ماصحبتمونا : لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولانمنعكم الفيءَ مادامت أيديكم مع أيدينا ، ولانقاتلكم حتى تبدءونا ، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته (٤) .

(١) يعني نضربكم بحد السيوف .
(٢) أنساب الأشراف ١٢٦/٣ - ١٣٠ .
(٣) يعني قال الخوارج لاحكم إلا لله .
(٤) تاريخ الطبري ٥/ ٦٤ - ٧٣ .

بعث ابن عباس لمحاورتهم :

هذا وقد أرسل إليهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ليجادلهم بالحكمة ويدعوهم بالتي هي أحسن ، وقد ورد الخبر عن ذلك من عدة طرق، منها ماأخرجه الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر أبي زُمَيل سماك الحنفي قال: حدثنا عبد الله بن عباس قال: لما اعتزلت الحرورية فكانوا في دارٍ على حدَتهم قلت لعليّ : ياأمير المؤمنين ! أبردْ عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القَوم فأُكلِّمهم ، قال: إني أتخوفهم عليك، قلت : كلاَّ إن شاء الله تعالى ، قال: فلبست أحسن ماأقدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، قال: فدخلت على قوم لم أرَ قوماً قطُّ أشدّ اجتهاداً منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، ووجوههم معلَّمة من آثار السجود، قال: فدخلت ، فقالوا: مرحبًا بك ياابن عباس ! ماجاء بك ؟ قلت : جئت أُحدِّثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ، عليهم نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لاتحدِّثوه ، وقال بعضهم : والله لنحدثنَّه ، قال : قلت: أخبروني ماتنقمون على ابن عمِّ رسول الله ﷺ وختنه، وأوَّل من آمن به ؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معه ؟ قالوا : نَنقم عليه ثلاثًا ، وقد قال: قلت: وماهُنَّ ؟ قالوا : أولهن أنَّه حكَّم الرجال في دين الله ، وقد قال الله : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [1] ، قال : قلت: وماذا ؟ قالوا :وقاتل ولَمْ يَسْبِ ، ولم يغنم ، لئن كانوا كفَّاراً لقد حلَّت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤُهم ، قال: قلت:

(١) سورة الأنعام الآية (٥٧) ، وسورة يوسف الآية (٤٠) والآية (٦٧) .

وماذا ؟ قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين ، قال : قلت : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحْكَم ، وحدَّثتكم من سُنَّة نبيه ﷺ مالا تنكرون، أترجعون ؟ قالوا: نعم ، قال : قلت : أمَّا قولكم : حكَّم الرجال في دين الله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ (١) وقال في المرأة وزوجها : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ (٢) أنشدكم الله أحُكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم ، وإصلاح ذات بينهم أحقٌّ أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟ قالوا : اللهم بل في حقن دمائهم ، وإصلاح ذات بينهم، قال: أخرجتُ من هذه ؟ قالوا :اللهم نعم ، قال : وأما قولكم : إنه قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم ، أتسْبُونَ أمَّكم عائشة ؟ أم تستحِلُّونَ منها ماتستحلُّون من غيرها، فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام ، إن الله يقول : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ (٣)فأنتم متردِّدُون بين ضلالتين ، فاختاروا أيتهما شئتم، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم ، قال: وأما قولكم : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ، فقال: اكتب : هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ،فقالوا:

---

(١) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٢) سورة النساء الآية (٣٥) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٦) .

والله لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت، ولاقاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقّا وإن كذَّبتموني . اكتب ياعليُّ ! محمد بن عبد الله ، فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه ، أخرجتُ من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم ، فرجع منهم عشرون ألفًا ، وبقي منهم أربعة آلاف، فقُتلوا[1].

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني رواه وأن الإمام أحمد روى بعضه قال: ورجالهما رجال الصحيح [2] .

وأخرجه الحافظ البيهقي وذكر نحوه وفيه : فرجع من القوم ألفان وقُتل سائرهم على ضلالة [3] .

وماجاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة والصواب ماجاء في الروايات الأخرى من أنهم كانوا أربعة آلاف ثم زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف على اختلاف الروايات .

جريمتهم بقتل المسلمين الآمنين :

أخرج البلاذري من خبر أبي مجلز : أن عليّا رضي الله عنه نهى أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثا .

قال: وكان الخوارج الذين قدموا من البصرة مع مسعر بن فدكي استعرضوا الناس في طريقهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأته على حمار له ، فدعوه وانتهروه ورعّبوه وقالوا له : من أنت ؟ فقال :

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١٠/١٥٧ - ١٦٠ رقم ١٨٦٧٨ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/٢٣٩ - ٢٤١ .

(٣) سنن البيهقي ٨/ ١٨٠ .

رجل مؤمن قالوا : فما اسمك ؟ قال: أنا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ . فكفوا عنه، ثم قالوا له: ماتقول في علي ؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين ،وإمام المسلمين، وقد حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ستكون فتنة يموت فيها قلب الرجل فيصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا » . فقالوا: والله لنقتلنك قتلة ماقُتلَها أحد ، وأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى مُتِمّ حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت رطبة منها فقذفها بعضهم في فيه ، فقال له رجل منهم : أبغير حلها ولاثمن لها؟ فألقاها من فيه واخترط سيفه وجعل يهزه فمرّ به خنزير لذمي فقتله بسيفه، فقال له بعض أصحابه : إن هذا لمن الفساد في الأرض. فطلب صاحب الخنزير حتى أرضاه، فقال ابن خباب : لئن كنتم صادقين فيما أرى وأسمع إني لآمن من شرّكم . قال: فجاؤوا به فأضجعوه على شفير نهر وألقوه على الخنزير المقتول فذبحوه عليه ، فصار دمه مثل الشراك قد امذقرّ [1] في الماء ، وأخذوا امرأته فبقروا بطنها وهي تقول: أما تتقون الله ؟ وقتلوا ثلاث نسوة كنّ معها .

فبلغ عليّا خبر ابن خباب وامرأته والنسوة، وخبر سواديٍّ لقوه بنفّر فقتلوه ، فبعث علي إليهم ابن الحارث بن مرّة العبدي ليتعرف حقيقة مابلغه عنهم ، فلما أتى النهروان وقرب منهم خرجوا إليه فقتلوه، وبلغ ذلك عليّا ومن معه، فقالوا له: ماتَرْكُنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا وعيالاتنا بما نكره ؟ سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم

(١) أي لم يختلط بالماء .

سرنا إلى عـدونا من أهل المغرب[١]، فإن هؤلاء أحضـر عداوة وأنكى حدّاً.

وقـال : وقـام الأشعث بـن قيس فكـلمه بمـثل ذلك فنادى عليّ بالرحيل [٢].

وقد أخرج الخطيب البغدادي خبر قـتلهم عبد الله بن خباب بنحو ذلك [٣].

وأخرج البلاذري من خبر حميد بن هلال عن رجل من عبدالقيس كان مع الخوارج ثم فارقهم قال: وأتى عليّ المدائن وقد قدمها قيس بن سعد بن عبادة ، وكان عليّ قدَّمـه إليها. ثم أتى عليّ النهروان فبعث إلى الخوارج : أن أسلموا لنا قتلة ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثم أنا تارككم إلى فراغي من أمر أهل المغرب فلعل الله يُقبل بقلوبكم ويردكم إلى ماهو خـير لكم وأملك بكم . فـبعثوا إليـه أنه ليس بيننا وبينك إلا السيف إلا أن تقرّ بالكفر وتتوب كـما تبنا فقال علي: أبَعْدَ جهادي مع رسول الله ﷺ وإيماني أشـهد على نفسي بالكفر؟ لـ ﴿ **قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ [٤] ثم قال :

يـاشـاهداً لله عـليّ فاشهد   آمـنـت بالـلـه وليِّي أحمد

من شك في الله فإني مهتد

---

(١) يعني أهل الشام ، وكانوا يسمون الشام المغرب .

(٢) أنساب الأشراف ١/ ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٢٠٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية (٥٦) .

وكتب إليهم : « أما بعد فإني أذكركم أنْ تكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا بعد أن أخذ الله ميثاقكم على الجماعة، وألف بين قلوبكم على الطاعة، وأن ﴿ **تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ (١). ودعاهم إلى تقوى الله والبرّ ومراجعة الحق، فكتب إليه ابن وهب الراسبي ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (٢) إن الله بعث محمدًا بالحق وتكفل له بالنصر كما بلغ رسالاته ، ثم توفاه إلى رحمته ، وقام بالأمر بعده أبو بكر بما قد شهدته وعاينته متمسكًا بدين الله مؤثرًا لرضاه حتى أتاه أمر ربه، فاستخلف عمر ، فكان من سيرته ماأنت عالم به ، لم تأخذه في الله لومة لائم ، وختم الله له بالشهادة، وكان من أمر عثمان ماكان حتى سار إليه قوم قتلوه لما آثر الهوى وغيّر حكم الله، ثم استخلفك الله على عباده فبايعك المؤمنون وكنت لذلك عندهم أهلاً ، لقرابتك بالرسول ، وقَدَمك في الإسلام ، ووردتَ صفين غير مداهن ولا وان، مبتذلاً نفسك في مرضاة ربك فلما حَميت الحرب وذهب الصالحون : عمار بن ياسر ، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وأشباههم اشتمل عليك من لافقه له في الدين ولارغبة في الجهاد، مثل الأشعث ابن قيس وأصحابه واستنزلوك حتى ركنت إلى الدنيا، حين رُفعت لك المصاحف مكيدة فتسارع إليهم الذين استنزلوك ، وكانت منا في ذلك هفوة ثم تداركنا الله منه برحمته ، فحكَّمتَ في كتاب الله وفي نفسك، فكنت في شك من دينك وضلال عدوك وبغيه عليك، كلا

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٥) .

(٢) سورة الرعد الآية (١١) .

واللـه يابن أبي طـالب ، ولكنـكم﴿ ظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَـوْمًـا بُورًا ﴾[1] وقلتَ لي قـرابة من الرسول وسـابقة في الدين فـلا يعدل الناس بي معـاوية، فالآن فتب إلى الله وأقرّ بذنبك ، فـإن تفعل نكن يدك على عدوك، وإن أبيت ذلك فالله يحكم بيننا وبينك .

قالوا : وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فناداهم فقال: ياعباد الله أخرجوا إلينا طِلبـتَنا وانهضوا إلى عدوكم وعدونا معًـا. فقال له: عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قـد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أبدًا أو تأتونا بمثل عمر . فقال: والله مانعلم على الأرض مثل عمر إلا أن يكون صـاحـبنا ، وقـال: لهم علي : « ياقـوم إنه قـد غلب عليكم اللجـاج والمراء واتَّبعـتم أهواءكم فطمح بكم تزيين الشـيطان لكم وأنا أنذركم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الغائط وأثناء هذا النهر » .

فلم يزل يعظهم ويدعـوهم فلما لم ير عندهم انقيـادًا - وكان في أربعة عشر ألفًا - عبّأ الناس فجعل على ميمنته حجر بن عدي الكندي وعلى مـيسـرته شبث بن ربعـي وعلى الخيل أبا أيوب خـالد بن زيد الأنصاري ، وعلى الرجـال أبا قتادة الأنصـاري- واسمه النعـمان بن ربعي بن بلدمـة الخـزرجي - وعلى أهل المدينة وهم سـبـعمـائة- أو ثمانمائة - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري .

ثم بسط لهم عليّ الأمـان ودعاهـم إلى الطاعة، فـقال فـروة بن نوفل الأشـجعي: والله مـاندري على مـانقاتل عليّـا ؟ فانصـرف في خمسمـائة فارس حتى نزل البندنيجين[2] والدسكرة، وخرجت طائفة

(١) سورة الفتح الآية (١٢) .

(٢) بلدة في طرف النهروان -معجم البلدان -.

منهم أخرى متفرقين إلى الكوفة، وأتى مسعر بن فدكي التميمي راية أبي أيوب الأنصاري في ألف، واعتزل عبد الله بن الحوساء - ويقال: ابن أبي الحوساء الطائي - في ثلاثمائة وخرج إلى عليّ منهم ثلاثمائة فأقاموا معه، وكانوا أربعة آلاف فارس ومعهم خلق من الرجّالة. واعتزل حوثرة بن وداع في ثلاثمائة، واعتزل أبو مريم السعدي في مائتين، واعتزل غيرهم، حتى صار مع ابن وهب الراسبي ألف وثمانمائة فارس، ورجالة يقال: إنهم ألف وخمسمائة.

وقال علي لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدأوكم. ونادى جمرة بن سنان: روحوا إلى الجنة، فقال ابن وهب: والله ماندري أنروح إلى الجنة أم إلى النار وتَنادَى الحرورية: الرواح إلى الجنة معاشر المخبتين وأصحاب البرانس المصلين، فَشَدُّوا على أصحاب عليّ شدة واحدة، فانفرقت خيل عليّ مُنفرقَين: فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرجالة فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل حتى كأنهم معزى تتقى المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض عليّ إليهم من القلب بالرماح والسيوف فما لبثوا أن أُهمدوا في ساعة (1).

خبر ذي الثُّدَيَّة ومعجزة لرسول الله ﷺ:

أخبر النبي ﷺ عن صفة الخوارج الذين يخرجون على جماعة المسلمين، وأخبر عن رجل فيهم في عضده مثل الثدي، وقد وُجد في

(1) أنساب الأشراف ١/ ١٤٤ - ١٤٧، وانظر تاريخ الطبري ٥/ ٨١ - ٨٧، البداية والنهاية ٧/ ٢٩٥ - ٢٩٨، الفتح الرباني ٢٣/ ١٥٤ - ١٥٩، تاريخ بغداد ١/ ٢٠٥.

هذه الفرقة من الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما أخبر عنه رسول الله ﷺ ، ومما جاء في خبره ماأخرجه الإمام مسلم من حديث سلمة بن كهيل : حدثني زيد ابن وهب الجهني ، أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه الذين ساروا إلى الخوارج . فقال علي رضي الله عنه : أيها الناس ! إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « يخرج قومٌ من أمتي يقرأون القرآن. ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء . ولاصلاتكم إلى صلاتهم بشيء . ولاصيامكم إلى صيامهم بشيء . يقرأون القرآن . يحسبون أنه لهم وهو عليهم . لاتجاوز صلاتهم تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية » . لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ، ماقُضي لهم على لسان نبيهم ﷺ ، لاتكلوا عن العمل. وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضدٌ . وليس له ذراعٌ . على رأس عضده مثل حلمة الثدي . عليه شعراتٌ بيضٌ . فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم ! والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام . وأغاروا في سرح الناس (١) . فسيروا على اسم الله .

قال سلمة بن كهيل : فنزلني زيد بن وهب منزلاً (٢). حتى قال:

---

(١) (وأغاروا في سرح الناس) السرح الماشية. أي أغاروا على مواشيهم التي ترعى .

(٢) (فنزلني زيد بن وهب منزلا) هكذا هو في معظم النسخ: منزلا، مرة واحدة. وفي نادر منها : منزلا منزلا ، مرتين . وهو وجه الكلام . أي ذكر لي مراحلهم بالجيش منزلا منزلا حتى بلغ القنطرة التي كان القتال عندها، وهذا هو الموافق لرواية عبد الرزاق من حديث سلمة بن كهيل نفسه - المصنف رقم ١٨٦٥٠ (١٠/١٤٧) .

مررنا على قـنطرة . فلما التقـينا وعلى الخوارج يومـئذ عـبد الله بن وهب الراسـبي . فقـال لهم : ألقـوا الرماح . وسُـلُّوا سيـوفكم من جـفونهـا . فإني أخـاف أن يناشـدوكم كمـا ناشدوكم يوم حـروراء . فرجعوا فوحـشُوا برماحهم (١) . وسلُّوا السـيوف . وشجـرهم الناس برماحهم (٢) . قال : وقتل بعضهم على بعض . وماأصيب من الناس يومئذ إلا رجلان . فقال عليٌّ رضي الله عنه : التمسوا فيهم المُخدج . فالتمسوه فلم يجدوه . فـقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناسًا قـد قتل بعـضـهم على بعض . قـال : أخروهم . فـوجـدوه مما يلي الأرض . فكبَّر . ثم قـال : صدق الله . وبلغ رسـوله . قال : فـقام إليه عبـيدة السلماني . فقال : ياأمـير المؤمنين ألله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال : إي . والله الذي لا إله إلا هو ! حتى استحلفه ثلاثًا (٣) . وهو يحلف له .

وأخرج الإمـام مسلم أيضا من حـديث عبيـد الله بن أبي رافع ، مولى رسول الله ﷺ ، أن الحرورية لما خرجت ، وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قـالوا : لاحُكم إلا لله . قال عليٌّ : كـلمة حق أريد بهـا باطلٌ . إن رسول الله ﷺ وصف ناسًـا ، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء ، « يقولون الحق بألسنتهم لايجوز هذا منهم « وأشار

(١) (فوحشوا برماحهم) أي رموا بها عن بعد منهم .

(٢) (وشجرهم الناس برماحهم) أي مدوها إليهم وطاعنوهم بها .

(٣) (حتى استحلفـه ثلاثا) قال الإمام النووي : وإنما استحلفه ليُسـمع الحاضرين ويؤكد ذلك عندهم ويظهـر لهم المعجزة التي أخبر بهـا رسول الله ﷺ ويظهر لـهم أن عليا وأصحابه أولى الطائفين بالحق ، وأنهم محقون في قتالهم .

إلى حلقه » مِنْ أبغض خلق الله إليه منهم أسودُ إحدى يديه طبى شاة[1]أو حلمة ثدي » . فلما قتلهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : انظروا . فنظروا فلم يجدوا شيئا . فقال : ارجعوا . فو الله! ماكذبت ولاكُذبت . مرتين أو ثلاثا . ثم وجدوهُ في خربة . فأتوا به حتى وضعوه بين يديه . قال عبيد الله : وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليٍّ فيهم .

زاد يونس في روايته : قال بُكيرٌ : وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال : رأيتُ ذلك الأسود .

كما أخرج أيضا من حديث عبيدة السلماني ، عن علي رضي الله عنه قال : ذكر الخوارج فقال : فيهم رجل مخدج اليد ، أو مُودَنُ اليد [2]، لولا أن تبطرُوا [3] لحدَّثتُكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ . قال قلتُ : آنتَ سمعته من محمد ﷺ ؟ قال : إي . وربِّ الكعبة ! إي . وَرَبِّ الكعبة ! إي . وَرَبِّ الكعبة[4] .

وأخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر عبد الملك بن أبي حرة ، أن عليّا خرج في طلب ذي الثُّدية ومعه سليمان بن ثُمامة الحنفي أبو جبرة ، والريان بن صبرة ابن هوذة ، فوجده الريان بن

---

(١) (إحدى يديه طبي شاة) المراد به ضرع الشاة . وهو فيها مجاز واستعارة . وإنما أصله للكلبة والسباع .

(٢) (مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد) مخدج اليد أي ناقص اليد . ومودن اليد ناقص اليد . ومثدون اليد صغير اليد مجتمعها .

(٣) (لولا أن تبطروا) البطر هنا : التجبر والغرور .

(٤) صحيح مسلم رقم ١٠٦٦ ، الزكاة (ص ٧٤٧ - ٧٤٩) .

صبـرة بن هوذة في حفـرة على شاطئ النـهر في أربعين أو خـمسين قتيـلاً. قال: فلما استخـرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مـجتمع على منكبه كثدي المرأة ، له حلمة عليها شـعرات سود ، فإذا مُدّت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما استخرج قال عليّ: الله أكبر !والله ماكذبتُ ولاكُذبت ، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيهﷺ لمن قاتلهم مستبصرًا في قـتالهم، عارفًا للحق الذي نحن عليه. قال : ثم مرَّ وهم صرعى فقال: بؤسًا لكم ! لقد ضركم من غركم ، فقالوا: ياأمير المؤمنين ، من غرهم ؟ قال: الشيطان ، وأنفسٌ بالسوء أمّارة ، غرّتهم بالأماني، وزينت لهم المعـاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون . قال: وطُلب من به رمق منهم فوجـدناهم أربعمائة رجل ، فـأمر بهم عليّ فدُفعوا إلى عشائرهم ، وقـال: احملوهم معكم فداووُهم ، فإذا برئوا فوافُوا بهم الكوفة، وخذوا مافي عسكرهم من شيء .

قال: وأما السلاح والدواب وماشهدوا به عـليه الحرب فقسَّمه بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم ردّه على أهله (١).

معجزة أخرى لرسول الله ﷺ :

أخرج الإمام أحمد من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال: كنا عند رسول الله ﷺ فـقال : فـيكم من يقـاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله (٢) .

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٨٨ .

(٢) المسند ٣/ ٣١ .

يعني فكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قاتل مخالفيه على تأويل القرآن كما قاتل الكفار على تنزيله ، فوقع بذلك ماأخبر به النبي ﷺ .

حكم علي رضي الله عنه عليهم :

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر الإمام الحسن البصري قال: لما قتل علي رضي الله عنه الحرورِيَّة ، قالوا : من هؤلاء ياأمير المؤمنين ؟ أكفارٌ هم ؟ قال: من الكفر فرُّوا ، قيل : فمنافقون ؟ قال: إنَّ المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، قيل: فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصمُّوا (١) .

مثل من ورع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

أخرج الإمام الطبري من خبر المحل بن خليفة : أن رجلا منهم من بني سدوس يقال له العيزار بن الأخنس كان يرى رأي الخوارج، خرج إليهم ، فاستقبل وراء المدائن عدي بن حاتم ومعه الأسود بن قيس والأسود بن يزيد المراديان ، فقال له العيزار حين استقبله : أسالمٌ غانم ، أم ظالمٌ آثم ؟ فقال عديّ : لا ، بل سالمٌ غانم ، فقال له المراديان : ماقلت هذا إلا لشرّ في نفسك، وإنك لنعرفك ياعيزار برأي القوم ، فلا تفارقنا حتى نذهب بك إلى أمير المؤمنين فنخبره خبرك. فلم يكن بأوشك أن جاء علي فأخبراه خبره، وقالا : ياأمير المؤمنين ، إنه يرى رأي القوم ، قد عرفناه بذلك ، فقال: مايحل لنا دمه ، ولكنا نحبسه ، فقال عدي بن حاتم : ياأمير المؤمنين ، ادفعه

---

(١) مصنف عبد الرزاق ، رقم ١٨٦٥٦ (١٠/ ١٥٠) .

إليّ وأنا أضمن ألا يأتيك من قبله مكروه . فدفعه إليه [1] .

وهكذا ابتلي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأول حركة قتالية يقوم بها الخوارج ، فكان ذلك من الخير للأمة الإسلامية، حيث سار في معاملتهم قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها على توجيهات النبي ﷺ ، فكان بذلك أول قائد يطبق منهج الإسلام في قتال الخوارج .

وقد تبين لنا من صفاتهم في هذه الأخبار زيادة على ماجاء في وصفهم في الأحاديث النبوية التي مرَّ ذكرها، أنهم يتأولون آيات الله تعالى التي نزلت في الكفار على غير وجهها، حيث يطبقونها على مخالفيهم من المسلمين ، وفي ذلك يقول الإمام البخاري وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله ، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين [2] .

ومن ذلك أنهم يتسرَّعون في تكفير المسلمين، فيحكمون بالكفر على من وقع في الخطإ في نظرهم، وبالتالي فإنهم يرون وجوب قتال المسلمين الذين لايظهرون التوبة من الذنب، و إن كان هؤلاء المسلمون لايرون ذلك ذنبا .

هذا ولقد كانت لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه في مواجهة تلك المحنة مواقف جهادية وأخلاقية عالية فمن ذلك أنه تحمل خلافهم وردودهم القاسية واعتراضاتهم الجافية، وأنه وعدهم بأنه لن يؤاخذهم

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٨٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين باب/ ٦ (١٢/ ٢٨٢) .

بكلامهم مالم يسفكوا دما أو ينتهبوا مالا ، وقد وفى لهم بذلك بالرغم من أنهم اتهموه بالشرك والكفر والمداهنة في أمر الله تعالى واعترضوا عليه وهو يخطب ، فلم يأخذهم بقتل ولابسجن ولابتعذيب، وهذا يعتبر من أروع أمثلة العدل والسماحة والحكمة .

لقد أعطاهم أمير المؤمنين رضي الله عنه الحرية الكاملة والفرصة التامة للتعبير عن آرائهم ، وجادلهم في شبهاتهم - بالتي هي أحسن- بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، فلما أفحمهم ولم يجدوا مجالا للكلام ورأوا أن جدالهم لايكسبهم أنصارا، وأن عددهم صار يقل يوما بعد يوم بسبب انقياد عقلائهم للبراهين التي احتج بها عليهم علي وابن عباس رضي الله عنهم ومن ناشدوهم من قادة المسلمين . . لما رأو ذلك لجؤوا إلى الحرب فاعتدوا على الآمنين ، وسفكوا الدماء المحرمة ، فحلَّ بذلك قتالهم وزالت حرمة دمائهم .

لقد كان الوضع السياسي في ذلك العهد مستقيما عادلا، حيث كانت الكلمة للحجة والبرهان ، لا للسيف والسنان، فكان أولئك الخوارج يتكلمون كيف شاؤوا ، ويجتمعون كيف شاؤوا ، ويجادلون بقوة وجرأة ، ولكنهم لم يكونوا أهلا للعدالة، لأنهم لم يحترموا منطق العقل السليم، ولم يقتصروا على التعبير بألسنتهم ، ولكنهم لجؤوا إلى التعبير بقوة سلاحهم ، بغيًا وغرورًا وعدوانا، فقضوا على أنفسهم بأنفسهم ، وأبادوا بجهلهم جزءًا كبيرًا من الأمة، وغُطِّيت بسبب رعونتهم أرض المعركة بأجساد أبطال لو وجهوا إلى أعداء الإسلام لكانت لهم فيهم نكاية كبيرة .

ولقد كانت الفرصة أمامهم متاحة حتى اللحظات الأخيرة، حينما

قل عددهم وواجهوا جيشا أضعاف عددهم، حيث كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم ينقطع عن مناشدتهم في العودة إلى الصف، وكانوا يعلمون صدقه في ذلك، ولكن قادتهم لما خشوا من تراجع بعض جنودهم أمروهم بالهجوم السريع، فكان هجومهم انتحاريًا حيث قُتلوا أو جُرحوا جميعًا ولم يفلت منهم أحد .

ولقد طبق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه سنة الإسلام في قتال البغاة من المسلمين ، حيث أمر جنوده أن لايجهزوا على جرحاهم، وأن لايتبعوا مدبرهم ، وأن لايسبوا نساءهم ولاذراريهم، وأمر بحمل الجرحى وعلاجهم ، ثم إيصالهم إلى أهاليهم .

وقوله ﷺ « يمرقون من الدين » هل هو دليل على كفر الخوارج؟ ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى أقوال عدد من العلماء حكموا بكفر الخوارج لظاهر هذا الحديث، ولقوله « لأقتلنهم قتل عاد » وفي لفظ « ثمود » وكل منهما إنما هلك على الكفر ، ولقوله « هم شر الخلق » وقوله « إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى» ولتكفيرهم أعلام الصحابة رضي الله عنهم وفيهم من شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ثم ذكر أن أكثر أهل الأصول من أهل السنة على أن الخوارج فساق ، وأن حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام ، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد ، وجرّهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك (١) .

---

(١) فتح الباري ١٢/٢٩٩ - ٣٠٠ .

ومن العلماء الذين حكموا بعدم كفرهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : وأصحاب الرسول ﷺ - علي بن أبي طالب وغيره- لم يكفّروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ماخرجوا عليه وتحيزوا بحروراء، وخرجوا عن الطاعة والجماعة ، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن لكم علينا أن لانمنعكم مساجدنا، ولاحقكم من الفئ . ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ، ثم قاتل الباقي وغلبهم ، ومع هذا لم يسب لهم ذرية، ولاغنم لهم مالا ، ولاسار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين، كمسيلمة الكذّاب وأمثاله ، بل كانت سيرة عليّ والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة، ولم ينكر أحد على عليّ ذلك، فعُلم اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام .

قال: وقال الإمام محمد بن نصر المروزي : « وقد ولي عليّ رضي الله عنه قتال أهل البغي، وروى عن النبي ﷺ فيهم ماروى، وسمّاهم مؤمنين، وحكم فيهم بأحكام المؤمنين. وكذلك عمار بن ياسر ».

وقال محمد بن نصر أيضا : « حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا يحيى بن آدم ، عن مفضل بن مهلهل ، عن الشيباني ، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: « كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان ، فقيل له : أمشركون هم ؟ قال: من الشرك فرّوا. فقيل : فمنافقون ؟ قال: المنافقون لايذكرون الله إلا قليلا . قيل : فما هم ؟ قال : قوم بغوا علينا فقاتلناهم » [1] .

---

(١) منهاج السنة النبوية ٥/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

وواضح أن القول بعدم تكفيـر الخوارج أصوب لأن ذلك هو قول أمـير المؤمنين علي بن أبي طالـب رضي الله عنه وقد أقـره الصحـابة رضي الله عنهم على ذلك ولـم يُنقل عنهم خلافـه ، والصحـابة هم أعلم المسلمين بتأويل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

* * *

الخوارج في عهد بني أمية

لقد كثر خروج الخوارج في المشرق والمغرب في عهد بني أمية وماتخلل ذلك من إمامة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وسأكتفي بذكر أمثلة مما جرى من الخوارج في المشرق في عهد معاوية ابن أبي سفيان وعهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم لأنهما من أئمة الهدى ولأنهما صحابيان جليلان ، كما سأذكر مثالا مما جرى من الخوارج في المغرب لأهميته في حماية المسلمين من شر أولئك الخوارج.

ثورة فروة الأشجعي وأصحابه :

كانت فرقة من الخوارج قد اعتزلت بشهرزور أيام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وكانوا خمسمائة مع فروة بن نوفل الأشجعي، فلما استشهد علي رضي الله عنه خرجوا وهزموا جيش الشام الذي أرسل إليهم فقال معاوية لأهل الكوفة : لاأمان لكم عندي حتى تكفُّوا بوائقكم ، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم فقتلوهم . وذلك في سنة إحدى وأربعين (١) .

وكون أهل الكوفة خرجوا لقتال أبناء قبائلهم دليل على أن النقمة على الخوارج كانت لدى المسلمين عامة ، وذلك لشذوذهم وسوء معتقدهم ، حيث يعتقدون كفر من خالفهم، ويستحلون دماءهم وأموالهم، ويتبرؤون ممن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة كعثمان وعلي رضي الله عنهما .

(١) تاريخ الطبري باختصار ٥/ ١٦٥ - ١٦٦ .

ثورة المستورد التيمي وأصحابه :

وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت فرقة منهم بقيادة المستورد بن علّفة التيمي ، وكانوا يجتمعون سرّا في الكوفة، فعلم بهم أميرها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فقام في الناس خطيبا وأنذر رؤساء العشائر ، وحذر من إيوائهم ، فنادى رؤساء العشائر أقوامهم وحذروهم من إيواء الخوارج ، فلما علم بذلك هؤلاء الخوارج تسللوا خفية وخرجوا من الكوفة وتوجهوا نحو « سور » وتجمعوا من أنحاء البلاد حتى اكتمل عددهم ثلاثمائة فساروا نحو « الصراة » .

ثم إن المغيرة بن شعبة علم بهم فعقد جيشا لقتالهم بقيادة معقل ابن قيس الرياحي وجهز معه ثلاثة آلاف رجل .

وسار الخوارج حتى مروا بالمدائن فمنعهم أميرها سماك بن عبيد من دخولها ، وعلم أمير الخوارج المستورد بخروج معقل بن قيس من الكوفة على أثرهم فأشار على أصحابه بالرحيل حتى يتقطع جيش الكوفة في ملاحقتهم .

وعلم بذلك معقل بن قيس بعدما وصل المدائن فأمر أصحابه بعدم ملاحقتهم حتى يُفَوِّت عليهم هذه الفرصة، وقدَّم بين يديه مقدمة بقيادة أبي الروّاغ الشاكري في ثلاثمائة فارس، فلحق بهم في « المذار» فأمر المستورد أصحابه بالهجوم عليهم وإبادتهم قبل وصول الجيش، فهجموا عليهم فانهزم أكثر أصحاب أبي الرواغ وثبت هو وقليل من جيشه، ثم أصبح يراوغهم بين الكر والفر حتى يَقْدم معقل بن قيس.

وعلم معقل بما جرى فأسرع في سبعمائة من أهل النجدة حتى

وصلوا إلى أبي الرواغ ، فهجم عليهم الخوارج وانهزم أكثر أهل الكوفة ، وثبت معقل ونزل وقال: الأرض الأرض ياأهل الإسلام، ونزل معه أبو الروَّاغ الشاكري وثبت معهم نحو مائتين من أهل النجدة والحفاظ ، فلما غشيهم المستورد وأصحابه استقبلوهم بالرماح والسيوف، ثم فاء أهل الكوفة بعد أن ناداهم مسكين بن عامر، فشدوا على الخوارج حتى هزموهم .

وعلم المستورد أن جيشا آخر قد خرج من البصرة بقيادة شريك بن الأعور وكان قد أرسله أميرها عبد الله بن عامر مددا لإخوانهم من أهل الكوفة ، فقرر الخوارج الفرار حتى لايقعوا بين الجيشين فانسحبوا إلى « جرجيا » .

وعلم بذلك معقل فقرر ملاحقتهم وقدم أمامه أبا الروَّاغ الشاكري في ستمائة من أصحابه ، أما جيش البصرة فإنهم رجعوا لشعورهم بعدم الحاجة إليهم واحتياج مناطق أخرى لجهادهم .

ولحق أبو الرواغ بالخوارج وجرت بين جيشه وجيش الخوارج مناوشات ، ولما رأى أمير الخوارج ثبات أبي الرواغ وجيشه قرر مباغتة جيش معقل ، فانسحب بجيشه نحوهم وهجموا عليهم فانهزم أكثر جيش الكوفة وثبت معقل في طائفة من أصحابه، وعلم أبو الرواغ بذلك من فلول المنهزمين فأسرع في أصحابه نحو معقل فوجدهم يقاتلون الخوارج قتالا شديدًا فشدوا عليهم مع من ثبت من جيش الكوفة مع معقل ، ونادى أمير الخوارج أصحابه بالنزول إلى الأرض وتركوا الخيل ونزل أصحاب معقل أيضا والتحموا بالسيوف في معركة

حاميـة ، ونادى المستورد معـقلا إلى البراز ، فبرز له فطـعنه المستورد برمحه وضربه معقل بسيفه فماتا جميعا ، وظل الخوارج يقاتلون حتى قُتلوا جميعا ماعدا عبـد الله بن عقبة الغنوي الذي أصبح يخبر عنهم، وقد قُتل بعد ذلك في موقعة دير الجماجم [1] .

في هذا الخبر مواقف لبعض قادة المسلمين وأمرائهم ، فمن ذلك:

١ - موقف لأمير الكوفة المغيـرة بن شعبة رضي الله عنه، حيث كان يقظا حذرا عارفا بما يُجرى تحت دائرة إمـارته، فقد عرف باجتماع أولئك الخوارج في أحد بيوت الكوفة ، ثم علم بهم لما خرجوا، ولقد كان حـازما حينما وجـه لهم ذلك الجيش واختـار له القائد الكفء ، فنجح في القضـاء عليهم وهم مـازالوا في أول أمرهم قبل أن تنتـشر دعوتهم ويكثر أنصارهم .

٢ - مواقف جـهادية عاليـة لقائد جيـش الكوفة معـقل بن قيس الرياحي، فهو **أولاً** قد علم بخطة الخوارج حـينما انسحبـوا ولم يقفوا للقتـال مع ما اشتـهروا به من الإقدام والـثبات ، ثم تصـرف بحكمة حينما لم يلاحقهم وبعث مقدمة تتعرف على أحوالهم .

وثانيًا : أنه قد ثبت في معـركتين حينما فرَّ أكثر جـيشه وبقي في قلة من جنوده حـتى فـاء بقيـة الجيش ، وهذا دليـل على شجـاعتـه وتضحيته في سبيل دينه وإخوانه المسلمين .

وثالثًا : أنه أقدم على مـبارزة أميـر الخوارج المستورد مع مـاعرف عن الخـوارج من الإقدام والثـبات، ومع مـاحصل على الخـوارج من

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٨١ - ٢٠٩ باختصار .

بوادر الهزيمة والاستئصال ، وماظهر من انتصار جيش معقل، فكان المستورد على هيئة المستميت لأن أغلب أحواله القتل، أما معقل فكان أغلب مايترجح عنده الحياة لإدبار ريح أعدائه وكثرة من يحميه من حوله، ومع ذلك أقدم على المبارزة رجاء الحصول على الشهادة التي هي أسمى أماني المسلمين .

٣ - مواقف جهادية لقائد المقدمة أبي الروَّاغ الشاكري، حيث ثبت للخوارج في أول معركة وهو في المقدمة فقط ، ولما علم بأن جنوده لايستطيعون الثبات للخوارج صار يهجم ثم يحجم ويقرب ثم يبعد، لأنه لايريد أن يلتحم معهم التحاما كاملا فينهزم جيشه ، ولايريد أن ينسحب منهم لأن الانسحاب انهزام، وذلك يعطي الأعداء قوة وجرأة على القتال، حتى قدم عليهم معقل بن قيس ببقية الجيش.

وحينما انهزم جيش الكوفة وثبت قائدهم معقل بقلة من الجيش ثبت معه أبو الرواغ حتى فاء أهل الكوفة بعد ذلك.

وحينما غيَّر الخوارج خطتهم فانسحبوا عنه ليباغتوا معقلا وجيشه وعلم بذلك أبو الروَّاغ سارع لنجدتهم فوصل في الوقت المناسب، حيث اجتمع أفراد الجيش كلهم في قتال الخوارج حتى استأصلوهم ، فهذه المواقف تدل على أن أبالروَّاغ بطل مغوار وقائد محنك .

وهكذا انتهت حياة ثلاثمائة من المسلمين على هذا الوضع السيء مع مااشتهروا به من الصلاح والعبادة ، فكم يفقد المسلمون من الأبطال المغاوير بسبب سوء المعتقد واتباع الهوى ، وتحويل الطاقة القتالية إلى جسم أمتهم !!

خبر الخوارج مع ابن الزبير :

أخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي المخارق الراسبيّ ، قال: لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ماركب، وقد كان قبل ذلك لايكفّ عنهم ولايستبقيهم غير أنه بعد قتل أبي بلال تجرّد لاستئصالهم وهلاكهم ، واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة، وسار إليه أهل الشام ، فتذاكروا ماأتى إليهم ، فقال لهم نافع بن الأزرق : إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدا والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت مااستطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا. فخرجوا حتى قدموا على عبد الله ابن الزبير ، فسر بمقدمهم ، ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف و لاتفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة. ثم إن القوم لقي بعضهم بعضا ، فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس لغير رأي ولاصواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادي : يالَ ثارات عثمان ! فأتوه وسلوه عن عثمان ، فإن برئ منه كان وليكم ، وإن أبى كان عدوكم فمشوا نحوه فقالوا له : أيها الإنسان ، إنا قد قاتلنا معك، ولم نُفتشك عن رأيك حتى نعلم أمنا أنت أم من عدونا ! خبرنا مامقالتك في عثمان ؟ فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليلٌ ، فقال لهم: إنكم أتيتموني فصادفتموني حين أردت القيام ،ولكن رُوحوا إلى

العشية حتى أعلمكم من ذلك الذي تريدون. فانصرفوا ، وبعث إلى أصحابه فقال : البسوا السلاح ، واحضروني بأجمعكم العشية، ففعلوا ، وجاءت الخوارج ، وقد أقام أصحابه حوله سماطين عليهم السلاح ، وقامت جماعةٌ منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة، فقال ابن الأزرق لأصحابه : خشي الرجل غائلتكم ، وقد أزمع بخلافكم واستعدّ لكم ، ماترون ؟

فدنا منه ابن الأزرق ، فقال له : يابن الزبير، اتق الله ربك، وأبغض الخائن المستأثر ، وعاد أول من سن الضلالة ، وأحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب، فإنك إن تفعل ذلك تُرض ربك، وتُنج من العذاب الأليم نفسك، وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم ، وأذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم .

ياعبيدة بنّ هلال ، صف لهذا الإنسان ومن معه أمرنا الذي نحن عليه، والذي ندعو الناس إليه ، فتقدم عبيدة بن هلال ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ، فإن الله بعث محمدًا ﷺ يدعو إلى عبادة الله ، وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك، فأجابه المسلمون، فعمل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عمل بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين . ثم إنّ الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وآثر القُربى ، واستعمل الفتى ورفع الدِّرة ، ووضع السوط ، ومزّق الكتاب، وحقر المسلم وضرب منكري الجور، وآوى طريد الرسول ﷺ ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيرهم وحرمهم ، ثم أخذ فئ الله الذي أفاءه

عليهم فقسمه بين فساق قريش ، ومُجّان العرب، فسارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته، لايبالون في الله لومة لائم، فقتلوه ، فنحن لهم أولياءُ ، ومن ابن عفان وأوليائه بُرآء، فما تقول أنت يابن الزبير ؟ قال: فحمد الله ابن الزبير وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ، فقد فهمتُ الذي ذكرتم ، وذكرت به النبي ﷺ ، فهو كما قلت ﷺ وفوق ماوصفته ، وفهمت ماذكرت به أبا بكر وعمر، وقد وفقت وأصبت ، وقد فهمتُ الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني ، كنتُ معه حيث نقم القوم عليه، واستعتبوه فلم يدع شيئا استعتبه القوم فيه إلا أعتبهم منه. ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم ، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم: ماكتبتُه ، فإن شئتم فهاتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفتُ لكم، فو الله ماجاءوه ببينة ، ولا استحلفوه. ووثبوا عليه فقتلوه، وقد سمعت ماعبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أني وليٌّ لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه ، وعدوّ أعدائه ، قالوا : فبرئ اللهُ منك ياعدوّ الله، قال: فبرئ الله منكم أعداء الله (١) .

تفرق الخوارج إلى فرق :

بعد محاورة الخوارج مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما تفرقوا ، فذهبت فرقة منهم إلى اليمامة واجتمعوا على نجدة بن عامر

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٥٦٤ - ٥٦٦ .

الحنفي، أما أهل البصـرة فإنهم انقسموا إلى ثلاث فرق، فـرقة تبعت نافع بن الأزرق الحنظلي وهي أقوى الفـرق، وفرقة تبعـوا عبد الله بن صفار السعدي ، وفرقة تبعوا عـبد الله بن إباض ، وكان مخالفا لبقية الخوارج ، حيث كان يرى أن كفر المخالفين من المسلمين كفر نعمة وأنه لايجوز قتالهم ، وإليه تنسب فرقة الإباضية المشهورة .

مواقف أهل البصرة في قتال الأزارقة :

الأزارقـة هم فـرقة من الخـوارج ينتـسـبـون إلى نافع بن الأزرق الحنظلي، وأهم ماجاؤوا به من البدع في الدين أنهم كـفروا مخالفيهم من المسلمين وأباحـوا دماءهم وأمـوالهم ، وأنهم أباحـوا قتل أطفـال المخـالفين لهم من المسلمين ونسـاءهم ، وأنهم كفَّـروا القاعـدين عن القتال معهم ومن لم يهاجر إليهم وإن كانوا من الخوارج (1) .

وقد اشتدت شوكة الأزارقة بقـيادة نافع بن الأزرق بسبب اشتغال أهل البصرة بالاخـتلاف الذي كان بين قبائلهم، وكـانت دولة الخلافة غيـر مسـتقرة ، حـيث كان النزاع بين عـبد الله بن الزبيـر رضي الله عنهما وبني أمية ، وكان أهل البصـرة قد اختاروا عبد الله بن الحارث الهاشـمي أميرا عليهم ، فـبعث إلى الخوارج جـيشا بقيـادة مسلم بن عبيس القرشي في أهل البصرة ، فاقتتلوا قتالا لم يُرَ مثله ، وقُتل أمير أهل البصرة عبد الله بن الحارث وقُتل رأس الخوارج نافع بن الأزرق ، وأمَّر أهل البصـرة عليهم الحجاج بن باب الحميـري، وأمَّرت الأزارقة عليهم عبد الله بن الماحوز، ثم عادوا فاقتـتلوا أشد قتال فقُتل الحجاج

(1) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٢٠ .

ابن باب الحميري وقُتل عبد الله بن الماحوز ، ثم إن أهل البصرة أمَّروا عليهم ربيعة بن الأجذم التميمي ، وأمَّرت الخوارج عليهم عبيد الله اصبن الماحوز ، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا، وقد كره بعضهم بعضا وملُّوا القتال، فإنهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارجَ سريةٌ لهم جامَّة لم تكن شهدت القتال، فحملت على الناس من قِبَل عبد القيس فانهزم الناس، وقاتل أمير أهل البصرة ربيعة الأجذم فقُتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر، فقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه، فقاتل من وراء الناس في حماتهم وأهل الصبر منهم ، ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز (١) .

المُهَلَّب بن أبي صفرة والأزارقة :

تولى إمرة البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي من قِبَل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فاتفق الحارث مع أشراف أهل البصرة على تولية المهلب بن أبي صفرة الأزدي قتال الخوارج، وكان ذلك بإشارة من الأحنف بن قيس التميمي ، وذلك في عام خمسة وستين .

وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسر الأصفر عليهم عبيد الله ابن الماحوز ، فخرج إليهم المهلب في أشراف الناس وفرسانهم فحازهم عن الجسر ودفعهم عن البصرة وقد كادوا أن يدخلوها، ثم لم يزل يلاحقهم وهم ينحازون عنه حتى وصلوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له « سِلَّى وسِلَّبْرَى » فأقاموا به .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٦١٣ - ٦١٤ باختصار .

ولما بلغ حارثة بن بدر الغداني أن المهلب قد أُمِّر على قتال الأزارقة قال لمن معه من الناس :

كَرْنِبوا ودَوْلِبوا (١) وحيث شئتم فاذهبوا

قد أُمِّر المهلَّب

فأقبل بمن كان معه نحو البصرة فصرفهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة إلى المهلب .

ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه، ووضع الجواسيس والحراس والمسالح الذين يحملون السلاح بالتناوب لصد الأعداء إذا أتوا على غِرَّة ، فكان الخوارج إذا أرادوا الهجوم ليلا وجدوا أمرا محكما فرجعوا، فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم من المهلب .

فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب لقتال الخوارج، وكان الخوارج أفضل من أهل البصرة من ناحية السلاح ، وذلك لأنهم قد أغاروا على بلاد فارس ، فانتقوا أفضل السلاح وأجود الخيول ، فالتقى الناس فاقتتلوا كأشد القتال وصبر بعضهم لبعض ، ثم إن الخوارج شدوا شدة منكرة فانهزم بعض أهل البصرة وأسرع المهلب فانحاز في مكان على غير طريق المنهزمين، ثم نادى الناس: إليَّ عباد الله ، فثاب إليه بعضهم واجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الله تعالى ربما يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ،

(١) الأمر موجه للخوارج وهو للتحدي، أي تقلبوا حيث شئتم واجمعوا من شئتم .

ولعمـري مابكم الآن من قلة ، إني لجمـاعتكم لَراضٍ ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفـرسان أهل المصر، وماأحب أن أحدًا ممن انهـزم معهم، فإنهـم لو كانوا فيـكم مازادوكم إلا خـبالا ، عزمت علـى كل امرئ منكم لَمَا أخذ عشرة أحجار مـعه، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم فإنهم الآن آمنون، وقـد خرجت خـيلهم في طلب إخوانكم ، فـو الله إني لأرجو أن لاترجع إلـيهم خيلهم حـتى تستـبيـحوا عسكرهم وتـقتلوا أميرهم، ففعلوا ، ثم أقبل بهم راجـعا ، فلا والله ماشعُرَت الخوارج إلا بالمهلب يضـاربهم بالمسلمين في جـانب عسكرهم، ثم اسـتقـبلوا عبيدالله بن الماحوز وأصحابه وعـليهم الدروع والسلاح كاملا ، فأخذ الرجل من أصحـاب المهلب يستقبل الرجل منهم فـيستعـرض وجهه بالحجـارة فيرمـيه حتى يثخنـه، ثم يطعنه بعد ذلك برمحـه أو يضربه بسيفه، فلم يقاتلهم إلا ساعة حتى قُتل عبيد الله بن الماحوز، وضرب الله وجوه أصحابه، وأخذ المهلب عسكر القـوم ومافيه، وقُتل الأزارقة قتلا ذريعًا .

وأقبل من كان في طلب أهل البصـرة منهم راجعا وقد وضع لهم المهلب خيلا ورجالا في الطريق تختطفـهم وتقتلهم، فانكفؤوا راجعين مفلولين محروبين مغلوبين (١) .

ففي هذا الخبر مـواقف جهادية عالية لهؤلاء المجـاهدين، وخاصة قائدهم المهلب بن أبي صـفرة الأزدي ، حيث قاتلوا الخـوارج وقضوا على فتنة تلك الطائفة منهم وأراحوا المسلمين من شرهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٦١٦ - ٦١٩ .

ولقد ظهرت في هذا الجهاد مواهب المهلب القيادية ، فمن ذلك تخطيطه الجيد لحماية جيشه في الليل ، وذلك بعمل الخندق على المعسكر ووضع الحراس وبث الجواسيس وإعداد الحماة الذين يحملون سلاحهم بالتناوب لصد أي هجوم ليلي من الخوارج .

ومن ذلك تصرفه الحكيم حينما انهزم بعض جيشه ، حيث انحاز في مكان آمن ، ونادى من ثبتوا من جيشه، ثم هجم بهم على معسكر الخوارج بشكل مباغت، فكسب بذلك المعركة بعد أن حقق الخوارج انتصارًا كبيرًا ، وقد كانت كثير من المواجهات السابقة تنتهي بانتصار الخوارج ، ولكن هذا التصرف الحربي البارع من المهلب أحال انتصار الخوارج إلى هزيمة ساحقة عليهم وانتصار حاسم لجيش المهلب .

ولقد كان لابتكاره سلاح الحجارة أثر واضح في إرباك الأعداء ، لأنه قد خطط لالتحامهم وجهًا لوجه معهم ، فلن يكون هناك إمكانية لاستعمال سلاح النبال ، فكان وقع الحجر على الوجه مربكا لمن وقع عليه ، وفي تلك الحال يكون الهجوم بالرماح أو بالسيوف حسب بُعْد العدو أو قربه .

كما أنه قد أمَّن جيشه المهاجم من الخلف حيث وضع فرسانا يواجهون فرسان العدو العائدين من المطاردة ، وكل تلك الترتيبات الحربية تدل على براعة المهلب بن أبي صفرة في التخطيط الحربي .

مثل من فتنة الخوارج في المغرب :

قال الحافظ الذهبي في بيان حوادث سنة خمس وعشرين ومائة :

وكانت الفتن شديدة بالمغرب ، ونيران الحرب تستعر ، وعليها الأمير حنظلة بن صفوان ، فزحف إليه عكاشة الخارجي في جمع ، فالتقوا فكانت بينهم وقعة لم يسمع بمثلها وانهزم عكاشة وقتل من البربر من لايحصى ثم تناخوا وسار رأسهم عبد الواحد الهواري بنفسه فجهز حنظلة لملتقاه أربعين ألفًا فانكسروا وولّوا الأدبار وقتل منهم عشرون ألفًا ، ونزل عبد الواحد بجيوشه على فرسخ من القيروان، وكان فيما قيل في ثلاثمائة ألف ، فبذل حنظلة الأموال والسلاح وعبّأ عشرة آلاف فخرجوا ومعهم القراء والوعّاظ وكثر الدعاء والاستغاثة بالله وضجّ النساء والأطفال وكانت ساعة مشهودة، وسار حنظلة بين الصفوف يحرض على الجهاد ، واستسلمت النساء للموت لما يعلمن من رأي هؤلاء الصفرية (١) ، ثمّ كبر المسلمون وصدقوا الحملة وكسروا أغماد سيوفهم ، والتحم الحرب وثبت الجمعان ثم انكسرت ميسرة الإسلام ثم تراجعوا وحملوا فهزموا العدو وقُتل عبد الواحد الهواري وأُتي برأسه ، وقُتل البربر مقتلة لم يسمع بمثلها، وأُسر عكاشة وأُتي به فقتله حنظلة ، وأمر بإحصاء القتلى بالقصب بأن طُرح على كل قتيل قصبة ثم جمع القصب فبلغت مائة ألف وثمانين ألفًا . وهذه ملحمة مشهودة ما سمعنا بمثلها قط ، وهؤلاء الكلاب يستبيحون سبي نساء المسلمين وذريّتهم ودماءهم ويكفّرون أهل القبلة ، وتعرف بغزوة الأصنام باسم قرية هناك .

---

(١) الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر ، وقد أنشأ مذهبه الخارجي في العراق ثم انتقل مذهبه إلى المغرب .

وعن الليث بن سعد قال : ماغزوة كان أحب إليّ أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الغرب بالأصنام [1] .

فهذه معركة عجيبة مدهشة لأمرين : أولهما أن عدد الأعداء من الخوارج أضعاف جيش حنظلة بن صفوان، وثانيهما أنه قد اشتهر أن الخوارج يستميتون في القتال وأنهم - مع قلتهم - ينتصرون على الجيوش الكبيرة ، ولكن الموازين في هذه المعركة قد تبدلت ، فأصيب الخوارج بالفشل والانتكاسة على كثرتهم، وفاز أهل السنة بالنصر على قلتهم .

وإننا حينما ندرس واقع هذه المعركة وواقع المعارك الأخرى التي كان الخوارج ينتصرون فيها نجد أن العامل القوي في انتصار الخوارج أنهم يقاتلون عن عقيدة راسخة، فهم إنما يقاتلون ليفوزوا بالشهادة فيتعجلوا للوصول إلى الجنة ، وهم وإن كانوا ضالين في منهجهم ويرتكبون العظائم في قتل المسلمين فإن ذلك لايؤثر على مستوى يقينهم لأنهم يعتقدون بأنهم على حق وأن الذين يقاتلونهم من المسلمين على الضلال والكفر ، ولكنهم في هذه المعركة قد واجهوا قوما قد ارتفع مستوى اليقين عندهم إلى أعلى مما هم عليه بكثير ، وقد اصطحب هؤلاء المجاهدون من أهل السنة معية الله تعالى لهم بالنصر والتأييد ، وتوكلوا عليه حق التوكل وضجوا بدعائه وطلب النصر منه ، بينما اتكل أعداؤهم على كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا لأن الله جل وعلا كان مع أوليائه المؤمنين الذين لا يعتدون على الآمنين

(١) تاريخ الإسلام / حوادث ووفيات ١٢١ - ١٤١ ص ١٢ - ١٣ .

ولايخيفون السبل، ففشل الأعداء أمامهم وأتاهم القتل من حيث لايحتسبون .

وفي آخر هذا الخبر دلالة على إعجاب علماء الإسلام بموقف المجاهدين من أهل السنة في هذه المعركة ، حيث شبهها عالم مصر الإمام الليث بن سعد بمعركة بدر .

* * *

مواقف وعبر

فى

جهـاد المسلمين مع الصليبيين

إن من أهم أسباب الحروب الصليبية أن المسلمين امتد نفوذهم حتى استولوا على أكثر بلاد الأناضول ، وخشي الروم من سقوط القسطنطينية بأيديهم ، خصوصا بعد معركة مَلاذْكُرد الناجحة الحاسمة حيث حطم السلطان ألب أرسلان قوات الروم التي تصل إلى مائتي ألف بجيش لايبلغ عشرين ألفا كما تقدم ، فخاف الروم إن هو جمع قواته البعيدة وانضم إليه مجاهدون من الإمارات الإسلامية الأخرى أن تسقط بلادهم بيد المسلمين ، فاستنجدوا بالصليبيين ، حيث قَدموا إلى بلاد الإسلام من الدول الأوربية .

وقد كان المسلمون آنذاك متفرقين إلى إمارات صغيرة فانتهز الصليبيون الفرصة واستولوا على مدن وحصون في بلاد الشام وماجاورها .

١ – بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين –

قد ذكـر المؤرخ ابن الأثير أن بداية الغـزو الصليبي لبـلاد الإسلام كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، حيث استولوا على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ، وأنهم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيـرة صقليـه واستـولوا عليهـا، وأنهم استـولوا على بعض أطراف أفريقية ، وأنهم خرجوا إلى بلاد الشام سنة تسعين وأربعمائة فاستولوا على أنطاكيـة بعد حصار دام تسعـة أشهر أبدى فيـه واليها باغيـسيان شجـاعة عظيمة ، وفي ذلك يقـول ابن الأثير : « وظهر من شجـاعة باغيسيـان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشـاهَد من غيره، فهلك أكثر الفرنج موتا ، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام » ولكن أنـطاكية سـقطت بيد الصليـبيين بسـبب خيـانة أحد المستحـفظين للأبراج بعد أن بذل له الأعداء مالا وإقطاعا فـفتح البرج لهم ودخلوا منه واستولوا على المدينة (١) .

حال المسلمين آنذاك :

كانت حال المسلمين يوم أن غـزا الصليبيون بلادهم سيـئة للغاية، فالخـلافة في بغداد ضـعيـفة وليس للخليفـة إلا الاسم، والعبـيديون يحكمون مـصر وهم ليس عندهم أي حـماس للدفـاع عن الإسلام، والشام يـحكمه عـدد من الأمراء الضـعفاء ، والحـرب قائمـة بينهم، وحينـما اجتـمع بعضـهم تحت قيـادة كربوقـا في عام واحد وتـسعين وأربعمـائة اتفق الأمراء على الانهزام أمـام الصليبيين ليـوقعوا كـربوقا

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٥ – ١٨٦ .

الذي تكبَّر عليهم ، وكـان الصليبيون في أنطاكيـة في حال شديدة من الضعف والجوع والخوف حيث طلبوا الأمان في مقابل أن يخرجوا من البلد ، ولكن كربوقـا رفض ذلك ، فلما كانت المعركـة انهزم الأمراء من غيـر قتال حـتى ظن الصليبيـون أنها خدعة، فلـما تبين لهم أنهم جادُّون في الهزيمة شدوا علـى من بقي من المسلمين وقتلوا منهم ألوفا وتقووا بالغنائم ، وواصلوا زحفهم نحو بيت المقدس [١] .

سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :

لما سقطت أنطاكيـة بيد الصليبيين وانتـصروا على الأمراء الأتراك انتهز العبيديون في مصـر تلك الفرصة وساروا إلى بيت المقدس وكان واليه سقمان بن أرتق التركماني ،فحاصروه ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقـا إلى أن استولوا عليه وأنابوا في حكـمه رجلا يعرف بافـتخار الدولة،فقصده الصليبيون وحـاصروه نيفا وأربعين يوما إلى أن استولوا عليه يوم الجـمعـة لسبع بقين من شوال عـام اثنين وتسعين وأربعـمائة فلبثوا فيه أسبوعا يقتلون المسلمين،وقتلوا بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفا منهم جـماعة كثيرة من أئمة المسلـمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف[٢].

ولقد عبر عن هذه المأساة الشاعر أبو المظفر الأبيوَرْدي بقوله :

مزجْنا دِمانا بالدّموع السّواجم فلم يبقَ منا عرضةٌ للمَراجم[٣]

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩ .

(٣) السواجم : المذروفة والمراجم : من الرجم وهو الرمي بالأحجار .

وشـــرُّ سـلاح المـرء دمعٌ يـريقـه إذا الحرب شبّتْ نارُها بالصوارم

فإيها بني الإســـلام إن وراءكم وقائعُ يُلحقــنَ الذرى بالمناسم[1]

وكيف تنامُ العينُ مــلءَ جفونها على هفواتٍ أيقظتْ كـلَّ نائـم

وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلهم ظهورَ المذاكي أو بطونُ القشاعم[2]

تسومهمُ الـــرومُ الـهـوانَ وأنتـمُ تجرُّونَ ذيلَ الخفْضِ فعلَ المسالم

ومنها قوله :

وبين اختلاس الطعنِ والضرب وقفةٌ

تظـلُّ لها الـولـــدانُ شيبَ القوادم

وتلكَ حروبٌ من يغبْ عن غمارهـا

ليسلم يـقـرعْ بعـدهـا ســـنَّ نـادم

سَلَلْنَ بأيـــدي المشـركـينَ قـواضبًا

ستُغْمدُ منهم في الكِلَى والجماجم[3]

يـكـادُ لـهـنَ المستـجيرُ بطـيـبـةٍ

ينادي بأعلا الصوت يـا آل هاشـمِ

أرى أمتّي لايُشرعون إلـــى العـدا

رماحهم والـديـــنُ واهي الدعـائـم

---

(١) المناسم : جمع منسم وهو خفّ البعير .

(٢) المذاكي : الجياد ، والقشاعم : النسور .

(٣) القواضب : القواطع من السيوف .

ويجتنبون النارَ خوفًا من الرّدى
ولايحسبونَ العارَ ضربةَ لازم
أيرضى صناديدُ الأعاريب بالأذى
ويُغضي على ذُلٍّ كماةُ الأعاجم[1]
فليتهموا إذ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمسَ الوغى
فهلا أتوهُ رغبةً في المغانم[2]

وهكذا يظهر لنا الضرر الفادح من بُعْد المسلمين عن الحياة الجهادية ، وضعف الوعي الإسلامي فهؤلاء العلماء والعباد والزهاد الذين فضلوا الرباط في المسجد الأقصى وحوله لم يفهموا شمول العبادة في الإسلام ، حيث فهموا أن العبادة هي المبالغة في أداء الشعائر التعبدية والاشتغال بالعلم القاصر، ولم يهتموا بالاستعداد للجهاد والمشاركة فيه وإعداد العدة التي أمرهم الله تعالى بها في قوله **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾** [**الأنفال** : ٦٠]، فداهمهم الأعداء الحاقدون وذبحوهم كما تذبح الشياه .

---

(١) الكماة : الأبطال .

(٢) البداية والنهاية ١٢/١٦٧ .

إن هؤلاء السبعين ألفًا الذين قتلهم الصليبيون في المسجد الأقصى لو كانوا قد تدربوا على الجهاد، وأصبح كل واحد منهم يملك السلاح لاستطاعوا وحدهم أن يهزموا الصليبيين - بإذن الله تعالى - لأنهم لايملكون القوة الروحية بتوكلهم على الله جل وعلا واستمدادهم النصر منه، فإذا اجتمع مع هذا العامل المعنوي المهم العاملُ المادي، من التدرب على القتال وحملِ السلاح فإن أصحاب ذلك لايغلبون بإذن الله جل وعلا .

جهاد سقمان وجكرمش مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام سبعة وتسعين وأربعمائة أنه لما استطال الفرنج - خذلهم الله - بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وأمرائه بقتال بعضهم بعضا وتفرقت كلمة المسلمين زحف الصليبيون نحو حران ليأخذوها، وكان بين الأمير معين الدولة سقمان الأرتقي وشمس الدولة جكرمش نزاع وكان كل واحد منهما يعد العدة لقتال الآخر ، فلما علما بتحرك الصليبيين شرقا أرسل كل واحد منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لقتال الصليبيين وتلافي أمر حران ويعلمه بأنه قد بذل نفسه لله تعالى، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ماطلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا ، وسارا إلى لقاء الصليبيين ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد ، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصافٌ بينهم هناك ، فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين، فعاد

عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا ، وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم ، ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن مؤن الأعداء كانت قريبة منهم .

وكان بيمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا بجنودهما، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيرًا وأسروا كذلك ، وأفلتا في ستة فرسان .

وكان بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من رؤسائهم، وخاضوا نهر البليخ فوصلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه، وكان سقمان قد سار فيمن معه لاتباع بيمند .

وسار سقمان إلى حصون الفرنج فاستولى على عدد منها، أما جكرمش فقد سار إلى حران فاستولى عليها .

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين مايقارب اثني عشر ألف قتيل[1].

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصارا كبيرًا لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما ، ولقد كان موقفًا عاليًا يذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ماكان بينهما من خلاف وتوجها معا للخطر المشترك عليهما ، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبق في أرض المسلمين أحد من الأعداء، ولاستطاعوا

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/٢٢١ - ٢٢٢ .

أن يُخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام ، وإنما يُؤتَى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم .

جهاد طغتكين مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين وأربعمائة أنه في شهر صفر جرت معركة بين أمير دمشق طغتكين والصليبيين بقيادة بغدوين أمير القدس وعكا وغيرهما ، وذلك بعد معارك جرت بينهما ، ثم إن بغدوين بنى حصنًا بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من شرور ذلك ، فسار إلى الصليبيين والتقوا واقتتلوا أشد قتال ، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما ، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتموا به ، فقال طغتكين : من أحسن قتالهم وطلب مني أمرا فعلته له ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، فبذل الرجَّالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه ، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم ، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي ، وأسروا من بالحصن ، فأمر بهم فقتلوا كلهم ، واستبقى الفرسان أسراء ، وكانوا مائتي فارس ، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل (١) .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صورا من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين ، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتموا به إذا أغاروا على دمشق فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه ، وهدم ذلك الحصن ، ثم

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٣٠ .

فيمـا أقدم عليه من قـتل ذينك الأميرين الذين خانا الأمـانة وفراً إلى دمشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ الحروب، وهي تعطي دروسًا قوية بلـيغـة للقادة والجنـود حتى لايفـروا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل في صفوف الجيش .

واخيراً في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حـيث إنه لم يكن فـيمـا يظهـر عنده شيء من آلات الرمي الثـقـيلة كالمجـانيق فوجـه أفراد جـيشه بالإغـراء المذكور ليـقومـوا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكـثرة العدد و تظافر الجهود ، وهذا يدل أيضًا على حزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي .

* * *

٢ - جهاد عماد الدين زنكي مع الصليبيين -

هو عـماد الدين زنكي بن آق سنـقر بن عـبد الله آل ترغـان من قبائل « الساب يو » التركمانيـة ، وقد كان أبوه مقدما عند ملكشاه بن ألب أرسلان السلـجوقي ، ولما تولى مُلْك السلاجـقة بركـيا روق بن ملكشاه عيَّن آق سنقر على إمارة حلب وكـان حازما عادلا ، وبعد أن قُتل آق سنقـر انتقل ابنه عـماد الدين إلى الموصل في رعـاية حاكمـها القائد السلجوقي كربوقا الذي كان صديقا لوالده وكان عماد الدين في العاشرة من عمره ، ومازال بعـد أن بلغ سن الشباب موضع الثقة عند حكام السلاجقـة لما رأوا فيه من النبل والشجاعة، واشـترك مع الأمير مودود بن التونتكين في حروبه مع الصليبيين .

وفي عام واحد وعشرين وخمسمائة صار أميرًا على مدينة الموصل من قِبَل الـسلاجقـة ، وقد دفـعه طموحـه بعد ذلك إلى ضم مـنطقة الجزيرة وشمال الشام إلى سلطته وكـان ذلك بداية قوته وتوجهه لجهاد الصليبيين (١) .

معركته مع الصليبيين حول حمص :

كان من أبرز مـواجهاته مـعهم ماقـام به من مواجهـة جيش لهم كبير، أرادوا به مباغتته وهو مـحاصر حمص، وكانوا قد شعروا بتزايد قوته مع اتساع إمـارته فانسحب من حمص وأظهر عزمـه على حصار حصن « بعرين » المنيع الذي استولى عليه النصارى ، وقد استدرجهم

---

(١) عماد الدين زنكي للدكتور عماد الدين خليل / ٣١ - ١١٥ .

وكان حكم عماد الدين زنكي مابين عامي واحد وعشرين وواحد وأربعين وخمسمائه.

بذلك لاختيار الموقع المناسب ، وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة «فولك» ملك بيت المقدس، وريموند ملك طرابلس، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقَتْلِ وأسْر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، وكان ريموند من بينهم، أما فُولْك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين[1] .

وهكذا أظهر عماد الدين براعة حربية حيث استدرج الصليبيين بعيداً عن مدينة حمص وقلعة بعرين حتى لايأتيهم منهما مدد، فاستطاع - بتوفيق الله تعالى - أن ينتصر عليهم وأن يأسر أمراءهم وقادتهم مع اجتماعهم لقتاله .

فتح حصن بعرين :

ثم تقدم عماد الدين زنكي لحصار حصن « بعرين » ، ونظراً لأهمية هذا الحصن فإن الصليبيين استنجدوا بملك الروم وبِدُوَل أوروبا قائلين إن عماد الدين إن استولى على هذا الحصن سهُل عليه القضاء على الممالك الصليبية في الشام ، وإن المسلمين لهم نية في استعادة بيت المقدس ، وقد جاء ملك الروم ومعه الأمداد الأوربية وأمراء النصارى في الشام ، ولكن بعدما تم استيلاء عماد الدين على ذلك الحصن .

(١) عماد الدين زنكي ، للدكتور عماد الدين خليل ، عن ذيل تاريخ دمشق ، والكامل ، والباهر / ١٤٢ .

مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم :

وقد أرسل عماد الدين أمراء المسلمين لإمداده فأمدوه، ولدهائه ودقة تخطيطه الحربي استطاع أن يفرق جمع الأعداء، وكان قد اتجه بقواته شمالا وعسكر قرب حماة والأعداء يحاصرون « شيزر» التي تقع شمال حماة، وكان عماد الدين يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار .

ثم أرسل إلى أولئك الحلفاء يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال - المحيطة بشيزر - فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم وإنما كان يفعل هذا ترهيبًا لهم.

وهكذا نجح عماد الدين في خداعهم وإرهابهم ، حيث ظنوا أن معه جيشًا كبيرًا وأن الذين يغيرون عليهم كل يوم إنما هم سرية من سرايا عماد الدين .

هذا إضافة إلى استعماله المكائد للتفريق بين أولئك الحلفاء، حيث حذر صليبيي الشام من استيلاء أمبراطور الروم على بلادهم، كما أوهم هذا الامبراطور بأن نصارى الشام قد تحالفوا معه ، فلذلك كله قرر ملك الروم الانسحاب ، وفكّ الحصار عن شيزر في التاسع من رمضان عام اثنين وثلاثين وخمسمائة، واستولى عماد الدين على آلاتهم الحربية الثقيلة ، كما أرسل بعض قواته لملاحقتهم فقتلوا وأسروا عددًا كبيرًا منهم (١) .

---

(١) عماد الدين زنكي / ١٤٣ - ١٤٧ ، عن عدد من المصادر القديمة والحديثة .

فتح مدينة الرها :

أما أهم عمل قام به في جهاد الصليبيين فهو فتح مدينة « الرها» وذلك في السادس من جمادى الآخرة من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، وهي من أكبر مدن الجزيرة ، وفيها إمارة للنصارى قوية، ويتبعها عدد من قرى الجزيرة، وهي تحت إمرة« جوسلين» أقوى الصليبيين آنذاك وأشدِّهم دهاءً ومكرا ، وقد كان بلاؤه على المسلمين من حوله عظيما .

وقد كان عماد الدين يعلم أنه إذا قصد حصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة، فأظهر أنه سائر إلى ديار بكر ليوهم الفرنج أنه لايريد بلادهم، فلما علم بذلك جوسلين اطمأن وفارق الرها إلى بلاد الشام ، فجاءت عيون عماد الدين فأخبروه الخبر ، فنادى بالعسكر بالرحيل ، وجمع الأمراء، وقدَّم لهم الطعام ، وقال : لايأكلْ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غداً معي بباب الرها ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لايقدر على مساواته في الحرب . وسار والعساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أولَ من حمل على الفرنج، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين فاعترضه ذلك الأمير الذي سار معه فطعنه فقتله .

وقاتل أهل البلد ثمانيةً وعشرين يوما ، وقدَّم النقَّابين، فنقبوا سور البلد، حتى أسقطوا جزءاً منه ،فاستولى على البلد عنوة وحاصر قلعته حتى ملكها ، وجعل في البلد عسكراً يحفظه، ثم أغار على

القرى التي تحت سلطان الصليبيين فاستولى عليها، وبسقوط الرها زالت دولة الصليبيين في الجزيرة .

وبهذا الفتح علت سمعة عماد الدين زنكي عند المسلمين، وأضفى عليه الخليفة ألقابًا عالية ، وخاف منه الصليبيون والروم، وكان من أثر ذلك أن اتفقوا وقاموا بحملتهم الثانية التي تصدى لها ابنه نور الدين محمود بعد استشهاد أبيه رحمه الله [1] .

* * *

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/٨-٩ ، وانظر « عماد الدين زنكي ٧/١٤٩ .

٣ - جهاد نور الدين محمود مع الصليبيين -

هو نوز الدين محمود بن عـماد الدين زنكي، تولى إمارة حلب، ثم اتسعت سلطنته حـتى شملت بلاد الشام والجزيرة ومصـر والحجاز واليمن ، وقـد اشتهـر بالعدل في الحكم ، حـتى قال عنه المؤرخ ابن الأثير : وقـد طالعت سِيَر الملوك المـتقدمين فلم أر فـيها بعـد الخلفاء الراشدين وعـمر بن عبـد العزيز أحسن من سـيرته ولاأكثـر تحريا منه للعدل [١] .

كما أنه قد اشـتهر بالشجاعة وحب الجهـاد ، وقد ذكر ابن الأثير من شجاعته أنه كان في الحرب يأخذ قـوسين ليقاتل بهما، وأن الفقيه القطب التساوي قال: بالله عليك لاتخاطر بنفسك وبالإسلام فإنك إن أُصبت في معـركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السـيف، فقال نور الدين : ومَنْ مـحمـود حتى يقـال له هذا ، مِنْ قبلي مَنْ حـفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو [٢] .

ولقد ظل رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى أضعفهم وقلص من وجودهـم في الشام ، وكان حُـلُمه الكبيـر أن يفتح بيـت المقدس ويطهـرها من الصلـيبـيين ولـكن وافـته المـنيـة في سنة تسع وسـتين وخمسمائة قبل أن يتحقق ذلك ، ولكن فتحها تمَّ بعد ذلك على يدي صلاح الدين الأيوبي .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ .

وقد استمر حكمه مابين عامي واحد وأربعين وتسعة وستين وخمسمائة .

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ .

معركة يغرَى :

ومن أخبار جهاده ماذكره العلامة المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حيث قال: في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه « يغرَى » من أرض الشام، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم نور الدين فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرَى ، واقتتلوا قتالا شديداً انجلت المعركة عن انهزام الفرنج ، وقُتل منهم كثير ، وأُسر جماعة من مُقدَّميهم، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل (١) .

استيلاؤه على حصن عزاز وماحوله :

وذكر في حوادث سنة ست وأربعين وخمسمائة أن نور الدين استطاع أن يأسر جوسلين الذي كان أعظم ملوك الفرنج شجاعة ودهاء، وكان قد استولى على قرى وحصونٍ شماليَّ مدينة حلب لما فقد إمارة الرها ، وكان نور الدين قد وضع عليه العيون، فلما خرج للصيد أبلغوا أبا بكر بن الداية نائبَ نور الدين على حلب فجاء بفرقة معه فأسره ، وقد فرح المسلمين كثيراً بأسره لشدة أذاه عليهم، وأُصيب النصارى به لشدة غَنائه فيهم ، واستولى بعد ذلك نور الدين على قلاعه وحصونه ومنها عَزَاز .

وقد مدحه الشعراء على ذلك ، ومما قيل فيه قصيدة للقيسراني يقول فيها مُعرِّضا بجوسلين :

طغى وبغى عَدْواً على غلوائه ... فأوبقه الكُفرانِ عَدْواه والكفرُ

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٢ .

وأمست عَزَاْزٌ كاسمها بك عَــزَّةً تَشُقُّ عـلى النَّسْرَين[1]لوأنها وكــر

فسِرْوَاْ وَامْلِكِ الدنيا ضياءً وبهجةً فبالأُفق الداجي إلـى ذي السنا فقر

كأني بهــذا العزم لافُــلَّ حــدُّه وأقصاه بالأقصى[2]وقد قُضِيِ الأمر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طهر[3]

معركة دلوك وفتحها :

ثم ذكر ابن الأثيـر في حوادث سنة سـبع وأربعين وخمســمائة أن الفرنج تجمـعت وحشدت الفارس والراجل ، وسـاروا نحو نور الدين وهو ببلاد جـوسلين ليمنعـوه من مُلْكِها ، فوصلـوا إليه وهو بدلُوك ، فلما قربوا منه رجع إليهم ولقـيهم ، وجرى المصافُّ بينهم عند دلوك ، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، وصبـر الفريقان ، ثم انهزم الفرنج وقُتل منهم وأُسر كثير ، وعاد نور الدين إلى دلوك فاستولى عليها ، ومما قيل في ذلك :

أعدْتَ بعصرك هذا الأنيـــ قِ فتـوحَ النبيِّ وأعصـارَها

وكــان مُهاجِـرُها تابعيــ ـــك وأنصارُ رأيك أنصارَها

فجدَّدتَ إِسْــلام سلمانها وعَمَّـر جَـدُّك عَـمَّارَهَـا [4]

فتح قلعة حارم :

ثم ذكر ابن الأثير أن نور الدين عزم على فتح قلـعة حـارم المنيعة

---

(١) النسران كوكبان وسميا بذلك تشبيها بالنسر الطائر .

(٢) أي المسجد الأقصى .

(٣) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٩ - ٣٠ .

(٤) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٢ .

وهي قرب أنطاكية ولها أهمية كبيرة عند النصارى ، وحاصرها وضيَّق عليها، وقد اجتمعت الفرنج لترحيله عنها ولكن أحد عقلائهم في القلعة أشار عليهم بعدم مواجهة نور الدين لعدم مقدرتهم على قتاله، ثم حاصرها مرة أخرى فصالحوه على تسليمه نصف أعمال القلعة .

ثم في المرة الثالثة عزم على فتح القلعة ، واستنجد بأخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة ، وبفخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وبنجم الدين ألبى صاحب ماردين، فأما قطب الدين فإنه سار مُجِدّاً وفي مقدَّمته زين الدين علي أميرُ جيشه ، وأما فخر الدين صاحب الحصن فإنه استشار خواصه فقالوا : على أي شيء عزمت ؟ فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة ، وهو يُلقي نفسه في المهالك، فكلهم وافقه على هذا الرأي ، فلما كان من الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه: فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها ! فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أُنجِدْه خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا يَذكُرُ لهم مالقي المسلمون من الفرنج ومانالهم من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون علي، فلابد من المسير إليه ، ثم تجهز وسار بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سيَّر عسكرا .

فسُقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، فاشتدت الحرب، وكثر القتل في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة ، فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر ، فأسروا مالايُحَدّ، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس « القمص» وكان شيطان الفرنج وأشدَّهم شكيمة على المسلمين ، والدُّوك مقدمُ الروم، وابن جوسلين ، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف .

وقد فادى نور الدين بالأسرى عددًا كبيرًا من أسرى المسلمين.

وكان للشعراء دور طيب في الثناء على نور الدين وتأييده في حصار تلك القلعة وفتحها ، ومن ذلك قصيدة لأحد الشعراء أكتفي بذكر أبيات منها يقول فيها :

أَلبَستَ ديـن محمد يانوره	عِـزًّا لـه فـوق السُّها آسادُ
مـارلـتَ تشمله بميَّـاد القنا	حـتى تثقَّف عـوده الميَّادُ
لم يبق مذ أرْهَفْتَ عزمك دونه	عـدد يُراعُ بـه ولااستعداد
إن المنابر لـو تطيق تكلُّمًا	حَمدتْك عن خطبائها الأعوادُ
مَنْ مُنكرٍ أن ينسف السيل الربا	وأبـوه ذاك العـارض المدَّاد
لاينفع الآباءَ ماسمكوا من الـ	ـعلياء حتى يرفـع الأولاد[1]

(١) الكامل في التاريخ ٩/٤٩ ، ٧٩ ، ٨٦ - ٨٧ .

وذلك في سنة إحدى وخمسين وخمسمائه ، وسبع وخمسين وخمسمائة وتسع وخمسين وخمسمائة .

وهكذا سعد المسلمون بهذه الانتصارات الكبيرة على الصليبيين بعد أن لقي منهم المسلمون عنتا شديدًا فجادت قرائح الشعراء بالقصائد العصماء في مدح الإمام العادل والمجاهد البطل نور الدين محمود، وإن هناك ما هو أعظم من المدائح الشعرية مما لايسطر في الكتب إلا قليلا ، ألا وهو لهج ألسنة الصالحين بالدعاء ، وهذا عند نور الدين وأمثاله أهم كثيرًا وأعظم .

ولقد أثبتت هذه الوقائع وغيرها أن نور الدين مع مااتصف به من الشجاعة والإقدام كان ذا رأي مسدد في الحرب، وإلى ذلك ترجع بعض انتصاراته على الأعداء .

فتح قلعة بالياس :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة أنه في ذي الحجة من هذه السنة سار نور الدين إلى قلعة بانياس، وهي بالقرب من دمشق، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ولما فتح « حارم » أذِنَ لعسكر الموصل ودِيَار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج هِمَّتَهم حفظها وتقويتها، فسار محمود إلى « بانياس» لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ، فنازل أهلها وضيَّق عليهم وقاتلهم، وكان في جملة عسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كُشِف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى .

وجدَّ في حصارها ، فسمع الفرنج فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم

حتى فتحها، على أن الفرنج قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأَسْرِهم ، فملَك القلعة وملأها ذخائر وعُدَّة ورجالا، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرها عليها مالاً في كل سنة .

ووصل خبر استيلاء نور الدين على حصن حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر ، فصالحوا شيركوه [1] وعادوا ليدركوا بانياس ، فلم يصلوا إلا وقد استولى عليها نور الدين [2] .

فهذا الخبر فيه مواقف عالية لنور الدين محمود رحمه الله تعالى، فمن ذلك تخطيطه الحربي البارع، وذلك حينما أوهم أعداءه بأنه سائر إلى طبرية ، ثم عاد إلى بانياس، فكان استعداد الأعداء في غير المكان الذي قصد، وترتَّب على هذه الخدعة الحربية نجاحُه في الاستيلاء على بانياس .

وما عَمِلَه نور الدين من خداع الأعداء داخل في قول رسول اللهﷺ « الحرب خدعة » [3] .

ومن ذلك عزاؤه البليغ لأخيه الذي فُقِئَتْ عينه في الحرب، وهذا العزاء يدل على عمق إيمان نور الدين ورسوخ يقينه ، وعظمة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة .

---

(١) شيركوه هو أسد الدين الأيوبي وهو عم صلاح الدين الأيوبي ، وهو من أكبر قادة نور الدين ، وقد وجهه للاستيلاء على مصر وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين .

(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠ (٦/ ١٥٨) ، صحيح مسلم الجهاد، رقم ١٧٣٩ (٣/ ١٣٦١) .

فتح حصن المُنَيطرة وصافيثا وعريمة :

وهذه خدعة حربية أخرى يقوم بهـا نور الدين محمود، فقد ذكر المؤرخ ابن الأثير في حـوادث سنة إحدى وستين وخـمسمـائة أنه سار إلى حصن المُنَيطـرة - وكان بيد الفـرنج - بعدد قليل من جيـشه على غِرَّة منهـم ، وهو يعلم أنه لو جمع عـساكره حـذِرُوا ، فسـار إليهم وانتهز فرصة غـفلتهم ، فحاصره وجدَّ في قتال أصـحابه فأخذه عنوة وقَتل بعض رجاله وسبَى بعضـهم، ولم يجتمع الفرنج للدفاع عنه إلا وقد استولى عليه ، فتفرقوا وأيسوا من رده [١] .

وهكذا تكُونُ إدارة الحروب الناجـحه : مكاسبُ كبيـرة في مقابل خسائر قليلة .

وقد استمر نور الدين في غزو الصليبيين في بلاد الشام ،فقد غزا بلادهم سنة ثلاث وسـتين وخمسـمائة فاسـتولى على بعض قـلاعهم وحصونهم ومنها « صافيثا وعريمة » [٢] .

القضاء على حملة صليبية :

على إثر انتصـارات نور الدين المتتاليـة في الشام واستـيلائه على مصر بعث الصليبيـون إلى دول أوربا يطلبون نجدتهم، ويخوفونهم من استيلاء نور الدين على بيت المقـدس، فأرسلوا لهم حملة وصلت إلى دمياط ، ولما علم بهم الصليبيـون في الشام أمدوهم بالجيوش ، وكان أسد الدين شيركوه قد مات وخَلَفَـه على ولاية مصر ابن أخيه صلاح

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٩٤ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩ .

(٢) الكامل ٩/ ٩٦ .

الدين الأيوبي ، فأرسل الجيوش إلى دمياط، واستمد نور الدين فأمدَّه بالجيوش أرسالاً وانتهز فرصة خروج جيوش الصليبيين إلى مصر فأغار على بلادهم في الشام واستولى على كثير منها وخرب كثيراً من حصونهم ، وقد قاومهم صلاح الدين في مصر حتى هزمهم ، ورجعت الحملة الصليبية إلى أوربا خاسئة حسيرة، ورجع الصليبون إلى الشام فوجدوا نور الدين قد استولى على كثير من بلادهم، فخسروا الشام ولم يكسبوا مصر (١) .

وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا لنور الدين الذي وُفِّق برجال أكفاء أقوياء من أمثال أسد الدين وصلاح الدين .

حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين :

ذكر ابن الأثير حصار نور الدين حصن الكرك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البر ، فحاصره وضيَّق على أهله، ونصب عليه المنجنيقات ، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه ،وقد جعلوا على مقدمتهم ابن هنغري وفليب بن الرقيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، فرحل نور الدين نحو هذين المقدَّمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج ، وسلك نور الدين وسط بلادهم يفتح القرى، وأقام ينظر حركة الفرنج فلم يبرحوا مكانهم .

لكن إحدى سرايا نور الدين انتصرت على سرية من سرايا الصليبيين ، وكانت هذه السرية بقيادة شهاب الدين إلياس ، وكان قد

---

(١) الكامل ٩/١٠٥ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/٢٧٩ .

سار إلى نور الدين ومـعه مئـتا فارس فـصادف ثلاثمائـة فارس من الصليبيين ، فـاقتتلوا واشتد القـتال، وصبر الفريقان وكـثر القتلى بين الطائفتين ، فـانهزم الصليبـيون ، وعمهم القـتل والأسر، ولـم يفلت منهم إلا من لايعتد به (١) .

حملة تأديبية للصليبيين :

ومن أعمال نور الدين الجـهادية تلك الحملة التأديبيـة التي قام بها لتأديب الفـرنج لما استولوا على مركـبين تجاريين للمسلمين، فـقد قام بحملة واسعة فـيما تبقَّى من أملاكهم حتى خضـعوا وسلَّموا ماأخذوا بذلَّة وصَغار (٢) .

وهذا موقف جليل في إظهـار عزة دولة الإسلام وحمـاية مصالح المسلمين .

مواقف نور الدين الأخلاقية :

أمـا مواقف السلطان نور الديـن الأخلاقـية في مـجالات العـدل والورع وخشية الله تعالى فهي كثيرة مشهورة فمن ذلك ماذكره المؤرخ ابن الأثير في بيان ورع السلطان نور الدين حيث يقول : حكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقـيل : إن القاضي كـمال الدين أرسله، وهو من جـهة كـذا وكذا، فقـال: إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجـهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة

---

(١) الكامل ١٠٦/٩ .

(٢) الكامل ١١٣/٩ .

إلى كمال الدين ، فرده إلى الخـزانة مرة أخرى وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فـرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقـل لكم : يعاد هذا المال إلى أصحابه ؟! فذكروا له قول كـمال الدين فرده إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حـمله والمخاصـمة عليـه بين يدي الله تعـالى ، يُعادُ قـولاً واحدا[1].

فهذا الخبر فيه مثل مما كان يتصف به السلطان نور الدين من الورع وخشية الله تعالى والتحري في الأمـوال واتقاء الشبهات، فبالرغم من أن ذلك المال قـد أتى من طريق القاضي كـمال الدين الشـهرزوري - وهو المعروف بعلمه وتقواه - فإن نور الدين قد رفض قبوله ، لأنه قد دخل مجال الشبهات فخاف من أن يحاسب عليه يوم القيامة .

ومن أخبـار عدل السلطان نور الدين وتواضعـه أنه طُلب مرة من أحد المدَّعين عليه فقـال أحد كبار موظفيه مسـتهزئًا : يقوم المولى إلى مـجلس الحكم !! فـأنكر نور الدين على الرجل سـخـريته وقـال : تستـهزئ بطلبي إلى مـجلس الحكم ؟ ثم قال: يُحـضَر فـرسي حتى نركب عليه ، السمع والطاعة قال الله تعالى﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٥١] ، ثم نهض وركب حـتى دخل باب

---

(١) نور الدين محـمود /١٠٣ للدكـتور عمـاد الدين خليل نقلا عن التـاريخ الباهر لابن الأثير / ١٦٧ .

المدينة، واستدعى أحد أصحـابه وقال: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له : إني جئت ههنا امتثالا لأمر الشرع (١) .

وهذا موقف عالٍ من نور الدين بين فيـه إخلاصه وتجرده من حظ النفس وخـضوعه التـام لشريعـة الله تعالى ، فـهو لم يسـتنكف عن الحضور بين يدي القـاضي حينما قامت عليه الدعـوى ، بل استسلم لأمر الله جل وعلا وأمْر رسوله ،وقد أعاد بذلك سيرة الصحابة رضي الله عنهم ، حيث كان أمراؤهم يحضـرون مع خصومهم عند القاضي كأي إنسان آخر .

ولقد كـان في يوم من الأيام يلعب بالكرة في دمشق فـرأى رجلا من أتباعه يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعـلمه أن له مع نور الدين خـصومـة حول بعض الأمـلاك، وطلب حضـوره إلى مجلس القـضاء للفصل في المسـألة ، فتـردد الغلام في عـرض الموضوع على نور الدين ولكن هـذا ألح عليه، فلمـا تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له : إننـي قد جئت مـحاكمـا فاسلك معي مـاتسلكه مع غيري، فلمـا حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خـصمه، وإذ لـم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور ، هل ثبت له عندي حق؟ قـالوا : لا ، قال : اشـهدوا أنني قـد وهبت له هذا المال الذي حاكـمني عليه ، وقـد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حـضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه .

---

(١) نور الدين محمود / ٧٩ ، نقلا عن الروضتين لأبي شامة ١/١/٢٦ - ٢٧ .

قال ابن الأثير : تلك هي غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل [1] .

وهكذا رأينا السلطان نور الدين يضرب مثلا عاليا في الخضوع لشريعة الله تعالى ، وذلك بسرعة الحضور عند القاضي حينما دعاه، وقد كلل هذه المأثرة العالية في العدل بمأثرة أخرى في الإحسان حينما تنازل عن الحق الذي خوصم فيه لمخاصمه مع ثبوت حقه فيه، وهذا مثل جيد في النزاهة والعفة .

ومن روائع السلطان نور الدين في القضاء وإجراء العدالة والإنصاف من الأمراء والقادة إنشاء « دار العدل» في دمشق، وكان سبب إنشائها تزايد سلطان عدد من كبار الأمراء وتجاوز بعضهم حقوق بعض وعدم خضوع بعضهم لسلطة الحاكم الشرعي ، فلما علم بذلك نور الدين أمر ببناء دار العدل ، يقول ابن الأثير : فلما سمع شيركوه[2] ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ماأمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدى ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين [3] والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه ، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع مابيدي،

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ ، وانظر « نور الدين محمود / ٧٩ عن الباهر لابن الأثير ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه كبير أمراء نور الدين وهو الذي استولى على مصر وقضى فيها على الصليبيين والعبيديين .

(٣) هو قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري .

فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطُّوا في الطلب ، فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بِعَينٍ أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة - أي القضاء -، فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ماأمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغَتْ دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا (١) .

وهكذا كان نور الدين موفقا في إنشاء محكمة عليا يتولى هو فيها الحكم على أمرائه الذين قد لايتمكن الحاكم الشرعي من السير في إجراءات الحكم عليهم .

لقد كان التفكير في إنشاء دار العدل في غاية الروعة والسمو، حيث أصبح بإمكان نور الدين أن ينصف جميع المظلومين من ظالميهم وإن كانوا من أصحاب المناصب الكبيرة ، وكان مجرد إنشاء هذه الدار كافيا لإيقاف الظالمين من الولاة عن الظلم خشية أن يُستدعوا إلى تلك الدار فيوقفوا مع أصحاب الحقوق .

وهكذا يكون العدل الكامل ، إن كمال العدل لايكون بإنصاف المظلومين من الظالمين الضعفاء أو المتوسطين فقط، وإنما يكون بشمول العدالة والإنصاف من جميع الناس وإن كانوا من الكبراء المتجبرين .

ويقول أبو شامة في بيان عدالة السلطان نور الدين : « وكان نور الدين يجلس في دار العدل . . ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، حتى

---

(١) نور الدين محمود / ٧٦ نقلا عن الباهر لابن الأثير / ١٦٨ .

يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فتغلب خصمها طمعا في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها من عدله، فيظهر الحق عنده، فيجري الله على لسانه ماهو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة » (١) .

وهكذا كانت إشاعة العدل سببا في تقوية الضعفاء حتى يأخذوا حقهم غير متعتعين ولاخائفين ، كما أنها كانت سببا في إضعاف الأقوياء الذين تميل نفوسهم نحو الظلم، فيحصل من ذلك ارتداعهم عن التفكير في الظلم ، وبهذا تتقلص قضايا الاعتداءات ، ويعيش الناس في أمن وأمان .

ومن ذلك ماذكره المؤرخ ابن الأثير عن رضيع الخاتون زوجة نور الدين قال : إنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ماكان قد قرّره لها، فأرسلَتْني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها [أي مخصصاتها المالية] ، فلما قلت له ذلك تنكّر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! إنما هي أموال

(١) نور الدين محمود للدكتور عماد الدين خليل / ٧٦ - ٧٧ عن الروضتين ١/١/٣٣ والباهر / ١٦٨ والبداية ٢ / ٢٨٠ .

المسلمين ومُرصدة لمصالحهم ومعدَّة لفتْق - إن كان - من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها .

قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين دينار[1] .

فهذا مثل من ورع السلطان نور الدين وعدله، فهو يشبَّه بعدله وورعه وزهده بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فقد غضب نور الدين لما سألته زوجته زيادةً في مخصصاتها المالية، وتذكَّر حالاً نار جهنم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وعظمة خشيته من الله جل وعلا .

ولقد كان عظيم الاهتمام بالعدل وتمكين المظلومين من إنهاء قضاياهم إليه ، ذكر ابن قاضي شهبة أنه كان يقول : حرام على كل من صحبني ولايرفع إليَّ قصة مظلوم لايستطيع الوصول إليّ ، ويقول خادمه شاذ بخت الطواشي الذي كان أحد نوابه في حلب: كنت يوما أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما ، وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ، في عائلته أو في وفاء دينه ؟! وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد ، فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وإخواني ، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله، فبالله عليكم - وإلا فخُبْزِي عليكم حرام - لاتريان قصة مظلوم

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ وانظر « نور الدين محمود / ٤٠ نقلا عن الباهر / ١٦٤ .

لاترفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلِماني بها وارفعاها إلي [1].

ففي هذا الخبر نجد نور الدين يستغرق طويلا في التفكير في أمور رعيته ، ويخشى من الله جل وعلا أن يحاسبه على الظلم الذي يقع على أفراد رعيته من ولاته ، وهذا يعني أنه قد تحرى العدل في حكمه المباشر ، ولكنه يخشى أن لايستقيم على ذلك ولاته، فيكون مشاركا لهم فيما يقع منهم من ظلم ، فكان لذلك همه الكبير واستغراقه في التفكير ، وهذا يجعله في الطريق المستقيم نحو النجاة من عذاب الله تعالى والظفر بنعيمه .

وكان رحمه الله عظيم الشوق إلى الجهاد، يحب أن يظل دائمًا مرابطا في سبيل الله تعالى ، وحينما ذهب إلى الموصل غادرها بعد عشرين يوما من دخولها عام ستة وستين وخمسمائة فقال له أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود ؟ فقال : قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت !! ويمنعني أيضا أنني ههنا لاأكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد [2] .

ويقول أبو شامة : سمعت ابن شداد يقول : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه - يعني نور الدين - كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . . وكان كفار القدس يقولون : إن نور الدين له مع الله سرّ ، فإنه

(١) نور الدين محمود / ٧٥ نقلاً عن الكواكب الدرية / ٢٥ .

(٢) نور الدين محمود / ٤٥ ، نقلا عن الباهر لابن الأثير ١٥٣-١٥٤ .

مايظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ومايردُّ يده خائبة فيظفر علينا (١) .

وهكذا كان اهتمام نور الدين موجها إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فهو يسعد ببقائه في البلاد التي يعتبر نفسه فيها مرابطا للجهاد، ولايحب البقاء في البلاد التي تحول بينه وبين الجهاد وإن كان في قرارة نفسه يحبها .

وفي الخبر الثاني تبين لنا سرّ من أسرار نجاح نور الدين في أكثر الحروب التي خاضها، ولقد أدرك الأعداء هذا السر لأنهم لهم خلفية دينية ، فهم من أهل الكتاب وقد ورثوا من أنبيائهم عليهم السلام بيان أهمية الصلاة ودعاء الله عز وجل في حصول النصر، فعزَوا سبب انتصار نور الدين الحربي إلى كثرة عبادته واتصاله بالله جل وعلا، والحق ماشهدت به الأعداء .

ومما يبين اهتمام نور الدين بالدعاء أن أصحابه قالوا له يوما : إن لك إدرارات كثيرة وصِلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فأجابهم غاضبا : والله إني لاأرجو النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صِلاتِ قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لاتخطئ ، وأصرفها إلى من لايقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطئ وقد

---

(١) نور الدين محمود / ٤٥ عن الروضتين ١/١/ ٣٤ .

تصيب ؟ ! ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب من بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم ؟ [1] .

فهذا الخبر يدل على فهم السلطان نور الدين الشامل لمقاصد الإسلام ، وعلمه الراسخ بأسباب النصر الحقيقية، فهو يجيب مستشاريه الذين أشاروا عليه بمنع المخصصات المالية عن العلماء والعباد وصرفها إلى الجهاد والمجاهدين. . يجيبهم بأن الصرف على أولئك المتقين إنما هو بالدرجة الأولى صرف على الجهاد لأن أولئك المتقين يملكون سلاح الليل الذي لايملكه غيرهم من الغافلين، ألا وهو الدعاء.

والدعاء المشروع إذا صدر من قلوب مخلصة مخبتة إلى الله تعالى فإنه يَمْضي في الأعداء أشد من السيوف البواتر والسهام المسدَّدة، والقادة من أصحاب التوفيق المسدَّد من الله تعالى والفكر الثاقب والوعي العميق لايُغفلون سلاح الدعاء ، بل يجعلونه في مقدمة عوامل النصر الحقيقية ، فيكثرون من الدعاء ، ويرغبون من الصالحين أن يدعوا لهم بالنصر على أعدائهم ، فيصلون بإذن الله تعالى إلى النتائج الباهرة من النجاح في مقاصدهم .

ومما يدل على اهتمام السلطان نور الدين بالاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في الأمور الجهادية ماذكره الشيخ أبو البركات : أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلدا سيفا ، فاستفاد نور الدين

(١) نور الدين / ١٠٩ ، نقلا عن الباهر ١١٨ ، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٩٦ .

أمرا لم يكن يعرفه وقال : كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف !! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم ، فلما كان من الغد مرَّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر إليه ، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك .

ويقول ابن قاضي شهبة في التعليق على هذه الحادثة : رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة ، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن ؟! (١) .

هذا وإن الاقتداء بالنبي ﷺ في هذا الأمر الصغير من السلطان نور الدين يدلنا على كمال اقتدائه به في الأمور الكبيرة ، ومن هذا الخبر نلمح شدة اهتمام نور الدين بالعمل الصالح وتطبيق السنة ، فهو يستمع للدروس العلمية لامن أجل متعة الفكر ولامن أجل الذكر بين الناس ، وإنما ليستفيد العلم من أجل العمل ، وهذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في طلب العلم وتعليمه .

* * *

(١) نور الدين محمود / ٨٩ نقلا عن الكواكب الدرية / ٤٠ - ٤١ .

٤ – جهاد أسد الدين شيركوه –

في عهد السلطان العادل نور الدين محمود كان للأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الأيوبي في جهاد الصليبيين في مصر جهود طيبة.

وكان سبب ذلك – على ماذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة – أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله العبيدي صاحب مصر، نازعه في الوزارة ضرغام وغلبه عليها، فجاء شاور إلى نور الدين وطلب منه أن يمده بجيش يستعيد به وزارته في مقابل أن يكون تابعا له ويبعث له ثلث دخل البلاد، وأن يبقى أسد الدين عندهم بجيشه، فشجعه على الاستجابة رغبته في التقَوِّي على الصليبيين حينما يحيط بهم جيش من الشام وجيش من مصر، وقد كان أسد الدين راغبا في ذلك لِمَاَ عرف عنه من الشجاعة والإقدام، فوجهه نور الدين إلى مصر، فكانت مواجهةٌ بينه وبين ناصر الدين أخي ضرغام فانهزم ناصر الدين وعادت الوزارة لشاور، إلا أن شاور غدر بأسد الدين ولم يف بشيء مما وعد به، فانحاز أسد الدين إلى بلبيس، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن استولى على مصر، فجاؤوا من بلاد الشام وأحاطوا هم وجيش المصريين بأسد الدين في بلبيس، ولكنه استطاع أن يتحصن منهم بتلك المدينة رغم ضعف أسوارها، وكان يخرج لقتالهم بجيشه ثم يتحصن، وقد بقي على ذلك ثلاثة أشهر إلى أن بلغ الصليبيين أن نور الدين قد استولى على قلعة حارم التي هي من أمنع حصونهم، فطلبوا الصلح مع أسد الدين على أن يسلِّم مابيده إلى المصريين، ولم

يكن يعلم بما جرى لهم في الشام ، إضافة إلى أن الأقوات والذخائر قلَّت عنده كثيرا .

قال ابن الأثير: وخرج من بلبيس في ذي الحجة ، فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ من حديد، يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه، قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر[1] فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولايبقى لكم بقية !! فقال شيركوه: ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ماأفعله، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملكُ بلادهم ونُهلكُ من بقي.

قال الفرنجي : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم .

ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رصداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا، فعلم بهم فحاد عن ذلك الطريق ، ففيه يقول عمارة :

أخذتمْ عن الإفرنج كلَّ ثنية
وقلتَ لأيدي الخيل مُرِّي على(مَرِّي)
لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

(١) وهم الذين جاؤوا لزيارة بيت المقدس فاستعان به الصليبيون على القتال .

ولفظةُ (مَرِّي) في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج [1].

فهذا الخبر فيه مثل من خيانة بعض أسراء المسلمين آنذاك ووزرائهم حيث كانوا يتحالفون مع الصليبيين ضد المسلمين، وقد كان هؤلاء أشد بلاء على الأمراء المخلصين للإسلام من الصليبيين أنفسهم، وهذا الوزير وأمثاله كانوا من حكام الدنيا ، ولم يكن يهمهم أمر الدين .

أما موقف أسد الدين فقد كان مجيدا حيث ثبت للصليبيين وحلفائهم من المسلمين ثلاثة شهور ، ولم يستسلم لهم ولم يطلب منهم الصلح .

وفي حواره مع ذلك الصليبيي تصوير رائع لشجاعة المسلمين، واستهانتهم بالمهالك في سبيل خدمة دينهم .

وفي آخر الخبر مثل من دقة الرصد الحربي عند المسلمين، حيث أراد الأعداء إهلاك المسلمين أو إضعافهم بالكمين الذي وضعوه لهم ليأخذوهم على غرة ، ولكن طلائع المسلمين اكتشفوهم فسلكوا طريقا آخر ، وفوتوا على الصليبيين تلك الفرصة .

معركة البابين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وخمسمائة خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى بلاد مصر حيث قال : فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الأول في جيش قوي، وسيَّر معه نور الدين جماعة من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان كارها

(١) الكامل ٩/ ٨٤ - ٨٦ .

لذلك، ولكن لما رأى جدَّ أسـد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يُسـيِّر معه جـمعا خوفا من حادث يتـجدد عليهم فيضـعف الإسلام ، فلما اجتمع مـعه عسكره سار إلى مصـر على البر وترك بلاد الإفرنج على يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية، فقصد طفيح وعبر النيل عندها إلى الجـانب الغربي، ونزل بالجـيزة مـقـابل مصـر ، وتصرف في البـلاد الغربية، وحكم عليها ، و أقام نيفا وخمسين يوما .

وكان شـاور [ابن الخياط] لما بلغـه مجيء أسد الدين إليـهم قد أرسل إلى الإفرنج يسـتمدهم فـأتوه على الصعب والذلول طمـعا في ملكها، وخوفـا أن يملكها أسد الدين فلا يبـقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين ،فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم .

فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعـيد، فبلغ مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فـأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى .

قال ابن الأثير في سيـاق روايته : وكان [يعني أسد الدين] أرسل إلى المصريين والفـرنج جواسيـس فعادوا إليـه وأخبروه بكثـرة عددهـم وعُـددهم وجِدِّهم فـي طلبه، فـعـزم على قتـالهم إلا أنه خـاف من أصحـابه أن تضعف نفـوسهم عن القـتال في هذا المقـام الخطر الذي عَطَبُهم فيـه أقرب من سلامتهم ، لقلة عـددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا -

وهو الذي يغلب على الظن – فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ؟

فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا . . . ثم ذكر كلامه في الحث على الثبات والإقدام على قتال الأعداء .

قال : فقال أسد الدين : هذا الرأي وبه أعمل، وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله ، وكثر الموافقون لهم ، واجتمعت الكلمة على القتال .

فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها ، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه : إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أني فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدُقوهم القتال، ولاتُهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدَّامهم بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار هو من شجعان عسكره جمعًا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ماذكره وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين، ومعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معهم على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج، الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر ، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم قفرا فانهزموا أيضًا .

وكان هذا من أعجب مايُؤَرَّخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل (١).

في هذا الخبر مثل من الشجاعة الفائقة والخطط الحربية الناجحة، فقد صمد ألفان لجيش يفوقهم عدة أضعاف في العَدد والعُدد وتغلبوا عليهم ، ولقد كان من أسباب هذا التفوق أن جيش أسد الدين كانوا يقاتلون عن إخلاص لقضيتهم ، فكانوا يبذلون قدرًا كبيرًا من طاقتهم.

ومن أسباب ذلك ماقام به أسد الدين من إعداد تلك الخطة الحربية الرائعة التي فرَّقت قوة الأعداء وشلَّت من حركتهم ، فقد كان لها الأثر الأكبر في انتصاره وخذلان أعدائه .

ولايغيبنَّ عن البال أن الذين حضروا المعركة من المصريين كانوا من النفعيين الذين رضوا بأن يقفوا مع الصليبيين في صف واحد ، أما أهل الاستقامة فإنهم مبعدون عن إدارة الأمور والمشاركة في الحروب لفساد الحكم آنذاك ، ومما يدل على ذلك أنه لما توجه أسد الدين إلى الاسكندرية ساعده أهلها وتسلَّمها بدون قتال، لأنهم يتمنون حكمه بدلا من حكم عملاء الصليبيين ، وحينما حاصرها الصليبيون وعملاؤهم صمد أهلها مع صلاح الدين ثلاثة أشهر وكان أسد الدين قد أنابه عليها (٢).

ولقد كان للمسلمين المصريين الصادقين مواقف عالية في نصرة

---

(١) الكامل ٩/ ٩٤ - ٩٥ .

(٢) الكامل ٩/ ٩٥ .

الإسلام والمسلمين ، فعلى يد جيشهم - بالدرجة الأولى - تم دحر التتار الذين عاثوا فسادًا في بلاد الإسلام بقيادة قطز في معركة عين جالوت ، وبمشاركتهم الفعالة تم القضاء على الصليبيين في الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين .

ومع هذا الانتصار الكبير لأسد الدين فإنه قد رحل بجيشه عن مصر، ولعل سبب ذلك قلة جيشه حيث لايتمكن من إبقاء حوامي في البلاد التي يستولي عليها، لكنه عاد بجيشه بعد سنتين إلى مصر لما قوي أمر الصليبيين فيها ، وكانوا قد أبقوا بعض شجعانهم في مصر يشرفون على الحكم فيها ويتولون جباية الأموال المقررة لهم على أهل مصر، وقد حكموا على المسلمين حكما جائراً وآذوهم أذى شديداً.

ولما رأى هؤلاء النصارى ضعف الحكم في مصر كاتبوا أمير النصارى في الشام وهو « مَرِي » وهو من أشدهم شجاعة ومكراً ودهاء ، فزينوا له غزو مصر لخلوها من المدافعين عنها ، وقدْ فَهِم لدهائه أن ذلك خطر على النصارى في الشام ، لأن ذلك يُحرِّض نور الدين عليهم، وأنه لو أرسل أسد الدين إليها لكان هلاك النصارى في الشام لأن نور الدين سيغزوهم من الشمال والشرق وأسد الدين سيغزوهم من الجنوب ، ولكنه لم يستطع إقناع كبراء دولته الذين أصروا على غزو مصر بحجة أنهم سيملكونها قبل أن يتحرك نور الدين. وَجَدَّ النصارى في السير إلى مصر ، واستولوا على بعض بلادها، وكان أمير مصر العاضد العبيدي، ووزيره شاور وهو الذي بيده الحكم .

وأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع النصارى ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهم من الفرنج، فشرع في تسيير الجيوش وكان قبل ذلك قد علم بتحرك الفرنج فبدأ يضم جيوشه إليه .

أما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها، فراسلهم شاور وذكر لملك الفرنج مودته لهم وخوفه من أن يقدم جيش نور الدين فيستولي على مصر ، واتفقا على الصلح على أن يدفع شاور للفرنج ألف ألف دينار ويرجعون إلى بلادهم، فاستطاع أن يعطيهم مائة ألف واستمهلهم في البقية حتى يجمعه من الناس ولكنه لم يستطع ذلك لأنه كان قد أحرق بلادهم حتى لايستولي عليها الفرنج فذهبت أموالهم .

وقد توالت كتب أهل مصر إلى نور الدين يستمدونه ويطلبون منه إنقاذهم من الصليبيين ، فبعث إلى أسد الدين ليوليّه على جيش مصر وكان في حمص حيث كان واليا عليها، فما شعر به نور الدين إلا وهو على أبواب حلب ففرح نور الدين بقدومه وتفاءل من ذلك، وكان أسد الدين قد وصلته أيضًا كتب استغاثة من مصر، فأمر نور الدين بتجهيز الجيش ، وأعطى أسد الدين مائتي ألف دينار للإنفاق على الجيش سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأعطاه حرية التصرف في إدارة الجيش ومواجهة الأعداء ، واختار من العسكر ألفي فارس إلى جانب ستة آلاف من غيرهم، وبعث معه نور الدين

عـدداً من الأمـراء ، ومنهم صـلاح الدين بن يوسف ابن أخي أسـد الدين وكان صـلاح الدين كارها لذلك المسـير لِماَ واجـهه من الأهوال حينما حوصر في الإسكندرية،ولكن نور الدين ألزمه بالمسير مع عمه.

وسار أسد الدين مُجداً مُنتصَفَ شهر ربيع الأول ، من عام أربعة وستين وخمسمائة ، فلمـا قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخُفَّي حنين خائبين، وسـمع بذلك نور الدين ففرح به وأمر بضـرب البشائر في البلاد ، واعتبر رحيلهم فتحًا وهزيمة كبرى لهم .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة واجتمع بأمـيرها العاضد وفرح به أهل مصر .

أما شاور بن الخياط وزير حاكم مصر فإنه ساءه مجيء أسد الدين شيركوه وعزم على دعوته ثم القبض عليه، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عزمت عـلى هذا الأمر لأُعَرِّفنَّ شـيركوه ، فـقال له أبوه : والله لئن لم نفعل هذا لنُـقتلنَّ جميـعا ، فقال : صـدقت ولأَنْ نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خـير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئـذ لو مشى العاضد إلى نـور الدين لم يرسل معه فارسـا واحداً ويملكون البلاد ، فترك شاور ماكان عزم عليه .

ولعل أمراء أسد الدين عرفوا بماعزم عليه شاور فعزم بعضهم على قتله وعلى رأسهم صلاح الدين فنهاهم عن ذلك أسد الدين، ولكنهم ظلوا على عزمهم ، وانتهزوا فرصة مجـيئه مع حاشيته يسأل عن أسد الدين فأخبروه أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي فسايره صلاح الدين

ومن معه وألْقَوه عن فرسه وهربَتْ حاشيته فأخذوه أسيراً ولم يُمكنهم قتله إلا بعد إذن أسد الدين فحضر ولم يُمْكنه إلا إتمام مابدؤوا به .

وسمع بذلك أمير مصر العاضد فطلب رأس شاور وتابع الرسل في ذلك فقُتل وأُرسل إليه رأسه في السابع عشر من ربيع الآخر، وتجمهر الناس فأمرهم العاضد بنهب دار شاور فانتهبوها .

وسار أسد الدين إلى قصر العاضد فقلَّده الوزارة ولُقِّب المنصور أميرَ الجيوش ، وصار هو صاحب الأمر والنهي في مصر، ولكنه لم يُمْهَل طويلا حيث توفي في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام (١) .

ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : أن الحاكم الصالح يحفظ الله تعالى به البلاد والعباد، ويحميهم بحسن تدبيره من شرور الأعداء ، ويتحقق على يديه الأمن والرخاء ، وذلك لأنه يختار لمؤازرته وتدبير أموره أهل الاستقامة والشجاعة والرأي السديد ، فيستخلص أفضل عناصر الأمة ليكونوا هم الذين يدبرون أمورها ويحمونها ،ففي السلم أمن ورخاء ، وحماية للضعفاء من ظلم الأقوياء ، فإذا دهم العدو البلاد قام الرجال الأكفاء لحمايتها وفَدَوا أمتهم بأرواحهم وأموالهم .

أما الحاكم النفعي الذي لايهمه إلا مصالحه الخاصة فإنه يخشى من أهل الكمال والفضل لأنهم لايوافقونه على تجاوزاته ، فيقرِّب النفعيين من أمثاله الذين لايهمهم إلا مصالحهم ، ويستوي عندهم أن يحكمهم

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٩٩ - ١٠١ .

حاكم مسلم أو كافر، ففي السلم ظلم واعتداء على الآمنين، وتسلط من الأقوياء على الضعفاء ، فإذا دهم البلاد عدو فإن هؤلاء النفعيين لايستطيعون حمايتها لأنهم متفرقون حيث لايجمعهم هدف واحد مشترك ، بل هدف كل واحد منهم تأمين مصالحه الخاصة .

وهكذا كان وضع بلاد مصر في ذلك الزمن ، حيث استولى عليها الصليبيون دون مقاومة .

هذا الشعب العظيم الذي لم يستطع حماية بلاده من الصليبيين هو الذي كان له إسهام كبير في القضاء على الصليبيين في الشام بعد سنوات معدودات ، وكان الفارق بين الأمرين هو تغيُّر السلطة الحاكمة، حيث انتقلت إدارة البلاد من العُبَيديين إلى الأيوبيين، وذلك بما قام به صلاح الدين الأيوبي من إبعاد النفعيين وتقريب أهل الكفاءة والأمانة .

ثانيًا : من حسنات نور الدين محمود أنه اختار أسد الدين شيركوه الأيوبي لقيادة جيوشه في عدة وقائع مع الصليبيين ، وكان شجاعًا مقداما ، ومع ذلك فإنه كان ذا رأي حصيف في تدبير الحروب، وقد طارت له سمعة عالية بين أعداء الإسلام من النصارى حتى صار اسمه مرعبا لهم ، ولاأدل على ذلك من قول الكامل بن شاور إنك إذا قبضت على شيركوه عاد الفرنج واستولوا على البلاد، فقد كان معلوما لدى المجتمع آنذاك أن جلاء الفرنج من مصر كان بسبب رعبهم من أسد الدين لشجاعته وطاعة جيشه له .

ثالثًا : موقف جليل للكامل بن شاور حيث نهى أباه عن تدبير

خطة للقــبض على أسد الدين شــيركــوه وأبان له بأن مصــلحة مــصر والإسلام في بقــاء أسد الدين حــتى لايرجع الصليبــيون إلى مــصر، وهذا يدل على إخلاصه للإسلام ولأمته .

* * *

٥ – جهاد صلاح الدين الأيوبي –

هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بـن شاذي ، ولد بتكريت في لعراق، وانتقل به أبوه إلى الشام حيث أصبح أبوه من أمراء نور الدين محـمود، ثم أصبح صلاح الدين مـن قادته وشارك عمـه أسد الدين ميركوه في القضاء على الصليبين والعبيديين في مصر، إلى أن آل إليه حكم مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه .

ولما توفي السلطان نور الدين محمود صار بين صلاح الدين وأبناء ور الدين نزاع حتى آل الأمر إلى ظهور صلاح الدين وشملت سلطنته مصر والشام والجزيرة وغيرها .

وكان رحـمه الله عادلا كريما حليـما صبـورا على مايكره، ومن خبار زهده وكرمـه أنه مات ولم يخلف إلا ديناراً وأربعين درهما، مع سعة سلطانه (١) .

غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة :

ذكر المؤرخ ابن الأثيـر أن صلاح الدين الأيوبي سار في عام سـتة ستين وخمـسمائة من مصر وأغـار على أعمال عسـقلان وغزة وأتاه ملك الفـرنج في قلة من العسكر مـسرعين لرده عن البـلاد فقـاتلهم هزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن كاد أن يؤخذ أسيرا .

---

(١) الكامل ٩/١٠٢ ، ١٣٠ ، ٢٢٥ ، وكانت إمرته على مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيـركوه ، وذلك في عام أربعـة وستين وخمسـمائه وذلك في أواخر حكم العـاضد الحاكم العبيدي الذي كان حاكما بالاسم فقط ، ثم ضم صلاح الدين إلى حكمه الشام وغيرها بعد وفاة نور الدين إلى أن توفي في عام تسعة وثمانين وخمسمائة .

وعاد صلاح الدين إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال في البر ، وقصد أيلة ، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيلة برًا وبحرًا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر[1] .

موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة سبعين وخمسمائة أن أسطولا بحريًا حربيا خرج من صقلية لغزو مصر ، وهو مكون من مائتي سفينة تحمل الرجال وست وثلاثين تحمل الخيل ، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأزواد، وأن عدد المقاتلين خمسون ألفا من الرجالة وألف وخمسمائة من الفرسان، وكانت تلك الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة عام تسعة وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة .

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة ، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات ، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم .

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو

---

(1) الكامل ٩/ ١١٠ .

عنهم ، ودام القتــال أول يوم إلى آخر النهــار ثم عاود الفرنج القــتال اليوم الثاني وجدُّوا ولازمـوا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ، ووصل ذلك اليـوم من العساكـر الإسلاميـة كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقـويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القــتال والصــبر ، فلمــا كان اليـوم الثالــث فتح المسلمـون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارُّون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتـد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته، ولم يزل القــتــال إلى آخـر النهــار ودخل أهــل البلد إليـه وهم فـرحــون مســتبشـرون بما رأوا من تباشيـر الظفر وقـوتهم وفشل الفرنج وفـتور حربهم وكثر القتل والجراح في رجالتهم .

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسيَّر مملوكا له ومـعه ثلاث جنائـب ليجـدَّ السيـر عليـها إلى الإسـكندرية يبشـر بوصوله، وسيــر طائفة من العسكر إلى دميــاط خوفا عليها واحـتياطا لهــا، فسار ذلــك المملوك فوصل الإسكندرية من يومـه وقت العـصر والناس قـد رجعـوا من القــتـال فنادى في البلد بمجيء صـلاح الدين والعساكر مسرعين، فلمــا سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال مابهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله .

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عـساكره فسُقط في أيديهم وزادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى

خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة ، وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربَّوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين، واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم (١) .

في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة ، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي .

ولقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرا في العَدد والعُدد ، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم .

ونجد في هذا الخبر موقفا فدائيًا في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فغرقوها ، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٢٩ - ١٣٠ .

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيراً من جنودها وعدداً كبيراً من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل.

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام ، فإن الجهاد يجب على كل قادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء.

موقعة حِطّين (١) :

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام ومعه جيش من مصر وممن قدموا معه من الشام ، فلما وصل أرسل إلى بقية أطراف الشام وإلى المشرق يطلب اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين ، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة، وذلك في عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة .

واستشار صلاح الدين أمراءه في كيفية قتال الأعداء ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يُضعف الصليبيين بشنٍّ الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة ، فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لاتجري بحكم الإنسان ، ولانعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد .

ثم سار بجيشه حتى خلَّف طبرية خلف ظهره، وتقدم حتى قارب

(١) هي قرية قرب طبرية وقعت حولها المعركة .

الصليبيين وهم في خيامهم لم يفـارقوها، فأمر العسكر بالنزول، فلما جنَّه الليل جـعل في مقابل الصلـيبيين من يمنعـهم من القتـال، وسار بطائفة من الجيش إلى طبرية وقاتل أهلها ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بهـا إلى القلعة التي لها فامـتنعوا بها، وفيها أميرتها النصرانية ومعها أولادها .

فلما سمع الصليبيون بذلك اجتمـعوا للمشورة فاستقر رأيهم على التقدم لقتال المسلمين ، وهذا هو الذي أراده صلاح الدين من مهاجمة طبرية ، وتقدموا حتى قربوا من معسكر المسلمين .

فلما سمع بذلك صلاح الدين عاد من طبرية ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء ، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الصليبيون العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك المـاء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ماهناك من الصهاريج، ولم يتـمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم .

أما المسلمون فإنهم باتوا يحرض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكلما رأوا الصليبـيين على خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمـعهم وجـرأتهم، فأكثـروا التكبير والـتهليل طول ليلتهم، وكـان السلطان صلاح الدين قد عـبَّى جيشه ونظمـه وجعل الرماة في المقدمة .

يوم المعركة :

أصبح صلاح الدين والمسلمـون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، فركبوا وتقدموا إلى الصليبيين، فركب الصليبيون ودنا بعضهم

من بعض ، وأمر السلطان الرماة أن يرشقوا الأعداء بنبالهم ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحمل المسلمون على أعدائهم فاقتتلوا أشد قتال، وصبر الفريقان ، وأثخن رماة المسلمين في الأعداء فقتلوا كثيرا من خيولهم .

وتوجه الصليبيون نحو طبرية لعلهم يَرِدُون الماء،فلما علم صلاح الدين بمقصدهم صدهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر في وجوههم،وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم،والناس مطيعون له .

وقد حمل مملوك من مماليك صلاح الدين على الأعداء حملة قوية فقاتل قتالا عجب منه الناس، ثم تكاثر الأعداء عليه فقتلوه ، فعند ذلك حمل المسلمون حملة قوية ضعضعوا بها الكفار وقتلوا منهم كثيرا .

ولما اشتد القتال عليهم أدرك « القمص» حاكم طرابلس أنه لاطاقة لهم بقتال المسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم، وكان المقدَّم في تلك الناحية تقيُّ الدين عمر بن أخي صلاح الدين، فأدرك أنهم منهزمون يريدون الفرار فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه .

فلما انهزم القمص فتَّ ذلك في أعضادهم وكادوا يستسلمون ، ثم علموا أنه لاينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا حملات متوالية كادوا يزيلون المسلمين - على كثرتهم - عن مواقفهم لولا لطف الله تعالى بهم .

وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض نارًا وكان الحشيش

كثيراً فاحترق ، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إلى الأعداء، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال.

ولم ينفع الأعداء إقدامهم ومحاولة كسب المعركة لأنهم في كل حملة يفقدون عدداً كبيراً منهم لشدة ثبات المسلمين وبسالتهم ، فوهن الأعداء لذلك وهنا عظيما ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقي منهم إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعهم المسلمون عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة إلا خيمة ملكهم .

وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم، الذي يسمونه صليب الصلبوت، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك .

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة من الصليبيين ، يقول الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي : كنت إلى جانب أبي في ذلك المصافّ ، وهو أول مَصَافٍّ شاهدته ، فلما صار مَلِك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي ، قال : فنظرت إليه وقد علَتْه كآبة واربَدَّ لونه وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد

الفرنج فحملوا حملة ثانيـة مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل مافعل أولا ، وعطف المسلمون عليـهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضًا هزمناهم ، فـالتفت والدي إلي وقال : اسكت ، مانهـزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي إذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجـد شكرا لله تعالى فبكى من فرحـه ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخـلاص طريقـا ، فنزلوا عن دوابهم وجلسـوا على الأرض فـصعـد المسلمون إليهم فألقوا خيـمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرياط صـاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدَّم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا .

وانتـهت المعـركـة بانتصـار حـاسم للمـسلمين وانهـزام سـاحق للصليبـيين، وقد كثـر فيهـا القتلى والأسرى مـنهم حتى إن من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدًا ، وماأصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمثل هذه الوقعة ، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفا وبلغ عدد الأسرى منهم ثلاثين ألفا .

فلما فـرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خـيمته وأحـضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فـسقاه ماء مـثلوجا فشرب وأعطى فـضله البرنس

صاحب الكرك، فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ، ثم كلم البرنس وقرَّعه بذنوبه وعدَّد عليه عوراته ، ومن ذلك أنه سب الرسول ﷺ ، وعزم على غزو مكة والمدينة ، وقتل الحجاج غدرا ، وكان صلاح الدين قد نذر مرتين أن يقتله إن ظفر به ، فقام إليه بنفسه فقتله ، فلما قتله وسحُب وأُخرج ارتعدت فرائص ملك الصليبيين فسكَّن السلطان جأشه وأمَّنه (١).

هذه المعركة العظيمة تعتبر من المعارك الفاصلة في حياة المسلمين ، حيث ترتب عليها فتح القدس وكثير من المدن والحصون التي كان الصليبيون قد استولوا عليها .

وهذا اللقاء الكبير هو الذي كان يخطط له نور الدين محمود حينما بذل جهودا كبيرة في توحيد بلاد الشام ومصر حيث كان لايستطيع في بلاد الشام وماجاورها أن يجمع نصف هذا الجيش، فكانت كل حروبه تقليصا لوجود الصليبيين وإضعافا لهم ، ولكن حينما انضمت مصر إلى سلطنته خطط لحرب شاملة يطوِّق بها الصليبيين من الشمال والجنوب ، ولكن وافته المنية قبل أن يتم ذلك، فاستثمر صلاح الدين تلك الجهود الكبيرة وأكمل مابدأه نور الدين ، وكانت على يديه هذه المعركة الكبيرة الفاصلة .

وقد ظهرت لصلاح الدين وجيشه مواقف عالية ، منها أولا : رأيه في مواجهة الأعداء الذي خالف فيه قادته حيث كان رأيهم تفريق

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/١٧٦ - ١٧٩ .
والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/٣٤١ - ٣٤٣ .

الجيش في سرايا تهاجم حصون الأعداء حتى يتم إضعافهم، بينما كان رأيه مواجهة جمع الأعداء بجمع المسلمين ، فكان رأيه أسدَّ من آرائهم وأعظم نفعا للمسلمين ونكاية في أعدائهم .

ثانيًا : إغارته على طبرية ليلجئ الأعداء إلى مغادرة مكانهم ومواجهته في المكان الذي أراد أن تكون المعركة فيه ، فكان له ماأراد ، وكان ذلك من عوامل انتصار المسلمين واندحار أعدائهم .

ثالثًا : أن أفراد الجيش الإسلامي ظلوا طوال ليلة المعركة يكبرون الله تعالى ويهللون ، وقد جاء في بعض الأخبار أن صلاح الدين كان يتفقد جيشه تلك الليلة فوجدهم مابين ذاكر ومصلٍّ وتالٍ لكتاب الله تعالى ماعدا أصحاب خيمة واحدة وجدهم نياما ، فقال : إن أُتينا غدا فإنما سنُؤْتَى من هذه الخيمة فأيقظ أهلها وسرَّحهم إلى دمشق .

وهذا يدل على وعي السلطان صلاح الدين وفهمه الثاقب لعوامل النصر الأساسية ، كما يدل على صلاح أفراد ذلك الجيش الذي تم على يده النصر الحاسم للإسلام والمسلمين .

رابعًا : في تلك المعركة انتصر المسلمون على عدو يبلغ أضعافهم، حيث جاء في نهاية خبر المعركة أن عدد قتلى الصليبيين ثلاثون ألفا وعدد أسراهم ثلاثون ألفا ، وقد استطاع ثلاثة آلاف منهم الفرار، وهذا يعني أنهم كانوا ثلاثة وستين ألفا ، بينما كان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفًا سوى المتطوعين الذين لم يُذكر عددهم، والظاهر أن عددهم قليل لايلفت النظر إذ لو كانوا كثيرين لكان هناك اهتمام ببيان عددهم، فالمسلمون إذًا واجهوا أضعافهم، إضافة إلى

عامل مـهم ظاهره أنه لصالح المسلمين وحقـيقته أنه لصـالح الأعداء، وهو كـون الأعداء قـد حيل بينهم وبين المـاء ، وليس بينهم وبينه إلا جيش المسلمين ، وهذا عادةً يكون دافعا إلى استماتة المقاتلين وإقدامهم ليختـرقوا صفوف أعدائهم حتـى يصلوا إلى الماء ، وقد كان ذلك من الصليبيين ، ولكنهم وُوْجِـهوا بثبات قوي وبسـالة عالية من المسلمين، حيث استطاعوا صد هجماتهم وإعادتهم إلى الوراء أكثر من مرة .

وقد جرى على المسلمين قديما - بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - موقف مشابه ، حيث واجهـوا أعداءهم وليس معهم ماء وكان الأعداء على الماء ، فشكى المسلمون هذا الأمـر لخالد فأفادهم بأن الماء سيـصيـر لأصبر الفـريقين ، وصار للمـسلمين الذين صبـروا وهزموا أعداءهم من الفرس .

خامسًا : من المواقف العالية للسلطان صلاح الدين الأيوبي أنه لما حـمل الأعداء حـملة شديدة على المسـلمين وتراجع المسلمون حـتى لحقوا به قـال : « كذب الشيطان » فهذا دليل على أنه لم يعـتمد على الأسبـاب المادية وإنما كان حاضـر القلب مع الله تعالى مـدركا أنه هو ولي المؤمنين وأن الشـيطان ولي الكافـرين ، فهـو بهذا الكلام يدحـر الشيطان الرجيم الذي يفـرح بما ينال المسلمين من هزيمة ، ويُشعره بأن ظنونه كـاذبة وأن مـاحـصل للمـسلمين إنما هو أمـر عـارض ، وأن المسلمين سيثبتون وستكون نهاية المعركة لصالحهم .

إن أول ماتبـادر إلى ذهنه من هول ذلك المشهد هو دحـر الشيطان وتكذيب ظنونه، وهذا يعني أن فـكره مرتبط برجـاء نصر الله تعـالى

وتأييده ، ليخيب ظن الشيطان وجنوده ، وهذا يكشف لنا عاملا مهما من عـوامل نجاح السلطان صـلاح الدين في إقامـة دولة كبـرى تحكم بالإسلام وتتحاكم إليه وتنصره وتدافع عنه .

فتح بيت المقدس :

كان فتح بيت المقدس هو الهدف الأعظم من كل الجهاد الذي قام به السلطان نـور الدين مـحـمود ومـن بعـده السلطان صـلاح الدين الأيوبي .

ولقد كان من براعة صلاح الدين وتخطيطه الحربي العبقري أنه بدأ بالاسـتيـلاء على المدن السـاحلية التي بيـد الصليـبيين حـتى لاتكون محطات لنزول حملة صليبية جـديدة ، ولقد كان الاستيلاء على بيت المقدس من قِبَل المسلمين أمرًا كبيرا على النصارى في العالم، فقد كان هناك احتـمال أن يقوم المنكوبون في حطين بطلب النجـدة من الممالك الأوربية ، فـبدأ صلاح الـدين بأقرب بلد إليه وهي طبـرية فاسـتولى عليها، ثم فتح مدينة عكا بعـد حصارها والصلح مع أهلها ثم راسل أخاه العـادل نائبه على مصـر ليغزو المدن الساحليـة القريبة منه فـفتح «مجدل يابا » و « يافا » .

ثم فرَّق صـلاح الدين عسـكره مدة إقامـته بعكـا ، ففتح قـادته الناصرة وقـيسارية وصفـورية ومعليا والشـقيف والفولة وغـيرها من البلدان المجاورة لمدينة عكا .

ثم تولى صلاح الدين فـتح مدينة بيروت وصيدا وتـبنين وجبيل، وبقي من المدن الساحلية الشـمالية مدينة صور التي تجمَّع بـها أكثر من

خرجوا من بلادهم من النصارى ووَلَّوا أمرهم « المريكش» أحد التجار القادمين عليها ، فكان أمرها يحتـاج إلى مرابطة طويلة فتركها صلاح الدين حتى لاتشغله عن فتح بيت المقدس .

وقد رجع السلطان جنوبا إلى القـدس ولكنه قدَّم عليها عـسقلان فحاصرها بعد أن التقى بأخيه العـادل نائبه على مصر ومعه جيش من مصـر، ففـتحهـا صلحا بعـد حصار دام أربعـة عشـر يوما ، ثم بث السرايا ففتح غزة والرملة والداروم وغيرها (١) .

ولما تم فـتح ماحـول القدس وتم تأمين السـاحل توجـه السلطان صلاح الدين بـجيشـه نحو بيت المقـدس وكان بهـا جمع كـثيف من النصارى إلى جانب من لجأ إليها من موقعة حطين ومن عسقلان وغير ذلك ، وكانوا جـميـعا يرون الموت أهون من أن يملك المسلـمون بيت المقدس وحـصَّنوا سوره ونصبـوا عليه المجانيق ليـمنعوا من يريد الدنو منه، وصعدوا على سـوره بِحدِّهم وحديدهم وقد عـزموا على حفظه والذب عنه .

وقـد وصل جيش المسلمين إلى الـقدس في منتـصف رجب سنة ثلاث وثمانين وخـمسمـائة ، فرأى المسلمون على سـوره من الرجال ماهالهم ، وسمعوا لأهله من الغَلَبَة والضجيج داخل المدينة مااستدلوا به على كثرة الجمع .

وبقي صلاح الدين خمـسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن السور في غـاية التحصين، فلم يجد عليه مـوضع قتال إلا

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٧٩ - ١٨٢ .

من جهة الشمال ، فانتقل إلى هذه الجهة ونصب المنجنيقات ، وبدأ القتال بالرمي من الطرفين، وتقاتلوا أشد قتال رآه الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا حتما واجبا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

وكان خيَّالة الأعداء يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيُقتل من الفريقين ، وممن استشهد الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكابر الأمراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يقاتل بنفسه كل يوم ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم إلى القدس .

ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم ، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ، حتى يتمكن المسلمون من نقب السور، فلما نقبوه حشوه بالمواد وفجروه فسقط السور والبرج الذي عليه .

فلما رأى ذلك الفرنج اجتمع مُقَدَّموهم فتشاوروا واجتمع رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس لصلاح الدين ، فأرسلوا جماعة من أعيانهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال: لاأفعل بكم إلا مافعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء سيئة بمثلها .

فلما رجعت رسلهم خائبين لم يظفروا بالصلح أرسل كبيرهم باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في أمر

الصلح فـأجيب إلى ذلك وحـضر عنده ورغب في الأمـان فلم يجـبه واسـتعطـفه فلم يعـطف عليه ، فلـما أيس من ذلك قـال له : أيهـا السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لايعلمه إلا الله تعالى، وإنما يفترون عـن القتال رجاء الأمان ظنا مـنهم أنك تجيبهم إليـه كما أجبت غيـرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحـياة ، فإذا رأينا الموت لابد منه فو الله لـنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحـرق أموالنا وأمتـعتنا ولانترككم تغنمون منها ديناراً واحـدا ولادرهما، ولاتسبُون ولاتأسرون رجلا ولاامرأة، وإذا فـرغنا من ذلك خَرَّبْنا الصخرة والمسـجد الأقصى وغيـرهما من المواضـع ،ثم نقتل من عندنا من أسـارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ،ولانترك دابة ولاحيوانًا إلا قتلناه،ثم خرجنا إليكم كلنا فقـاتلناكم قتال مـن يريد أن يحمي دمه ونفـسه،وحينئـذ لايُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراما .

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمـان للفرنج، فاستقر أن يُؤخذ من الرجل عشـرة دنانير يستـوى فيه الـغني والفقيـر ويؤخذ من المرأة خمـسة دنانير ومن الطفل ذكـرًا أو أنثى ديناران ، فمن أدَّى ذلك إلى أربعين يوما فـقد نجا ، ومن انقـضت الأربعون يومـا عنه ولم يُؤدِّ ما عليه فقد صار مملوكا .

فبـذل ياليـان عن الفقـراء ثلاثين ألف دينار ، فأجـيب إلى ذلك وسُلِّمت المدينة يوم الجمـعة السابع والعشريـن من رجب ، وكان يومًا مشهودًا ورُفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها .

ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ، فَفُعِل ذلك ، وأمر أن يُعْمَل له منبر فقيل له : إن نور الدين محمودًا كان قد عمل بحلب منبرًا أمر الصُّنَّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا عَملْنَاه لِيُنْصَبَ بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين ، ولم يُعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره فحُمل من حلب ونُصب بالقدس ، وهذا من حسنات نور الدين وبُعد همته وطموحه رحمه الله تعالى (١) .

وهكذا فُتح بيت المقدس للمرة الثانية في الإسلام وقد حاز شرف المرة الأولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحاز شرف الثانية السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شرف كبير أن يُقرن الثاني بالأول.

ومن المواقف الجليلة في هذا الحصار إقدام أبطال المسلمين على الزحف إلى سور المدينة وتجاوُزُهم الخندق الذي وضعه الأعداء لحمايتهم ، ثم قيامهم بنقب السور مع كثرة الرماة الذين هم فوق السور، وبإقدام هؤلاء الأبطال تم فتح بيت المقدس وانتصار المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الجهادية التي تم فيها الانتصار الحاسم على الصليبيين في حطين وفتح بيت المقدس وعدد من المدن والقلاع . . بعد ذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ليستريح جيشه ثم يواصل الجهاد بعد ذلك ، وكتب إلى البلاد جميعا باجتماع العساكر بدمشق.

ولما عاد إلى دمشق وجد وكيل الخزانة الصفيَّ بن الفايض قد بنى

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٢ - ١٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٤ - ٣٤٧ .

له داراً بالقلعة هائلة مطلَّة علـى الشرف القبلي، فغضب عـليه وعزله وقال: إنا لم نُخلَق للمـقام بدمشق ولابغيـرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبـادة الله عز وجل والجهاد في سـبيله ، وهذا الذي عملتـه مما يثبط النفوس ويُقعدها عما خلقت له (١).

وهكذا نرى السلطان صـلاح الدين يسمـو عن متطلبـات النفوس القريبة ، إلى متطلبات النفوس الطموحة العالية .

إنه لايهدأ له بال ولايقر له قرار وهو يرى بقـايا الصليبيين مازالوا في بلاد الإسلام .

فكيف يسـعد بالإقامـة في القصـر المنيف والجنان الوارفة وعُـبَّاد الصليب ينتهكون بلاد الإسلام ويُذلُّون المسلمين ؟!

إن الإقامة في القصـور والنعيم تعتبر بالنسبـة لهذا البطل الطموح سجنًا للقلب الحي ، وإعاقة للفكر الوثاب .

إنه لايَسعد بسمـاع لحن مُطرب ولاكلام مُعجب، ولاثناء منمَّق، ولاتستجيشـه رؤية القصور المنيفة وماتحتوي عليـه من شهوات ونعيم، وإنما يسعد بسماع صهيل الخيل ، وقـعقعة السلاح، ومقارعة الأقران، والنصر المؤزر على الأعداء .

فلذلك غضـب على وكيل الخزانة الذي قـصرت همـته، وتَدَانَى طموحه إلى بناء قصر يستقبل به السلطان .

أو ليس خـالد بـن الوليد رضي الله عنه يقول : ماليلة تُهدَى إليَّ

---

(١) البداية والنهاية ١٢/٣٥١ .

فيها عروس أنَالَها محبٌ بأحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد أُصبِّح فيها العدو بسريَّة من المهاجرين !

إنه وأمثاله سلف صالح عظيم لخلف مبدع طموح من أمثال هذا السلطان الكبير .

فتح قلعة برزية :

قام صلاح الدين برحلة جهادية نحو الساحل الشمالي للشام وذلك في عام أربعة وثمانين وخمسمائة حيث فتح بعض المدن والقلاع الحربية . فمن هذه القلاع قلعة « برزية » وكان أهلها يقطعون الطريق على المسلمين ويبالغون في أذاهم ، فوصلها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، ونزل غربيًّها ، وهي الجهة التي يمكن قتالها منها، وليس معه إلا قلة من جيشه لضيق مسالكها، ونَصَب المسلمون المنجنيقات، ونصب أهل القلعة منجنيقا أبطل منجنيقات المسلمين لعلُوٍّ مكانه ، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه ، فقسَّم عسكره ثلاثة أقسام ، يزحف قسم فإذا تعبوا عادوا ، وزحف القسم الثاني، ثم الثالث ، ثم يدور الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج حيث إنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا سلَّموا القلعة .

فتقدم القسم الأول وزحفوا إلى الأعداء ، وخرج الفرنج من حصنهم فدافعوا وكان يساعدهم ارتفاعهم فكانوا إلى جانب السلاح يَدَحْرجون الحجارة الكبيرة على المسلمين ، فلما تعبوا نزلوا وخَلَفهم القسم الثاني وكان الزمان حراً فاشتد الكرب على الناس، وكان صلاح

الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين أخوه كذلك ، وكانت تلك نوبة القسم الخاص بصلاح الدين ، فقاتلوهم إلى الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وردَّهم وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبِّين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم ، وجاء الفرنج مالا قِبَل لهم به، وكان أصحاب القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضًا معهم، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فخالطهم المسلمون فدخل الفرنج حصنهم فدخل معهم المسلمون .

وكان طائفة قليلة من المسلمين في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يروا فيه مقاتلا. وليكثُروا في الجهة التي فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهم مانع ، فصعدوا أيضًا الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج ، فملكوا الحصن عنوة ودخل الفرنج «القُلَّة»[1] التي للقلعة وأحاط بهم المسلمون، وأرادوا نقبها، وكان الفرنج قد رفعوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلة، وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة، وأخذوا مافيها وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله .

ذكر ذلك المؤرخ ابن الأثير وكان قد حضر ذلك الحصار ثم قال:

---

(١) يعني أعلى القلعة وهو مكان محصَّن .

ومن أعجب مايُحكَى من السـلامة أنني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شماليَّ القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبيَّ القلعة ، وهو يَعْـدُو في الجبل عرضا، فـأُلقيَتْ عليه الحجـارة وجاءه حجـر كبير لَوْ نَالَـه لبَعجَه ، فنـزل عليه فناداه الناس يحـذرونه ، فالتـفت ينظر ما الخـبر فـسقط على وجـهه من عـشرة ، فاسترجع الـناس وجاء الحجر إليه فلما قـاربه وهو منبطح على وجهه لقيـه حجر آخر ثابت في الأرض فـوق الرجل فضربه المنحـدر فارتفع عن الأرض ومَـرَّ من فوق الـرجل ثم سقط علـى الأرض من جانبـه الآخر لم ينلـه منه أذى ولاضرر ، وقام يعـدُو حتى لحق بأصـحابه، فكان سبب نجاته ، فتَعِسَتْ أم الجبان ! [1] .

فهذا الخبر فيه مواقف وعبر فمنها :

أولا : أن هؤلاء الصليـبيين الذين انـخدعـوا بحصنهم الحـصين فصاروا يقطعون الطريق وينهـبون أموال الناس لم يُمهَلوا بل سلط الله تعالى عليـهم هذا السلطان القوي فأخـذهم شر أخذة وأصبـحوا أذلة مملوكين بعد أن كانوا يملكون أموال الناس بالقوة ، فلا ينخدعَنَّ مبطل مفـسد فإن هنـاك أيْدٍ قويةً عادلة قـد أُعدَّت له إلى جـانب عذابه في الآخرة.

ثانيًا : فـيه مـثل من حزم السلطان صـلاح الدين وابتكار الطرق الحربية غير المألوفـة إذا تعذر استعمال المألوفة، فحينمـا بطل استعمال المنجنيق عوَّض ذلك باستثماره كثرة جـيشه فجعلهم أقسامًا يتناوبون ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٩٣ - ١٩٤ .

وحوَّل الوقت كله إلى قتال حتى استنفد كل طاقة الأعداء فسلَّموا أنفسهم ، وهكذا يفعل القائد المبدع حيث يضع الأمور مواضعها ويجعل لكل حال لبوسها .

ثالثًا : مثلٌ من إقدام المجاهدين على المغامرة وإن كان هناك من يكفيهم ولم تَصْدُر لهم أوامر ، وقد تمثَّل ذلك في مشهدين : الأول حينما قام أصحاب القسم الأول الذين انتهت نوبتهم فقاتلوا مع إخوانهم ، والثاني :حينما قام الذين خُلِّفوا في الخيام فتسوَّروا الحصن من جانب آخر وساعدوا إخوانهم في القتال، وهذا دليل على إخلاصهم وسمو مقاصدهم.

رابعًا : بركة التكبير ورفع الصوت به ، فلقد كان سببا في فتح الملجأ الذي كان داخل القلعة حينما كبَّر أسرى المسلمين الذين كانوا فوقه فتوهَّم الأعداء أن المسلمين صعدوا إلى سطحه ، والتكبير دائمًا له أثر مُزلْزِل في الأعداء ، فطالما انخلعت له قلوبهم وتحطمت بسماعه معنوياتهم .

خامسًا : عبرة بليغة في نجاة ذلك المسلم الذي دحرج عليه الأعداء صخرة حيث هيأ الله له أن يسقط على الأرض وأن تقفز الصخرة من فوقه دون أن تمسه بأذى ، والله سبحانه إذا أراد سلامة عبده هيأ أسباب ذلك ، وفي هذا درس للجبناء الذين يقعدون في مأمنهم خوفا من المهالك ويضيِّعون بسبب ذلك طاقات كثيرة تَبْقى معطلة لايستفيدون منها هم ولاإخوانهم المسلمون .

فتح حصن الشغر :

بعد أن استولى صلاح الدين على حصن برزية توجه إلى حصن الشغر ،وكان لايصل إليه حجر المنجنيق من ارتفاعه ووعورة مسالكه، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها قال بعضهم : هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ [**الكهف** : ٩٧]، فقال صلاح الدين :أَوْ يأتي الله بنصر من عنده، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأُجيب إلى ذلك ، ونزل رسول وسأل إنظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلَّموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه، واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائه- وكان سبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يُعَرِّفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يُرَحِّل عنهم المسلمين، فإن فعل وإلا سلَّموه، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليه أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا (١).

وفي هذا الخبر مثل من نصر الله تعالى أولياءه بالرعب الذي

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٢ .

يقذفه في قلوب أعدائهم ، فيسلكون معهم على خلاف السلوك المعتاد مع غيرهم .

كما أن فيه إشارة إلى قوة تعلُّق قلب صلاح الدين بالله عز وجل وثقته البالغة بنصره ، فمع تعذُّر السبل الموصلة إلى تلك القلعة قال: أَوْ يأتي الله بنصر من عنده ، فكان النصر هو ذلك الرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوب الأعداء فخرجوا للتفاوض وتسليم الحصن دون أن يمسهم أي أذى من الحرب .

حصار مدينة صور :

استطاع صلاح الدين تطهير بلاد الشام من أكثر معاقل الصليبيين، ولكن شُذَّاذهم ومن أَمَّنهم صلاح الدين تجمعوا في مدينة صور الساحلية، وقد قصدها صلاح الدين ولكن استعصى عليه فتحها لحصانتها الطبيعية حيث أنها أشبه بجزيرة ومدخلها من البر محاط بالبحر، فكان المسلمون يقاتلونهم من جهة واحدة والأعداء يقاتلونهم برّاً من جهة وبحراً من جهتين حيث كانت سفنهم تَرْمي جيش المسلمين ، وقد أدرك صلاح الدين عدم إمكانية فتحها إلا باحضار سفن تمنع خروج سفنهم من الميناء فأحضر عشر سفن، وقد قامت بالمهمة وحصرت سفن الأعداء إلا أنهم باغتوا سفن المسلمين فاستولوا على خمس منها ، فلم تَعُد الخمس الباقية كافية فأرسلها صلاح الدين إلى بيروت ، ورحل صلاح الدين عن صور لعدم إمكانية قتالهم بغير سفن (١) .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/١٨٦ - ١٨٧ .

استنجاد صليبيي الشام بأهل أوربًا :

وقد رحل زعماء النصارى الدينيون من صور إلى بلاد أوربا، وقاموا بدعوة مكثفة لغزو المسلمين واسترجاع بيت المقدس ، وصاروا يستنجدون بأهل أوربا ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين [صلى الله عليه وسلم وحاشاه مما يقول الظالمون] وقد جرحه وقتله ، فعظم ذلك على الفرنج فحشدوا رجالهم ونساءهم ، ومن لم يستطع الخروج يستأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالايتطرق إليه الإحصاء .

وقد كان من أثر هذه الحملة الدعائية الكبرى قيام الحملة الصليبية الثالثة ، حيث استجاب لها ملوك أوربا ، فجندوا عشرات الألوف من الصليبيين عن طريق البحر ، وخرج ملك ألمانيا ومعه مائة ألف عن طريق البر .

وقد كان خروج ملك الألمان في سنة ست وثمانين وخمسمائة من بلاده ، وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدهم بأسا، وقد أرعجه مُلْك المسلمين البيت المقدس فجمع عساكره وسار عن طريق القسطنطينية ، وقد كتب ملك الروم إلى صلاح الدين يُعَرِّفه بذلك ويَعِدُه بمنعه من العبور ، ولكنه عجز عن ذلك إلا أنه منع عنهم الميرة.

وساروا حتى مروا على أرض الإسلام، وذلك في مملكة قلج

أرسلان السلجوقي ، فثار بهم التركمان فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ، وعصف بهم البرد وكان الثلج متراكما فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقلّ عددهم ، ومع ذلك خافهم الملك السلجوقي فهادنهم وسمح لهم بالتزود من بلاده بما يشاؤون . ثم مروا ببلاد الأرمن فأظهر لهم صاحبها الطاعة وأمدهم بما شاؤوا ، ثم ساروا نحو أنطاكية .

وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم ليغتسل وكان النهر شديد الجري فحمله الماء إلى شجرة فشجّت وجهه وأخمدت أنفاسه وكفى الله شره ، وقد اختلف أصحابه على ولده فرجع عنه طائفة إلى بلادهم ، وسار فيمن بقي وهم يزيدون على أربعين ألفا، ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية فحسّن لهم صاحبها المسير إلى عكا، فساروا على ساحل بلاد الشام فخرج لهم أهل حلب وغيرها وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات أكثر من أُخذ .

وبلغوا طرابلس فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا إلى عكا ، ولما رأوا مافيه أهلها من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد [1] .

وهكذا أنقذ الله تعالى المسلمين من مائة ألف مقاتل، وذلك بعدة عوامل ، منها غارة بعض المسلمين عليهم ، ومنها موت ملكهم وتفرقهم من بعده، وهذا أهمها، ومنها إصابتهم بالوباء وموت كثير منهم، ولو أنهم سلموا ووصلوا لكانت محنة كبرى على المسلمين،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠١ ، ٢٠٧ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٨ .

وفي ذلك يقول ابن الأثير : ولولا لطف الله بالمسلمين ، وأَهْلَكَ ملك الألمان وإلا كان يقال : إن الشام ومصر كانتا للمسلمين (١) .

وصول الصليبيين إلى عكا :

تقدم لنا أن الصليبيين خرجوا بأعداد كبيرة من أوروبا قاصدين بلاد الشام ، وقد وصلوا إلى ميناء صور فضاقت بهم فقصدوا عكا، وساروا إليها مع من اجتمع بها من صليبيي الشام عن طريق البر، وسفنهم تحاذيهم في البحر، وكان رأي صلاح الدين اقتطاعَهم وهم سائرون في البر، ولكن لم يوافق على ذلك قادته وطلبوا الأسهل لهم، وكان قد جعل جزءاً من الجيش يناوشونهم، ومع قلتهم فإن الأعداء هابوا قتالهم ، فكيف لو كان كل الجيش الإسلامي يناوشهم؟!

ووصلوا إلى عكا قبل المسلمين فأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ولم يتمكن المسلمون من الوصول إليها، وجرت بينهم وقائع كثيرة، أبرزها معركة في أول شهر شعبان باكرهم فيها صلاح الدين بحَدِّه وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، واستمر القتال إلى الظهر، وصبر الفريقان صبراً حارَ لَهُ من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين حملة قوية من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم ، وركب بعضهم بعضا والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم وأَخْلَوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم ، وصار المسلمون يدخلون البلد وأدخل فيه صلاح الدين الرجال والمؤن (٢) .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠١ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩/٢٠١ - ٢٠٢ .

في هذه المعركة موقف يذكر لابن أخى صلاح الدين تقي الدين ومن ثبتوا وأثخنوا في العدو من أبطال المسلمين .

هذا وقد جرت معركة كبرى بينهم ، وذلك أن الصليبيين رأوا قلة جيش المسلمين حيث إن بعض جيش صلاح الدين مرابط حول الثغور، وجيش مصر لم يصل ، فانتهز الصليبيون الفرصة قبل أن تأتي أمداد المسلمين ، فخرجوا من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر قد ملؤوا الأرض طولا وعرضا ، وهجموا على ميمنة المسلمين وفيها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، فأمدهم صلاح الدين برجال من القلب، فلما رأى الصليبيون قلة من في القلب عطفوا عليه عطفة رجل واحد فتقهقر كثير من المسلمين وانهزموا وثبت بعضهم واستُشهد بعض أمرائهم وشجعانهم فقصد الأعداء التل الذي فيه خيمة صلاح الدين ، فقتلوا من مرُّوا به ، وانحدروا إلى جانب التل الآخر ، ثم خشوا أن يُقتطعوا فرجعوا، وكان صلاح الدين يحث المسلمين على الثبات ويناديهم ويأمرهم بالكرَّة فاجتمع حوله جماعة صالحة فتقدم بهم ، وكانت ميمنة المسلمين قد ثبتوا وحملت ميسرة المسلمين على من يليهم فقطعوا المدد عن الذين حملوا على القلب ، فلما رجع هؤلاء كانت لهم ميسرة المسلمين، وحمل عليهم صلاح الدين بمن معه من خلفهم فلم يفلت منهم أحد ، وكان النصر للمسلمين على قلتهم بالنسبة للأعداء (١) .

فهذه المعركة فيها مثل من ثبات صلاح الدين ورباطة جأشه

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

وحسن تصرفه عند الشدائد، وفيها مواقف كريمة للمسلمين الذين ثبتوا معه في عدم التأثر بموقف من انهزموا، وبقاء معنويتهم عاليةً مع ماأحرزه الأعداء في البداية من إجلاء أصحاب القلب عن مواقفهم .

معركة الأصطول :

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى البلاد الإسلامية بطلب الإمداد العسكري فوصلت إليه الجيوش من بعض البلاد، ومنها أصطول خرج من مصر ، وقد وصل الأصطول قرب مدينة عكا، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولا ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جميع جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأصطول ليتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال برا وبحرا ، وكان يوما مشهودًا لم يؤرَّخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ، ووصل الأصطول الإسلامي سالما [١] .

وهذا يعتبر نجاحا كبيرًا لأولئك المجاهدين حيث سيطروا على الميناء ودافعوا عن الأصطول الإسلامي بالرغم من وجود الصليبيين القوي في البحر .

وقبل ذلك كان السلطان قد أمر بتجهيز سفينة كبيرة من بيروت فيها طعام كثير وأسلحة، فقام من فيها من التجار المسلمين بالتَّزِّي بِزِيٍّ الفرنج خدعة لهم وكانت السفينة مما غنمه المسلمون منهم،

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٦/٩ .

فوصلت ولم يشكَّ الأعداء أنها لتجارهم وأفرغت حمولتها فاكتفى بها المسلمون حتى قدم الأصطول المصري [1] .

وكان النـصر حليف المسلمين في كل المعـارك التي خاضـوها مع الصليبيين حول عكا، وإن حصل لبـعضهم انهزام في أول المعركة، إلا أن معاركهم مـعهم لم تكن حاسمة نظرًا لكثـرة الصليبيين ، ولكونهم سبقـوا إلى سور عكا وعملوا لأنفسـهم تحصينات يلجؤون إلـيها عند الانهزام ، ولِمَا كان يعتري صلاح الدين من المرض الذي يحمله على مغادرة الميدان مدة قد تطول فيستفيد الأعداء من ذلك ، ولكون بعض قادة صلاح الدين لايأخـذون برأيه أحيانا فتفـوت على المسلمين فرص جيدة للنصر الحاسم ، ولأن الإمـدادات من أمراء المسلمين تعتبر قليلة جدا بالنسبة لما يصل إلى الصليبيين من إمدادات [2] .

وقبل ذلك وأهمُّ منه أن من أسباب تأخر النصر وقوع المسلمين أو بعضهم في المعـاصي ، وقد نبه القاضي الفاضـل السلطان بعدَّة كتب لهذا المعنى ،ومما جاء فيها : إن ماعند الله تعالى من النصر لايُنال إلا بطاعـته، وإننا لو صَـدَقْناه لعجَّل لـنا عواقب صـدقنا، ولو أطعناه لما عاقَبَنا بعدوِّنا، ولو فعلنا مانقدر عليه من أمره لفعل لنا مالا نقدر عليه إلا به ، ونستغفر الله تعـالى من ذنوبنا ، فلولا أنها تسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَل ، ولكن في الطريق عائق [3] .

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٠ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) البداية والنهايـة ١٢/ ٣٦١ ، والقاضي الفاضل من العلماء الكبـار وكان وزير صلاح الدين ومستشاره ، وكان يحبه كثيرًا ويأخذ بآرائه .

ابتكار علمي حربي موفق :

كان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدًا ، طول كل برج منها خمسُ طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد غَشَوْها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وقدَّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها فأشرفَتْ على السور ، وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طمِّ خندقها، فكادوا أن يملكوا البلد عنوة ، فقاتل صلاح الدين الصليبيين ثمانية أيام وخفف ذلك عن حامية البلد، وقد قاوم المسلمون الأبراج بالنفط الطيار فلم يصنع فيها شيئًا فأيقنوا بالهلاك.

ولما أراد الله تعالى إنقاذ المسلمين من تلك الأبراج وفق شابًا نحَّاسا من أهل دمشق يُعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان مولعًا بآلات النفط وتحصيل العقاقير التي تقوِّي عمل النار، وكان بعكا لأمر يريده الله، فلما رأى الأبراج قد نُصبَت على عكا شرع في عمل مايعرفه من الأدوية المقوية للنار ، بحيث لايمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما ، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش حاكم عكا، وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا بقوله فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر : لعل الله تعالى يجعل الفرج على يد هذا ولايضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره، فرمى

عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار ، وكان الفرنج إذا رأوا القدر لايحرق شيئًا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج فألقى قدرًا مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج ، وألقى قدرًا ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج ، وأعَجَلْت من في طبقاته الخمس عن الهرب فاحترق هو ومن فيه ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني والثالث وقد هرب من فيهما ، وكان يوما مشهودًا لم ير الناس مثله، والمسلمون ينظرون فرحين لنجاة المسلمين من الأبراج .

وحُمِلَ ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئًا ، وقال : إنما عملته لله تعالى ولاأريد الجزاء إلا منه (١) .

وبعد : فإن ماقام به هذا الرجل المبدع الماهر في الصناعة يعتبر أمرًا عظيمًا وإنجازًا كبيرًا نصر الله تعالى به الإسلام وأَقَرَّ عيون المسلمين وأذل به الكفار وأبطل مساعيهم.

وهكذا يبرز من عباقرة المسلمين من يتفوقون آنذاك على الأوروبيين الذين مهروا في الصناعة ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى المسلمين في الصناعات الحربية ، لأن هذا الرجل لم يكن ليبلغ مابلغ لولا تقدم المسلمين في الصناعة وتوفر الآلات والمواد اللازمة لذلك، وقد كانوا في تلك المواد المحرقة قد وصلوا إلى مستوى الأوروبيين ،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .
البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٧ .

ثم تفوق الصليبيون باختراع الموانع التي تمنع عمل النار ، فتوصل هذا المسلم المبدع إلى اختراع مواداً تقوِّي النار بحيث تُبطل مفعول تلك الموانع التي اخترعها الأعداء .

وهكذا تفوَّق المسلمون آنذاك على أعدائهم في الاختراع والصناعة فأعقب ذلك نصراً مؤزرا للمسلمين وهزيمة نكراء لأعدائهم .

استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم :

هذا وقد جرت معارك أخرى كان النصر فيها حليف المسلمين إلا أنها لم تكن حاسمة ، إلى أن وصل ملك فرنسا ثم ملك انجلترا على رأس جيشين في عدد من السفن فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا، وكان من أسباب ذلك أيضًا ماحصل من سآمة أفراد الحامية الإسلامية داخل عكا وإبدالهم بجنود آخرين ليسوا في مستواهم في الخبرة والعدد .

وكان الذي أطال بقاء الصليبيين حول عكا هو اعتصامهم بخنادقهم ، فكانوا قلَّما يخرجون للقتال، وإذا خرجوا وانهزموا لجؤوا إليها .

وكانوا إذا خرجوا يقصدون طائفة من المسلمين ليقضوا عليهم، فمن ذلك أنهم في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائه خرجوا واتجهو نحو جيش المصريين ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ودخل الصليبيون خيامهم فقاتلهم المصريون فيها ثم داروا على الصليبيين من الخلف وقطعوا إمدادهم ، وساعدهم أهل الموصل لقربهم منهم فقتلوا من الصليبيين مايزيد على عشرة آلاف .

ولما تتابعت الأمداد على الصليبيين خرجوا مرة أخرى من خنادقهم، فتصدت لهم مقدمة المسلمين بالرماية ، وندم الصليبيون على خروجهم فلزموا مكانهم ، وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا والمسلمون خلفهم يقتلون منهم ، وكان صلاح الدين مريضا وقد نُصب له خيمة فوق تلّ ، فلم يكن له إشراف مباشر ، يقول ابن الأثير : فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما لله أمر هو بالغه (١) .

وقد انتهى أمر صلاح الدين مع الصليبيين إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وذلك في العشرين من شعبان عام ثمان وثمانين وخمسمائة ، وقدكانت الهدنة بطلب من ملك انجلترا، وقد أشار أمراء صلاح الدين عليه بالموافقة ليرحل الفرنج القادمون فتخف الوطأة على المسلمين (٢) .

مثل من رحمة صلاح الدين :

وقد كان صلاح الدين رحمه الله رقيق القلب رحيما بالمسلمين عطوفا عليهم ، ولقد بلغت رحمته أعداءه ، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجدا شديدا واشتكت إلى ملوكهم فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه، فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها، فرقّ لها رقة شديدة حتى

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩/٢٢١ - ٢٢٢ ، البداية والنهاية ١٢/٣٧٢ - ٣٧٣ .

دمعت عـينه ، ثم أمر بإحضـار ولدها، فإذا هو قـد بيع في السوق، فرسَم بدفع ثمـنه إلى المشتري ، ولم يزل واقـفا حتـى جيء بالغلام، فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبـكي من شدة فرحها وشوقها إليه، ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرَّمة ، رحمه الله تعالى[1] .

ولاشك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقـية كان لها أثر بالغ في رفع سمعـة المسلمين الأخلاقية واجـتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام .

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٤ .

٦ - جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين

بقي للصليبـيين إمارات في ساحل الشام حـيث لم يتم إجلاؤهم بالكليـة، إلى أن انتـهى عهـد الأيوبيين وجـاء عهـد المـماليك فكان للسلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون وابنه خليل دور كبير في القضاء على الصليبيين وإزالة ملكهم عن بلاد الشام بالكلية .

ولقـد كان هناك دولة للأرمن الـنصارى جنوب بلاد الأناضـول، وقد كانوا حلفاء للصليبـيـين والتتار ، ولقد أدرك الظاهر بيبرس أن أي عمل حربي يـقوم به ضد الأرمن والصليبـيين سيكون محرِّضـا للتتار للقدوم والمشاركة مع النصارى في مـواجهته ، والتتار لاتزال لهم دولة قوية في الشرق تحت إمرة حاكمهم القوي هولاكو .

ولقد كـان هناك طائفة من التتـار لاتخضع لهولاكو وهم مـغول القفجاق ، ويسـمّون القبيلة الذهبية ، وزعيمـهم هو بركة خان، وقد اعتنق الإسلام ، فاغتنم الظاهر بيـبرس هذه الفرصة فكاتب بركة خان وحرضه على قتال هولاكو ، فاستجاب لذلك بركة خان وكان مخلصا في إسلامـه فقاتل هولاكـو حتى شغلـه عن المسلمين وأضعفـه وفرّق جنده .

وبهذا نجح الظاهر بـيبرس في هذا التـخطيط الحربي الجيـد حيث أمن جانب التتار وتفرغ للصليبيين (١) .

---

(١) الحروب الصليبيـة للدكتور سعيد عاشـور ٢/ ١٠٨٩ ، والظاهر بيبرس البندقداري هو أحد سلاطين المماليك ، تولى الحكم في سنة ثمان وخـمسين وستمائة حتى سنة ست وسبعين وستمائة .

ولقد كان فيما قام به السلطان بركة خان عمل جهادي كبير يُشكر عليه ، حيث رفع بجهاده هذا إصرًا ثقيلا عن كاهل المسلمين .

ولقد سار السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه إلى الشام قاصدا جهاد الصليبيين في عام أربعة وستين وستمائة ، وقد نزل في عين جالوت، وبعث عدة جيوش للإغارة على إمارات الصليبيين في الساحل، فأغاروا على عكا وصور طرابلس وحصن الأكراد، فسبوا وغنموا شيئًا كثيرًا ، ثم نزل الظاهر بنفسه على مدينة صفد في الثامن من شهر رمضان ، وقد فتحها بعد حصار طويل وقتل كثيرًا من أهلها، ثم جعلها معقلا للمسلمين فوضع فيها الجنود وزودَّها بالذخائر والأسلحة [1] .

ثم عاد الظاهر إلى دمشق ، ووجه جيشا لقتال الأرمن وقد كانوا ناصروا التتار حينما غزوا الشام ، واستنجدوا بهم أيضًا حينما أراد بيبرس فتح أنطاكية ، فوجه بيبرس جيشين بقيادة الأمير قلاوون والأمير المنصور الأيوبي أمير حماة ، فالتقوا مع المسلمين عند دربساك وهي قلعة عند أنطاكية فأنزل المسلمون بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى واستولوا على عدد من بلدانهم المهمة ، ومنها سيس عاصمة أرمينية الصغرى ، ورجع المسلمون بغنائم كثيرة وعدد كبير من الأسرى، ومن بينهم ابن هيثوم ملك أرمينية الصغرى، ولم يستطع هيثوم استرداد ابنه إلا بمقابل تنازله عن مواقع مهمة مثل دربساك التي تتحكم في الطريق

---

(١) النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ .

بين أرمينية وأنطاكية ، ومدن أخرى تتحكم في الطريق بين أرمينية والجزيرة حيث يوجد التتار حلفاء الأرمن » (١) .

وبهذا استطاع بيبرس أن يُضعف أرمينية جدًا وأن يحصرها بحيث لاتستطيع أن تستنجد بأعدائه ولا أن تُنجدهم .

فتح مدينة يافا :

وفي يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من عام خمسة وستين وستمائة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه عازما على قصد الشام على حين غفلة ، وسار نحو يافا ، فوافته رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب في الليل وسار فصبَّح يافا وأحاط بها من كل جانب، فهرب من كان فيها من الصليبيين إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة ، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوَّضهم عما نُهب لهم بأربعين ألف درهم ،فركبوا في المراكب إلى عكا (٢) .

وهكذا تم فتح يافا وإجلاء الصليبيين منها بهذه السرعة والسهولة بفضل الله تعالى ثم بفضل التخطيط الحربي البارع الذي رسمه السلطان بيبرس الذي جمع الله تعالى له بين الشجاعة النادرة والرأي الثاقب .

فتح أنطاكية :

وبعد أن فتح الظاهر بيبرس يافا توجه شمالا يريد فتح أنطاكية،

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٠ ، الحروب الصليبية / ١٠٩٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤١ - ١٤٢ .

وفي طريقه إليها فتح قلعة الشقيف، وقلعة الباشورة وغيرهما.

ولما قرب من أنطاكية أمر العسكر ليلاً بلبس آلة الحرب ونزل أنطاكية في غرة شهر رمضان ، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطا لم يجب إليها ، وزحف عليها ففتحها يوم السبت رابع الشهر ، وقد كان هو أول من فتح أنطاكية وقضى على الصليبيين فيها منذ أن استولوا عليها (١) .

وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس في غزو الصليبيين في ساحل الشام ، ومن ذلك ماقام به سنة تسع وستين وستمائة حيث خرج من مصر في ثاني عشر من شهر جمادى الآخرة ، وكان معه ولده الأمير السعيد وقد هاجم عدداً من حصون الصليبيين وقلاعهم الحصينة، وفتح منها قلعتَيْ صافيتا والمجدَّل وحصن الأكراد (٢) .

ومما يذكر للسلطان الظاهر بيبرس كثرة خروجه للجهاد حيث كان لايهدأ له بال ولايقر له قرار بعاصمة سلطنته وهو يرى البلاد الإسلامية مهددة من الصليبيين والتتار وقد بلغت قوة دولته حداً أرهب الأعداء وجعل بعضهم يحاول الصلح معه ، فرحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٠ .

٧ – جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل –

فتح حصن المرقب :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان المنصور قلاوون(١) خرج بجيشه من مصر إلى بلاد الشام ، ووصل إلى حصن المرقب الذي هو تحت سيطرة الصليبيين ، وذلك في العاشر من شهر صفر عام أربعة وثمانين وستمائة ، وحاصر أهل ذلك الحصن ونصب المسلمون المجانيق ورموا بها الحصن وهدموا معظم أبراجه ، واستمر ذلك إلى سادس عشر من شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان بجيشه واستولى على ذلك الحصن، ونزل من فيه من الصليبيين بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهز السلطان معهم من أوصلهم إلى أنْطَرْسُوس (٢) .

فتح طرابلس :

ثم ذكر أنه في عام ثمانية وثمانين وستمائة خرج السلطان المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس ، ووصل في مستهل شهر ربيع الأول إلى طرابلس وحاصرها، ونصب عليها المجانيق ، وضايق أهلها مضايقة شديدة إلى أن ملكها عنوة في يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، وشمل القتل والأسر سائر

---

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي ، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٥ .

من فيها من الصليبيين ، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة ، كما تم الاستيلاء على عدد من الحصون التابعة لها [١] .

فتح عكا :

كان السلطان المنصور قلاوون قد عزم على حصار مدينة عكا، وبدأ بالاستعداد لذلك، ولكن وافته المنية وهو في مخيَّمه خارج القاهرة بعد مرض أصابه ، ذكر ذلك ابن تغري بردي ثم ذكر أنه لما آل الأمر إلى ولده السلطان خليل بن قلاوون[٢] واستتب له الأمر شرع في إكمال ماعزم عليه أبوه ، فتجهز للسفر ، وأرسل إلى البلاد الشامية ليستعدوا للغزو معه ، وعمل آلات الحصار وجمع الصناع إلى أن تم أمره فخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين وستمائة ، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ، فاجتمع عنده على عكا من الأمم مالايُحصَى كثرة، وكان المطَّوِّعة أكثر من الجند ومن في الخدمة ، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ، ونقب النقَّابون في سورها عدة نقوب .

قال : وأنجد أهلَ عكا صاحب قبرص بنفسه ، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانًا عظيمة لم يُرَ مثلها فرحًا به ، وأقام عندهم مايقرب من ثلاثة أيام ، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظَمَ مادهمهم ، ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلَّت

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٢١ .

(٢) تولى الحكم بعد أبيه ما بين عامي تسعة وثمانين وستمائة وثلاثة وتسعين وستمائة .

عزائم من بهـا وضعف أمرهم ، واخـتلفت كلمتهم ، هذا والحـصار عمَّال في كل يوم ، واستُشهد عليها جماعة من المسلمين .

فلما كـان سحـر يوم الجمعـة سابع عـشر جـمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسٌّ عظيم مزعج، فـحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج ، ومُلكت المدينة بالسيف، ولـم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد اسـتولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل (١) .

فتح مدينة صور :

قال ابن تَغْرِي بَرْدِي : وكـان السلطان [يعني خليل بن قلاوون] عند منازلته عكا قد جهز جماعـة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى « صور » لحفظ الطرق وتعرُّف الأخبار، وأمـره بمضايقـة صور ، فـبـينما هو فـي ذلك لم يشعـر إلا بمراكب المنهزمين من عـكا قد وافت ميناء صـور ، فحال بينـها وبين الميناء ، فطلب أهل صور الأمان فأمَّنهم على أنفـسهم وأموالهم ويسلِّموا صور فأُجيبوا إلى ذلك ، فتسلَّمها .

ثم ذكـر أن السلطان خليل لما علم بذلك جـهز إليـها من خرَّبـها وهدم أسوارها وأبنيتها (٢) .

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ٥ - ٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/٨ .

نهاية الصليبيين في الشام :

وبعد هذه الفتوح بقي للصليبيين في الشام مدينة صيدا وعثليث وأَنْطَرطوس ، وكان السلطان خليل بن قلاوون قد ولّى على نيابة الشام علم الدين سنجر الشجاعي فحاصر مدينة صيدا حتى فتحها بالأمان لأهلها يوم السبت خامس عشر رجب من سنة تسعين وستمائة، ثم فتح قلعة جُبَيل وخربها بأمر السلطان ، ثم فتح عثليث بعد شهر .

وأما أهل أَنْطَرطُوس فإنهم لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بَلَبان الطّباخي عسكرا، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها ، فندب إليها السَّعديَّ بما كان أحضره من مراكب فأخلوها ، وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور (١) .

وهكذا قام السلطان المنصور قلاوون بمشروع جهادي كبير لاستئصال بقية الصليبيين في الشام ، فبدأ بفتح حصن المرقب الحربي الذي كان واسعًا وفي غاية الأهمية ، ثم ثنّى بفتح مدينة طرابلس التي كانت مشهورة بحصانتها ومناعة سورها ، ثم ثلث بالعزم على حصار مدينة عكا فوافته المنية قبل ذلك ، فحقق له أمنيته ابنه السلطان خليل الذي خلَفه في الحكم ، وكانت عكا أهمَّ مراكز الصليبيين في ساحل الشام .

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٠ - ١١ .

ثم توَّجَ السلطان خليل بن قلاوون أعماله الجهادية بفتح بقية المدن والحصون التي استولى عليها الصليبيون .

وبهذه الفتوحات انتهى وجود الصليبيين في بلاد الإسلام الذي بدأ في عام ثمانيـة وسبعين وأربعمائة واسـتمر حتى عام تسعين وسـتمائة للهجـرة، وهذا يعني أن احتـلال الصليبيين لأجـزاء من بلاد المسلمين استمر اثنتي عشرة ومائتي سنة .

* * *

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين مع التتار

خروج التتار وسبب ذلك

في سنة ست عشرة وستمائة سار التتار صحبة ملكهم جنكزخان قادمين من بلادهم في جبال طمغاج من أرض الصين، قاصدين قتال خوارزم شاه أمير خراسان وبلاد ماوراء النهر ، وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه أمر بنهب بعض تجارهم وكانت معهم أموال كثيرة ، فلما علم بهم خوارزم أقبل من خراسان بجيشه فاقتتل معهم في بلاد ماوراء النهر قتالا شديدًا ، ثم رجع إلى بلاده .

ولقد عَبَّر التتار نهر جيحون واستولوا على بلاد خراسان وماحولها حتى وصلوا إلى حدود العراق وأفسدوا في الأرض وقتلوا مئات الألوف من المسلمين وغيرهم ، وفي بيان هول مصيبتهم يقول ابن الأثير رحمه الله تعالى : هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام وإلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقًا ، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولايدانيها (١) .

ثم كانت النكبة العظمى في بغداد حيث أقبل التتار بقيادة سلطانهم هولاكوخان في مائتي ألف فقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي وقتلوا مئات الألوف في بغداد من العلماء والوجهاء وعامة الناس وذلك في عام ستة وخمسين وستمائة (٢) .

---

(١) الكامل في التاريخ ٣٢٩/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٢٠٠ .

وهذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلا للإخلاد للراحة والنعيم ، والبعد عن الحياة الجهادية ، فهؤلاء المئات من الألوف في بغداد ومِنْ قَبْلهم مئات الألوف من المسلمين في بلدان المشرق لوأنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولَضَعُف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد .

إن الإخلاد إلى الراحة والبعد عن الحياة الجهادية من الأمور المخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة أصحابه، حيث لم يكن في عهدهم أناس مخصوصون للقتال وبقية المسلمين لاشأن لهم بذلك، بل إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلهم مجاهدين، وحينما داهمت جيوش الكفار المدينة النبوية في أُحُد والأحزاب خرج المسلمون جميعًا بقيادة النبي ﷺ للقتال ، ولم يبق إلا الشيوخ الكبار والنساء والأطفال .

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى ، وقد تقدم ذكر أمثلة لذلك .

ثم خَبَتْ هذه الروح الجهادية شيئًا فشيئًا حتى نسي كثير من المسلمين الجهاد، وأصبحوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفسهم، وقد ظهر هذا العجز جليا في استسلامهم وتذللهم للتتار بدون مقاومة تذكر.

وفي عام ثمانية وخمسين وستمائة عبر التتار نهر الفرات قاصدين بلاد الشام بقيادة ملكهم هولاكو ، فاستولوا على حلب، ثم زحفوا إلى دمشق فاستولوا عليها ، وبذلك استولوا على بلاد الشام كلها .

معركة عين جالوت :

وفي أثناء ذلك سار بطل الإسلام الكبير مظفر الدين قطز التركي حاكم مصر بالجيش المصري إلى الشام ، وانضم إليه جيش من الشام، وكان هولاكو في حلب وقد وجه إلى دمشق قائده الكبير «كتبغانوين» وهذا القائد هو الذي قام بأكثر حروب التتار منذ عهد جنكزخان جد هولاكو ، وقد كان التتار يَتَيمَّنون به لكثرة ماحقق لهم من انتصارات.

فلما وصل قطز بالجيش المصري توجه إلى جيش التتار، ودارت بين المسلمين والتتار معركة هائلة في « عين جالوت » كانت نهايتها انتصار حاسم للمسلمين، وهذه أول مرة ينتصر فيها المسلمون على التتار التابعين لملوكهم، وقد أحدثت هذه المعركة فرحة عظمى للمسلمين، واندحاراً كبيراً للتتار (١) .

وهكذا هزم الله تعالى التتار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جيش الشام بقيادة مظفر الدين قطز، وحاز هذا الأمير الشجاع الشهم على شرف القيام بمواجهة التتار وهزيمتهم .

ولقد كانت هزيمة التتار في عرف المسلمين- آنذاك -أمراً بعيد الاحتمال،ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم، واستعز النصارى وتطاولوا على المسلمين وأهانوهم ظنًّا منهم أن الدولة ستستمر للتتار،ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أخلف ظنون التتار

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٣ - ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٨ - ٨٣ .

والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعز بهم دينه.

إن معركة عين جالوت معركة فاصلة ، فصلت بين الإسلام والكفر، وبين دولة المسلمين ودولة الكفار ، فالتتار الذين انتصروا على أكثر بلاد المسلمين كان في يقينهم أنهم سيستولون على مصر وبقية بلاد المسلمين ، ولكن جنود مصر البواسل- بمعونة جند الشام - كانوا لهم بالمرصاد، فخيبوا آمالهم وأبطلوا أحلامهم .

ولقد قُتل في هذه المعركة الفاصلة « كتبغانوين » قائد التتار الكبير،ورجع هولاكو ملك التتار نحو المشرق خاسئًا ذليلا، وتم تطهير شمال الشام من التتار على يد الظاهر بيبرس أحد قادة قطز الأقوياء.

مواقف جهادية في هذه المعركة :

من ذلك مواقف قائد المسلمين مظفر الدين قطز حاكم مصر، ولابد قبل بيان مواقفه من إعطاء نبذة موجزة عنه، فهو محمود بن مودود من سلالة بيت خوارزم شاه حاكم بلاد المشرق الذي قضى التتار على مملكته ، وقد نُقل قطز وهو صغير إلى مصر حيث أصبح مملوكا للأمير صالح أيوب بن الكامل، ثم انتقل إلى ملك الأمير عز الدين أيبك التركماني حاكم مصر، وقد رأى فيه نجابة وشجاعة فقرّبه إليه .

يقول عنه الإمام الذهبي : وكان المظفر أكبر مماليك المعز أيبك التركماني ، وكان بطلا شجاعا مقداما حازما حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار ، فعوض الله شبابه في الجنة ورضي عنه ذكره ابن تغْري بَرْدي (١).

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤ .

وقال ابن كـثير : لما قُتِل أسـتاذُه المعز قام بتـولية ولده نور الدين المنصور علي ، فلما سـمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلـمة لصغر سنّ ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه ، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة [1] .

ومن مواقفه العالية في هذه المعركـة ماذكره الحافظ ابن كثير قال : ذُكر عنه أنه لما كـان يوم المعركة بـعين جالوت قُتل جـواده، ولم يجد أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب[2] ، فترجَّل وبقي واقفًـا على الأرض ثابتا ، والقتـال عمَّال في المعـركة، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمـراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليـركبنها، فامـتنع وقال لذلك الأميـر : ماكنت لأحرم المسلمين نفعك ، ولـم يزل كذلك حتى جـاءته الوشاقية بالخيل فركـب، فلاَمَه بعض الأمراء وقـال : ياخَوَنْد لِمَ لاركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقـتلك وهلك بسببك الإسلام، فـقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسـلام فله رب لايضيعه، قـد قُتل فلان وفلان وفلان ، – حتى عد خلقًا من الملوك – فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولـم يضيع الإسلام [3] .

فهـذا موقـف جليل لهذا الأمـير البطل دل على تـواضعـه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبـيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨ ، النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤ .

(٢) الوشاقية هم سائسو الخيل .

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨ .

تذكره عظمة الإسلام والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد رُوي عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه : لاتقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى (١) .

وهذه لفتة جيدة تدل على اهتمام مظفر الدين بالاعتماد على الله تعالى واستمداد النصر منه ، حيث أمَّل بموافقة ساعة صلاة الجمعة أن يستجيب الله جل وعلا دعاء خطباء الجمعة والمسلمين لهم بالنصر .

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا في بيان انتصار المسلمين وهزيمة التتار: وقُتل أميرهم « كتبغانوين » في المعركة وأُسر ابنه وكان شابا حسنا، فأُحضر بين يدي المظفر قطز فقال له : أَهَرَبَ أبوك ؟ قال: إنه لايهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ، ثم قال : أنام طيبا ، كان هذا سعادة التتار ، وبقتله ذهب سعدهم .

قال : وهكذا كان كما قال : ولم يفلحوا بعده أبدا ،وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله تعالى (٢) .

وهذا الخبر فيه دلالة على خبرة مظفر الدين قطز بمكامن القوة عند الأعداء ، حيث أدرك أن قوة التتار ونجاحهم يتمثلان في قائدهم الكبير

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٠ .

كتبغانوين ، الذي توالت انتصاراته منذ عهد جنكيزخان جد ملكهم هولاكو ، وقد كان الأمر كما قال قطز حيث انتكس التتار بعد مقتله وتقلص مُلكهم .

وفي سجود مظفر الدين لله تعالى شكرا دلالة على عظمة اهتمامه بنصر الإسلام والمسلمين رحمه الله تعالى .

ومن مواقفه الجهادية أثناء المعركة ماذكره المؤرخ يوسف ابن تَغْرِي بَرْدِي قال : ثم رحل الملك المظفر قطز بعساكره من غزة ونزل الغور بعين جالوت ، وفيه جموع التتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان [يعني من عام ثمانية وخمسين وستمائة] ووقع المصافُّ بينهم في اليوم المذكور وتقاتلا قتالا شديدًا لم يُرَ مثله، حتى قُتل من الطائفتين جماعة كثيرة ، وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة ، فحمل المظفر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى تحايَوا وتراجعوا ، واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه ، وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، وعظم الحرب، وثبت كل من الفريقين مع كثرة التتار ، والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ، وهو يكُرُّ بهم كرة بعد كرة ، حتى نصر الله الإسلام وأعزه ، وانكسرت التتار ، وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قُتل معظم أعيانهم ، وأُصيب مُقَدَّم العساكر التتارية كتبغانوين [1] .

وهكذا تبين لنا دور المظفر قطز رحمه الله في نجاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبل إذا انهزمت طائفة منهم انهزموا أمام

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩ .

التتار ، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يسدَّ تلك الثغرة التي انفتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين ، ولقد كان لتشجيعه الجيش- وهو القائد - الأثر الكبير في ثبات أفراده حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى .

رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر :

لقد كان من أهم الحوافز للأمير مظفر الدين على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره ، وفي بيان ذلك يقول المؤرخ يوسف بن تَغْـرِى بَرْدي نقـلاً عن الشيخ قطب الدين اليونيني قال: حكى لي المولى علاء الدين بن غانم في غرة شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ببعلبك، قال : حدثني المولى تاج الدين أحمد بن الأثير - تغمده الله برحمته - مامعناه : أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف- رحمه الله - لما كان على « برزة » في أواخر سنة سبع وخمسين وصله قُصَّاد من الديار المصرية بكتب يخبرونه فيها أن قطز تسلطن وملك الديار المصرية وقبض على ابن أستاذه .

قال المولى رحمه الله : فطلبني السلطان الملك الناصر فقرأت عليه الكتب ، وقال لي : خذ هذه الكتب ورُح إلى الأمير ناصر الدين القَيْمَري والأمير جمال الدين بن يَغْمور أَوْقف كلا منهما عليها، قال: فأخذتها وخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني وسلم علي وقال : جاءكم بريديٌّ أو قُصَّاد من الديار المصرية؟ فوريت وقلت : ماعندي علم بشيء من هذا ، قال: قطز تسلطن وتملَّك الديار المصرية ويكسر التتار .

قال تاج الدين : فبقيت متعجبا من حديثه وقلت له : أيش هذا القول ؟ ومن أين لك هذا ؟ قال : والله هذا قطز خشداشي[1]، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان ،وكان عليه قمل كثير ، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلسا أو صفعته ، ثم قلت في غضون ذلك : والله ماأشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارسا ، قال لي : طيِّبْ قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارسا ، فصفعته وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم ، فصفعته وقال لي : وألك علة ! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسا ؟ أنا والله أعطيك ، قال : ويلك كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت ، قلت: ويلك أنت مجنون ! أنت بقملك تملك الديار المصرية ؟ قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول النبي ﷺ حق لاشك فيه ، قال : فسكتُّ وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب .

قال تاج الدين : فلما قال لي هذا قلت له : وردت الأخبار بأنه تسلطن ، قال لي : والله هو يكسر التتار .

قال تاج الدين : فرأيت حسام الدين البركة خاني - الحاكي ذلك- بالديار المصرية بعد كسر التتار فسلم علي، وقال : يامولاي تاج الدين تَذْكُر ماقلته لك في الوقت الفلاني ؟ قلت : نعم ، قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قَطْيا دخلت الديار المصرية أعطاني[2]

---

(١) أي كان تابعا لي .

(٢) يعني مظفر الدين قطز .

إمرة خمسين فارسا كما قال : لازائد على ذلك [1].

فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يُقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف .

لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض ، ومادامت هذه الرؤيا قد انتشرت - كما جاء في هذا الخبر - فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون أيضًا على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر ، فكان ذلك دافعا قويا لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وبذلك انتصروا على أعدائهم .

وبعد معركة عين جالوت تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرِّفة .

ومن ذلك ماذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي من أن التتار قدموا إلى الشام في أوائل شهر محرم من عام تسعة وخمسين وستمائة، فلما سمع بهم أهل حلب انسحب جيشها إلى حماة ، ثم انسحب جيش حلب وحماة إلى حمص فلما علم بهم التتار لحقوا بهم وكانوا في ستة آلاف ، فخرج إليهم المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجُوكَنْداري العزيزي صاحب حلب بعساكرهم، فحمل

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٧ - ٨٩ ، وانظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩ .

المسلمون على التتـار حملة رجل واحد فهزموهم وقـتلوهم شر قتلة، وهرب أمير التتار بيدرا في نفر يسير ، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه [1] .

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٠٦ - ١٠٧ .

– مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار[1] –

من الأعلام الذين كان لهم دور فعال في جهاد التتار السلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام الذي خلف السلطان مظفر الدين قطز ، وقد كان للظاهر بيبرس دور مهم في معركة عين جالوت فقد كان من أبرز قادتها ، وهو الذي قام بمهمة ملاحقة التتار حتى مدينة حلب.

يقول الحافظ ابن كثير في بيان مواقفه مع التتار : وقد كان هولاكوخان لما بلغه ماجرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين فحيل بينهم وبين مايشتهون، فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر، فقدم دمشق ، وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكصوا على أعقابهم، وكروا راجعين القهقرى ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات [2] .

فهذا موقف يذكر للأمير الظاهر بيبرس البندقداري حيث سارع

---

(١) هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة بعدما قتل السلطان مظفر الدين قطز ، وقد استمر الظاهر بيبرس في حكم مصر والشام حتى سنة ست وسبعين وستمائة حيث توفي في هذه السنة .

(٢) البداية والنهاية ٢٣٦/١٣

إلى ملاقاة التـتار قبل أن يصلوا إلى دمشق، وفـرق جنده على الثغور والمعـاقل ، فحـفظ بلاد الشـام ، وأرعب التـتار حـتى نكصـوا على أعقابهم وعرفوا أنه قد أصبح للمسلمين دولة قوية .

ومما يدل على عظمـة هيـبة السلطان الظاهر بـيبـرس عند التتـار مـاذكره ابن تَغْـرِي بَرْدي من أن ملك التـتـار «أَبْغَـابن هولاكو» أمـر عساكره بقصد البلاد الشامية ، فخرج عسكره في عشرة الاف فارس، وعليهم الأمير صَـمْغرا والبَرْوَاناه (١) ، فلمـا بلغـهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفًا وخمسمائه من المَغُل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب ، وكـان مُقَدَّمُـهم أمال بن بَيْجُـونوين ، ووصلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطون (٢) ، ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم .

قال : فتقدم الملك الظاهـر بتجفيل البلاد (٣) ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم ، وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجَتْ ومُقدَّمها الأمير بَيْـسَرِي، فوصلوا إلى السلطان وخرج بهم، فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم (٤) .

وهكذا تبدلت الموازين والقوى ،فأصبح التتار يرهبون من المسلمين

---

(١) البـرواناه لفظ فارسي مـعناه في الأصل الحـاجب، ثم أطلق على الوزير الأكبـر وهو سليمـان بن علي الصاحـب معين الدين وزير السـلاجقة حكام بـلاد الأناضول - عن هامش النجوم الزاهرة - .

(٢) عينتاب بلدة بين حلب وإنطاكية ، وقسطون حصن من أعمال حلب .

(٣) أي إظهار الجفل والخوف من التتار .

(٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٥ - ١٥٦ .

بعد أن كان المسلمون يرهبون منهم، والناس هم الناس، ولكن لما كان المسلمون متفرقين ومتناحرين فيما بينهم وليس عندهم اهتمام بجهاد الأعداء فإنهم قد ضعفوا وأصبحوا نهبًا لأي دولة قوية تغير عليهم ، ولما ظهر فيهم الحاكمان القويان مظفر الدين قطز ثم الظاهر بيبرس قاما بتوحيد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة قوية، وكوّنا الجيوش القوية التي تحمل روح الجهاد .

معركة ألبيرة :

لقد اغتنم التتار فرصة بُعْد السلطان الظاهر بيبرس عن شمال الشام فجاؤوا من المشرق وتحالفوا مع الروم والسلاجقة الذين يحكمون جزءًا من بلاد الأناضول، حتى وصلوا إلى بلدة « ألبيرة» [(١)]، وفي هذا الخبر ذكر الحافظ ابن كثير أن التتار نزلوا على مدينة « ألبيرة» في ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفا من المغول ، وخمسة عشر ألفا من الروم ، والمقدَّم على الجميع « البَرْوَاناه » [(٢)] بأمر «أبغا» ملك التتار، ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل ألبيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار، وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئًا كثيرًا ، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيش مدة ، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال [(٣)] .

---

(١) هي بلدة تقع بين مدينة حلب وبلاد الروم .

(٢) هو معين الدين سليمان بن علي الصاحب كما تقدم .

(٣) البداية و النهاية ١٣/ ٢٦٩ .

هذا وإن ماقام به أهل بلدة ألبيرة يعتبر مثلا عاليًا للشهامة والشجاعة، وذلك لايكون غالبًا إلا نتيجة للإيمان القوي وابتغاء فضل الله تعالى وثوابه .

إن الذي يمنع الناس من الإقدام على القتال هو الخوف من القتل، ولكن العقلاء إذا تذكروا بأن الأعداء إذا استولوا على بلادهم قتلوهم شر قتلة وأهانوهم وانتهكوا أعراضهم . . إذا تذكروا ذلك فإنهم يُقدمون جميعا على قتال الأعداء لأنه إن قُتل بعضهم في ميدان المعركة كان أعَزّ لهم وأكرم ، هذا في مقتضى العقل السليم ، فكيف بالمؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة في الآخرة إذا باعوا نفوسهم له جل وعلا وبذلوا طاقتهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ؟!

وإن مما يُذكر للسلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام أنه لما سمع بنزول التتار على ألبيرة أنفق على الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعا وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق (١) .

فهذا موقف جهادي كبير لهذا السلطان ، يدل على اهتمامه البالغ بأمور المسلمين والقيام بنجدتهم وإرهاب الكافرين، ولعل رحيل الأعداء عن ذلك البلد كان سببه مابلغهم من قصد السلطان إليهم، وهو الذي اشتهر عندهم بالقوة والشجاعة والحزم .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٦٩ .

معركة أبُلُسْتين (١) :

ومن أبرز مواقف السلطان الظاهر بيبرس الجهادية ماذكره ابن تَغْرِي بَرْدي من أن السلطان خرج من القاهرة يوم الخميس العشرين من شهر رمضان عام ستة وسبعين وستمائة نحو الشام قاصدا بلاد الروم ، فلما وصل بلاد الروم قدَّم الأمير شمس الدين سُنْقُرَ الأشقر على جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه ، فوقع على كتيبة من التتار وعدتهم ثلاثة آلاف فارس ، ومَقَدَّمُهم «كراي» فهزمهم سنقر الأشقر وأسر منهم طائفة و ذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة .

ثم ورد الخبر على الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البَرْوَاناه اجتمعوا على نهر جَيْحان (٢) ، فلما صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أبُلُسْتين فشاهد التتار قد رتبوا عساكرهم أحد عشر فرقة في كل فرقة ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفا من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج فرقة واحدة .

قال : فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار حملة واحدة وصدموا سنجق الملك الظاهر ، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة ، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه، ثم لاحت التفاتة منه فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التتار، فأمر الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها، ثم حمل هو بنفسه رحمه الله ، فلما رأته العساكر حملت نحوه برمَّتها حملة رجل

---

(١) مدينة مشهور ببلاد الروم ، وقد كانت آنذاك في سلطان السلاجقة .

(٢) هو نهر بالمصِّيصه ومنبعه من بلاد الروم .

واحد، فترجّل التتار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شيئًا ، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يكُرّ في القوم كالأسد الضاري ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويشجع أصحابه ويطيّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وانكسر التتار أقبح كسرة ، فمنهم من قُتل ومنهم من أُسر ، وبقيتهم فروا إلى الجبال فاعتصموا بها ، فقصدتهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم ، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتل منهم جماعة .

واستشهد من المسلمين جماعة ، منهم عدد من الأمراء (١) .

وإنه لواضح من ملاحظة أحداث هذه المعركة أثر السلطان الظاهر بيبرس في إنجاحها ، وذلك بتشجيعه أفراد جيشه على الثبات وثباته بنفسه واقتحامه المخاطر ، وملاحظاته الدقيقة على مواقع الخلل في جيشه .

وإن مما يذكر لقادة ذلك الجيش وأفراده ثباتهم الراسخ أمام هجوم الأعداء العنيف بالرغم مما اعترى بعضهم من الانكسار المؤقت ولكن كان لشجعان المسلمين أثر في صد الأعداء حتى تراجع أفراد الجيش الإسلامي ، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين وخذل أعداءه المعتدين .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٦٦ - ١٦٩ ، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

- مواقف السلطان قلاوون [1] -

معركة حول حمص :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان قلاوون سار من مصر إلى دمشق في عام ثمانين وستمائة ، وأنه ورد عليه خبر مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق فتهيأ لقتالهم، وأرسل يطلب العساكر المصرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق ، واجتمعت العساكر عند السلطان، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف .

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف حلب ، فخلت حلب من أهلها وجندها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص، وتركوا الغِلال والحواصل والأمتعة .

ثم ورد الخبر بوصول مَنْكُوتَمُر بن هولاكو ملك التتار إلى عيْنَتَاب وماجاورها في يوم الأحد سادس عشرين جمادى الآخرة، فخرج السلطان المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور، وخيم بالمرج، ووصل التتار إلى بَغْراس ، فقدَّم السلطان المنصور عسكره أمامه، ثم سافر في آخر جمادى الآخرة وسار حتى نزل بعساكره على حمص في شهر رجب .

وشرعت التتار تتقدم قليلا قليلا بخلاف عادتهم، فلما وصلوا حماة أفسدوا بنواحيها ، واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه في يوم الخميس رابع عشر شعبان ،

---

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

فركب المنصور بعساكره وصافَّ العدو ، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ماقيل مائة ألف فارس أو يزيدون، وعَسْكرُ المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره، وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني : وكانت وقعة عظيمة لم يُشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الرستن (١) والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها، وانهزم من كان فيها ، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر، وثبت السلطان المنصور قلاوون، رحمه الله تعالى ، في جمع قليل بالقلب ثابتا عظيما، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحدق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب ، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسُّوقَة والغلمان والرجَّالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأشرف الإسلام على خطة صعبة ،ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل سُنْقُر الأشقر، وبدر الدين بَيْسَري، وعلم الدين سَنْجر الدُّويداري، وعلاء الدين طَيْبَرْس الوزيري، وبدر الدين بيليك، وسيف الدين أَيْتَمُش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري ، والأمير حسام الدين طُرَنْطَاي ، وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردُّوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة ، وجُرح مَنْكُوتَمُر مقدَّم التتار .

---

(١) الرستن قرية بين حمص وحماه تشرف على نهر العاصي .

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عَرَبِه عَرْضًا، فتمت هزيمتهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُجاوز الوصف، واتفق أن ميسرة المسلمين كانت قد انكسرت كما ذكرنا ، والميمنة ساقت على العدو ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير، والأمير حسام الدين طرنطاي قدَّامه بالسناجق(١)، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به ، وهو في ذلك النفر تحت السناجق (يعني السلطان المنصور قلاوون) والكوسات تُضرب (٢).

قال : ولقد مرت به في ذلك الوقت وماحوله من المقاتلة ألف إلا دون ذلك ، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كَسرت ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتًا عظيمًا ، ثم ساق عليهم بنفسه فانهزموا أمامه لايلوون على شيء ، وكان ذلك تمام النصر، وكان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب ، وافترقوا فرقتين : فرقة أخَذَتْ جهة سَلَمْيَةَ والبَرِّية ، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات .

قال : ولما انقضى الحرب في ذلك النهار وعاد السلطان إلى منزلته، وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان، ومقدَّمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيْدَمُري .

قال : وكُتِبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد وحصل للناس السرور الذي لامزيد عليه ، وعُملت القلاع وزُينت المدن، أما

---

(١) وتنطق الصناجق أيضا وهي كلمة تركية معناها الألوية .

(٢) هي الطبول الكبار وتستعمل في الحرب .

أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين، ووصل إليهم جماعة ممن انهزم ، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم ، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لايفترون عن ذلك ، حتى ورد عليهم النصر العظيم ولله الحمد وطابت نفوس الناس ، وردَّ من كان نزح عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك .

قال : وقُتل في هذه الوقعة من التتار ما لايُحصى كثرة، وكان من استُشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ماقيل [١].

وهكذا عشنا مع أحداث هذه المعركة الكبيرة التي خطط لها التتار وجمعوا لها الجموع الكثيرة ليقضوا بها على وجود المسلمين ودولتهم القوية في مصر والشام ، ولكن ظنونهم خابت، وأحلامهم تبددت أمام ثبات شجعان المسلمين .

لقد تعوَّد التتار على الهجوم الصاعق في بداية المعارك الذي يعقبه انهزام كثير من المسلمين وفرارهم ، لكنهم وجدوا منهم في معركة عين جالوت وماتلاها غير ماتعودوا منهم ، إلا أنهم في هذه المعركة قد اعتدوا بكثرة جمعهم ، وهم يعلمون أن المسلمين لايستطيعون أن يجمعوا مثلهم فأقدموا على قتالهم ، غير أن الفارق في العدد عوضه

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٠١ - ٣٠٥ .

شجاعة الشجعان بعد الأمل الكبير في نصر الله تعالى والتوكل عليه.

وفي عرض مقطع من هذه المعركة يتبين لنا أهمـية الثبات والصبر في النصر ، وذلك فيمـا فعلته ميمنة التتار حيث هجـموا على ميسرة المسلمين وهم ألوف فانهزموا ،بينما لما هجم هؤلاء التتار على السلطان قلاوون ثبت لهم وصبر وهو في ألف أو أقل حتى هزمهم وفرقهم .

وأخيراً فإن لمَا قام به المسلمون من دعاء الله تعالى والتضرع إليه على النحو المذكور أثراً معلوما في تنزل نصر الله تعالى فإنه جل وعلا مع عباده المؤمنين بنصره وتأييده إذا لجئوا إليه بإخلاص وصدق .

- دخول التتار في الإسلام -

إن من عجائب التاريخ أن تلك الأمة الهمجية تدخل في الإسلام حيث أسلم بركه خان أحد زعماء التتار وأسلم كثير من قومه، وبلغ من إخلاصه أنه قام بحروب كبيرة ضد ابن عمه هولاكو خان زعيم التتار الذي قضى على دولة الإسلام وقتل مئات الألوف من المسلمين، يقول الحافظ ابن كثير عن بركه خان: السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركه خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئًا كثيرًا، وقد قام بالمُلْك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان بن بابوين بن تولى بن جنكيزخان، وكان على طَّريقته ومنواله ولله الحمد (١) .

وإلى بركه خان هذا يرجع الفضل بعد الله تعالى في دحر هولاكو وصده عن إكمال هجومه على بلاد الإسلام .

بل إنه قد دخل في الإسلام أحد بناء هولاكو وهو أحمد وقد أصبح سلطانا على التتار بعد أخيه أبغا بن هولاكو، وذلك في عام واحد وثمانين وستمائة ، ذكر ذلك المؤرخ ابن تَغْرِي بَرْدِي وذكر أنه مسلم حسن الإسلام، وعمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٤٩ .

إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار[1] وضرب عليهم الجزية [2] .

ثم أظهر الإسلام ملك التتار قازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، وسمى نفسه بعد الإسلام محمودا، ولكن كانت أعماله مع المسلمين تتنافى مع الإسلام .

وإن في دخول هذه الأمة في الإسلام دليلا على عظمة الإسلام، وعلى مقدار اعتزاز المسلمين بإسلامهم ، فإن المعروف في تاريخ الأمم- في حال اكتساح أمة لأمة أخرى في الحروب - أن المغلوب يقلد الغالب ، فيتأثر بسياسته وأخلاقه وأفكاره الدينية ،فيكون الغزو الفكري تابعا للغزو العسكري ، لكن الذي حصل للأمة الإسلامية آنذاك كان بضد ذلك حيث كان المسلمون يحتقرون التتار ويحكمون عليهم بالانحطاط الفكري والخلقي ، بينما أدرك التتار عظمة المسلمين في المجال الفكري والأخلاقي،والاجتماعي والسياسي والاقتصادي. . ثم لما حللوا ذلك وجدوا أن سر تلك العظمة يكمن في الدين الإسلامي العظيم الذي يحكم جميع تصرفات المسلم وسلوكه في هذه الحياة . . إنهم لم يروا دين الإسلام محصورا في شعائر تعبدية ، ثم ينطلق المسلمون بعد ذلك في حياتهم على مقتضى ماتمليه عليهم أفكارهم وأهواؤهم ، لأنهم وجدوا أن أنظمة الإسلام السياسية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية تفوق مستوى تفكير الإنسان،

---

(1) يعني اللباس الذي يتميزون به كالزنّار ونحوه .

(2) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٠ .

ولاتتغيـر بتغير البـلاد والزمان ، فأدركوا أن وراء هذا التـفكير الموحد الذي شمل أكثر بلاد العالم قوة عظمى ومبادئ عليا يخضع لها جميع المسلمين ، فقادهم ذلك إلى تعظيم الإسلام والدخول فيه .

لقد كان دخول زعماء التتار في الإسلام يعني توقف الحرب بينهم وبين دولة الإسلام القـائمة في مصر والشـام ، خصوصا وأن الخـلافة الإسلامية قد قامت في هذه الدولة بعد أن بايع السلطان الظاهر بيبرس المستنصر بالـله أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العـباسي وذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار الاعتداء على هذه الدولة يعني الخروج على الخلافة .

– مواقف السلطان محمد بن قلاوون [1] –

ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي أن قازان ملك التتار قد زحف على بلاد الشام بجيش كبير وذلك في عام تسعة وتسعين وستمائة، وأن السلطان محمد بن قلاوون قد خرج من مصر إلى الشام ووصل إلى دمشق ثم زحف إلى حمص وانضم جيش الشام إلى جيش مصر، والتقوا مع التتار قرب مدينة سَلَمْيَة يوم الإربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، وحملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير ، ثم حمل قلب المسلمين أيضًا حملة هائلة وصدموا العدو أعظم صدمة ، وثبت كل منْ الفريقين ثباتًا عظيمًا، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض، بلاء من الله تعالى ، فانهزمت ميمنتهم بعد أن كان لاح لهم النصر، فلاقوة إلا بالله، ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضًا من كانوا وراء القلب من غير قتال، وألقى الله الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وانسحب السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومُدبِّري مملكته، وترك أفرادُ الجيش العتاد والسلاح والمؤن وحاولوا النجاة بأنفسهم .

ولقد أصاب أهل الشام رعبٌ عظيم حينما علموا بهزيمة جيش

---

(١) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون التركي، وهو أشهر سلاطين المماليك وقد تولى السلطنة ثلاث مرات : الأولى مابين عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين وستمائة ،والثانية مابين عامي ثمانية وتسعين وستمائة وثمانية وسبعمائة ، والثالثة استقر بالسلطنة مابين عامي تسعة وسبعمائة وواحد وأربعين وسبعمائة .

السلطان ، ولكن خفف من رعبهم حينما علموا أن قازان مسلم وأن غالب جيشه من المسلمين ، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين [1] .

أما سبب انهزام المسلمين بعدما لاح لهم النصر فقد ذكره السلطان محمد بن قلاوون في خطابه الذي بعثه لقازان ملك التتار جوابا على خطاب قازان الذي يذكر فيه إسلامه وإسلام قومه وأن السبب في غزوه بلاده هو اعتداء بعض رعية السلطان على بعض رعية ملك التتار ، وقد أنكر عليه السلطان مايحصل من التتار من الإفساد في الأرض مع كونهم يظهرون الإسلام ، وأبان له بأن سبب انهزام المسلمين من جيشه هو معرفتهم بأن ملك التتار مسلم وأن غالبية جيشه قد أظهروا الإسلام فأصابهم عند ذلك شيء من التردد في جواز قتالهم [2] .

ولقد جَدَّ المسلمون بعد ذلك من جيش دولة الخلافة في قتالهم حينما بان لهم إفسادهم وأفتاهم العلماء بأنهم يشبهون الخوارج كما سيأتي .

وهذه المعركة وإن كانت نتيجتها لصالح التتار فإن فيها مواقف تشكر لجيش الشام ومصر وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذي كان آنذاك لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كان في دولته عدد من الأمراء الشجعان وكان لهم دور جيد في ثبات الجيش أول المعركة .

مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية :

وفي أثناء ذلك جرى موقف كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٢ - ١٤٦ .

الله تعالى ، وذلك حينما خرج من دمشق هو وعدد من العلماء والأعيان لتلقي قازان وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير ، وذكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر البالسي حكاية ماجرى من ذلك ، فقال : وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل للقان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على مابلغنا ، فغزوتَنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟

قال : وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَبٌ قام فيها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل.

قال : وقرب إلى الجماعة طعاما فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل له: ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟!

قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : « اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملِّكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليُذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره » ، قال : وقازان يؤمِّن على دعائه ويرفع يديه .

قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله .

قال: فلما خرجنا من عنده قال له القاضي نجم الدين بن صُصْرى

وغيـره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لانصـحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم .

قال : فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحـابه، فتسـامعَتْ به الخواقين والأمـراء من أصحاب قـازان فأتوه يتبـركون بدعائه ، وهو سـائر إلى دمشق وينظرون إليـه، قال: والله ماوصل إلى دمـشق إلا في نحو ثلاثمائة فـارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كـان معه ، وأما أولئـك الذين أبوا أن يصحبوه فـخرج عليهم جماعة من التتـر فشلَّحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره [1].

ففي هذا الخبر عدة مواقف وعبر :

أولا : في كلام شيخ الإسلام ابن تيميـة أمام ملك التتار الجبار، ذلك الكلام القوي الرصين الذي أنكر عليه فيـه قيامه بظلم المسلمين، وذلك في قتالهم ونهب أموالهم مع أنه مسلم ويظهر شعائر الإسلام.

ثانيًا : في دعائه القوي الواضح الذي دعا فـيه لملك التتار إن كان يريد عـزة الإسـلام والمسلمين ، ودعـا عليـه بتلك الدعـوات القـوية الساحقة إن كان يريد إذلال الإسلام والمسلمين .

ثالثًا : في ورعه الدقيق ، حيث امـتنع عن الأكل من طعام التتار لكونه مما نهبوه من أموال المسلمين .

وفي هذه المواقف كان رحمه الله تعالى في غاية القوة والجرأة في قول الحق أمام سلطان جبار قد اشتهر بالبطش والعنف .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٨، ٩١ - ٩٢ .

ولقد كـان الإقدام على الإنكار على ذلك السلطان الجـبار يعتـبر إقداما على الشهادة في سبيل الله تعالى في أغلب الاحتمالات ، ولا يمكن أن يقـدم على ذلك إلا من قـد حـملوا أرواحهم علـى أكفـهم وأصبح هدفهم الأعلى هو إظهار عزة الإسلام وإنصاف المظلومين مهما تكن النتائج في ذلك ثم إنه لايقوى على الوقوف مثل ذلك الموقف إلا الرجل الذي امتـلأ قلبه إيمانا بالله عز وجل وكـان قوي الاستحـضار لعظمته وجلاله ، لأن فكره - والحـال هذه - لايتصور قوة ولاعظمة في الوجود إلا قوة الله جل وعلا وعظمـته ، بينما تتلاشى من ناظريه كل مظاهر القوة والعظمة التي يظهر بها سلاطين البشر .

ولقد كـان هذا هو الدافع لشـيخ الإسلام ابن تيـمية ليـقف ذلك الموقف العظيم ، ولقد عبر عن ذلك بقـوله لمن سأله عن موقفه ذلك: ذكرت عظمة الله تعالى فأصبح السلطان أمامي كالقط .

رابعًا : في هذا الخبـر عبرة عظيمـة ، وذلك في موقف السلطان قازان من شيخ الإسـلام ابن تيمية حيث لان لـه حتى أصبح بن يديه كـالحَمَل الـوديع ، وتلاشى عنه جـبروته وتعـاظمـه وأبهـة سلطانه، وأصبح من تأثره بـكلام ابن تيميـة إلى حد أنه طلب الدعـاء له وكان يؤمِّن على دعـائه حتى حـينما دعـا عليه إذا هو انحـرف عن الطريق المستقيم ، ولاشك أن ذلك من تسخـير الله تعالى ، حيث ألان قلب ذلك السلطان لابن تيمية، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء .

خامـسًا : وفيـه عبـرة فيمـا حدث لابن تيمـية في رجـوعه إلى

دمشق، وما حدث لمعارضيه الذين أبوا أن يصاحبوه لظنهم أن سلطان التتار سيرسل إلى ابن تيمية من ينتقم منه في الطريق، فكان الأمر على خلاف ماتوقعوا ، حيث رجع ابن تيمية إلى دمشق في عزة وحماية قوية من فرسان التتار الذين أُعجبوا به وبالغوا في احترامه، بينما رجع أولئك الذين فارقوه بشرٍّ حال، وذلك كله مع ماسبق يوضح لنا معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد جزاء لهم على توكلهم عليه وتعظيمهم إياه واستمدادهم النصر منه ، وخذلانه لمن غاب عن باله تصور عظمته، وهيمن على قلبه تصور عظمة المخلوقين والرهبة منهم .

موقف جهادي لنائب القلعة :

ولما استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فساداً هم وأتباعهم من النصارى فقتلوا في دمشق وماحولها عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا كثيراً من النساء والأطفال ونهبوا كثيراً من الأموال، وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي كان لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام ، قال الحافظ ابن كثير: وأرسل قبجق إلى نائب القلعة [يعني أرجواش المنصوري] ليسلمها إلى التتار فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضا فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزا

لأهل الشام التي لاتزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بهـا عيسى بن مريم عليه السلام [1] .

فهذا مـوقف يذكر لنائب القلعة أرجواش حـيث صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار ، مع أن الشـام كله قد سقط بأيدي التتار ، فما نـسبة هذه القلعة إلى بلاد الشـام ؟! ومع ذلك ومع احتمـال قيام التتار بتدمير تلك القلعة فقد ثبت فيها نائبها ومن معه من الجنود وأبى أن يسلمها .

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيـمية تأثير واضح وقوي على نائب القلعة ، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك القلعـة، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهـادية عالية تتـسم بالقوة والثبـات والتصمـيم على الدفاع عن الإسلام والمسلـمين حتى آخر قطـرة من دمه ودم أتباعـه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأتمرون بأمره فكيف لو كان معه جيش كبير ؟!

ولقـد كان تصـميم أرجـواش نائب القلعة ثابتـا ، فلقد كلَّـمه- إضافـة إلى أمير دمشـق - الأمير حسـام الدين لاجين والأمير بكتـمر وغـيرهمـا في تسليم قلعـة دمـشق إلى نائب التـتار وقـالوا له : دَمُ المسلمين فـي عنقك إن لم تسلمـهـا، فـأجـابهم : دم المـسلمين في أعناقكم، أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجـهتم إلى قازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغـيرها، ثم وبخهم ، ولم يسلم قلعـة دمشق، وتهيأ للقـتال والحصار واسـتمر على حفظ القلعـة، ثم ترادفتْ قُصَّادُ

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٩ .

غازان إلى أرجواش هـذا وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة، فثـبته الله تعالى ومنع ذلك بالكلية ، وكان هؤلاء الأمراء قد لجئوا إلى قازان فراراً من الملك محمد بن قلاوون حاكم مصر والشام (١) .

وذكر الحافظ ابن كثـير بعض مافعلته عصـابات التتار بأهل الشام من القتل والنهب ثم قـال : وخرج الشيخ ابن تيـمية في جمـاعة من أصحابه يوم الخـميس العشرين من ربيع الآخر - يعني من عـام تسعة وتسـعين وستـمائـة - إلى ملك التتـر ، وعاد بـعد يومين ولم يتـفق اجتماعه به، حجبه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة والتزما له بقضاء الشغل، وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ولابد لهم من شيء (٢) .

وهذه هي المحاولة الثانيـة من شيخ الإسلام ابن تيميـة في مقابلة ملك التتار ، مما يدل على تفانيـه في إعزاز الإسلام وحماية المسلمين، وتضحـيته بنفـسه ووقته من أجـل ذلك ، ولكن تبين من كلام وزراء قازان بأن التتار لن يرجعوا إلا وقد أخذوا من الأموال مايكفيهم، وقد حصَّل لهم نائبهم قبجق وعماله كثيراً من أموال الناس بالقوة (٣).

وذكر الحافظ ابن كثير دخول التتار إلى دمشق ، واستيلاءهم على كثير من أموال الناس، ثم قال: وشرع التـتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بهـا القلعة من صحن الجامع، وغلقت أبوابـه، ونزل التتار في مَشَاهِده يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ماحوله من الأسواق.

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٠ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٠ ، النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٦ .

قال : وفي ذلك اليوم - يعني يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى من عام تسعة وتسعين وستمائة - توجه السلطان قازان ، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه: « إنا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها » وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه نائب قازان ، وسار وراءه ، وضربت البشائر بالقلعة فرحا لرحيلهم ولم تفتح القلعة، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سالمين (١).

وهكذا كان أصحاب القلعة هم الوحيدين الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة ، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وعجزهم عن فتح قلعة ،مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة مايملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين وخذلان أعدائهم .

وقال الحافظ ابن كثير في خبر هذه القلعة : وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتار ونهبوهم، وقُتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر ، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، فكلموه

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٠ .

وبالغوا معه ، فلم يجب إلى ذلك ، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه (١) .

فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المطيعين المنتظمين هل يكون للتتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطئ قدم ؟!

لقد كان أمل أرجواش كبيراً في أن يزول التتار وأن تعود بلاد مصر والشام دولة واحدة، وهذا ما تحقق بعد ذلك حيث جلا التتار وعادت دولة الإسلام القوية ، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التتار ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله .

مواقف أخرى لابن تيمية وغيره :

ولما رحل قازان إلى العراق ببعض جيشه وترك جيشا في الشام بقيادة بولاي كان لشيخ الإسلام ابن تيمية موقف مع بولاي ذكره الحافظ ابن كثير فقد ذكر أنه في اليوم الثامن من شهر رجب من العام التاسع والتسعين وستمائة خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم وأقام عنده ثم عاد (٢) .

فهذا مثل من بذل الإحسان والسعي في إنقاذ المسلمين من الضرر، حيث غامر شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذهب إلى والي التتار وسعى في إنقاذ أسرى المسلمين، وهذا يعتبر من الأعمال

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١١ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١١ - ١٢ .

الجهادية العـالية، من حيث اشتمـاله على المشقة الكبيرة في مـخاطبة الجبارين واحتمال التعرض للشهادة في سبيل ذلك .

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كـثير رحيل بقية جيش التـتار خوفًا من جيش مـصر القادم ، وفي ذلك يقـول : ونودي بالجامع بعـد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكرالمصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصـحابه من التتار وانشمروا عن دمـشق، وقد أراح الله منـهم . . إلى أن قال : ونادى أرجـواش في البلد : احـفظوا الأسـوار وأخرجـوا ما كـان عندكم من الأسلحـة، ولاتهـملوا الأسوار والأبواب ، ولايبـيتن أحد إلا على السـور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الأسـوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيميـة يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط [(١)] .

وهذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية ونائب القلعة أرجـواش ، حـيث حوّلا المسـلمين كلهم في البلد إلى مـجـاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهدا إذا احتاجت إليه الأمة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنودًا احتياطيين يَنْفِرون إلى الجهاد عند اللزوم .

وذكر الحافظ ابن كثير أنه في مستهل صفر من عام سبعمائة وردت الأخبـار بقصـد التتـار بلاد الشام وأنـهم عازمون عـلى دخول مـصر فانزعج الناس لذلـك وازدادوا ضعفًـا على ضعفـهم. . إلى أن قال: وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيـمية في ثاني صفـر بمجلس في الجامع وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٢ .

ذلك، ونهى عن الإسراع في الفـرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذبِّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن مـا ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا، وأوجب جـهاد التتار حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك .

كمـا ذكر أن الشيخ زين الدين الفـارقي وإبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين ابن تيمية وابن خبارة خرجوا إلى نائب السلطة الأفرم - وكان مرابطا فـي المرج - فقووا عزمه على مـلاقاة العدو، واجتـمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قـتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك (١).

وهذا موقف يذكر لهؤلاء العلماء فقـد قاموا بمهمتهم وأدوا الأمانة التي جعلها اللـه تعالى في رقابهم، فالعلماء هم المسـئولون عن تبليغ الإسلام ، وهم أول المسئولين عن إصـلاح المجتمع الإسلامي وإعداده للجهاد وحماية دار الإسلام .

وقال الحـافظ ابن كثير في بيـان ماجرى بعد ذلك ومـاحصل من مواقف : واستهل جمادى الأولى - يعنـي من عام سبعمائة - والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخـر السلطان واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمـية رحمه الله تعالى في مسـتهل هذا الشهر، وكان يوم السـبت إلى نائب الشام في المرج (٢) فثبتهم وقوّى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء ، وتلا قوله تعالى

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٥ - ١٧ .

(٢) يعني بذلك الأفرم نائب السلطان في الشام وكان مرابطا مع الجيش في المرج .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٠] وبات وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثم عاد إلى دمشق ، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء ، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قُدِّر أنكم لستم حكام الشام ولاملوكه واستنصر أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ، وقوى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا إلى الشام ، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحا شديداً بعد أن كانوا يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

قال :ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد ، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو ، وقد اجتمع بالسلطان - يعني الناصر محمد بن قلاوون - والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج (١) .

وهذا موقف جهادي كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث أثر

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٦ - ١٧ .

بتوجيهاته السـديدة القـوية على سلطان مـصر والشـام ووزرائه حـتى حملهم على تجهيز الجيش لملاقاة جيش التتار .

ولقد ضرب ابن تيمية بهذا مثلا عاليا للعالم الرباني المجاهد الذي طبق كل ماتعلمه من الإسـلام حتى ماهو شاق على النفوس كـالجهاد وإنكار المنكر .

وهكذا أظهر ابن تيميـة صورة العالم الديني بأنه ذلك العالم الذي يبصِّر المسلمين بجـميع واجباتهم ، ويسـارع في نجدتهم وإنقاذهم من الكوارث والنكبـات . . العـالم الذي يبـرز عند الفـزع ويتـوارى عند الطمع ، وليس ذلك العـالم الذي يقبع في زاوية من زوايا المسـجد أو المدرسة الديـنية يدرس العلم ولايهـمه أمر المسلمين . . وليـس العالم الذي يتهالك على الدنيا وينافس عليها أهلها .

مقارنة بين الأحزاب والتتار :

عقد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية مقارنة جيدة بين الأحزاب الذين تحزبوا ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة النبوية وموقـف الرسول ﷺ والصـحابة منهم وبين التـتار الذين تحـزبوا مع الأعداء الآخـرين ضد المسلمين فـي أواخر القرن السـابع، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى :

ثم إنه تعالى قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٩] .

ثم ذكر قصة الأحزاب باختصار إلى أن قال في قصة التتار : وفي

هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة ، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم . ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين ، وهو بين الإقدام والإحجام ، مع قلة من بإزائهم من المسلمين . ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها . كما نزل أولئك بنواحي المدينة بازاء المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ماقيل - بضعا وعشرين ليلة . وقيل : عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه : يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى ، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة . واجتمع بهم الداعي ، وخاطبهم في هذه القضية . وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ماألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد ، وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة ، كما قال تعالى :﴿ فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تروها ﴾ .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد . على خلاف أكثر العادات . حتى كره أكثر الناس ذلك . وكنا نقول لهم : لاتكرهوا ذلك فإن لله فيه حكمة ورحمة . وكان ذلك من أعظم

الأسباب التي صرف الله به العدو : فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ماشاء الله . وهلك أيضا منهم من شاء الله . وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع مارأوا أنهم لاطاقة لهم معه بقتال . حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لابيض الله وجوهنا : أعدونّا في الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لانأخذهم ، وحتى علموا أنهم كانوا صيدًا للمسلمين،لو يصطادونهم ، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة .

وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] .

وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتي علو الشام ، وهو شمال الفرات . وقبليّ الفراتِ. فزاغت الأبصار زيغا عظيما، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء ، لاسيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرُّب العدو، وتوجهه إلى دمشق. وظن الناس بالله الظنونا . هذا يظن أنه لايقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام . وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر . وهذا يظن أن أرض الشام مابقيت تسكن، ولابقيت تكون تحت مملكة الإسلام . وهذا يظن أنهم يأخذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ، ونحوها . وهذا - إذا أحسن

ظنه - قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين . ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم ، كما خرج ذلك العام . وهذا ظن خيارهم . وهذا يظن أن ماأخبره به أهل الآثار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة ، وخرافات لاغية. وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع ، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ، ليس له عقل يتفهم ، ولا لسان يتكلم .

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات ، وتقابلت عنده الارادات، لاسيما وهو لايفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب. ولايميز في التحديث بين المخطئ والصائب. ولايعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلا بها وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لايتفطن لوجوه دلالتها الخفية ، ولايهتدي لدفع مايتخيل أنه معارض لها في بادئ الرويَّة .

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسما بالاهتداء ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب: ١١] . ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذي يكفر به خطيئاتهم ، ويرفع به درجاتهم . وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ [الأحزاب: ١٢]. وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية ، والخلافة الرسالية ،وحزب الله المحدثون عنه.حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ،كما قال الله

تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إلى أن قال : فدلت هذه الآية - وهي قوله تعالى ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ - على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان : من الخوف ، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم ، كما وقع في حادثتنا هذه سواء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو . فقالت طائفة منهم : لامقام لكم هنا ، لكثرة العدو . فارجعوا إلى المدينة . وقيل : لامقام لكم على دين محمد ، فارجعوا إلى دين الشرك . وقيل : لامقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم .

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: مابقيت الدولة الإسلامية تقوم ، فينبغي الدخول في دولة التتار . وقال بعض الخاصة: مابقيت أرض الشام تسكن ، بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز واليمن ، وإما إلى مصر . وقال بعضهم : بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء ، كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة . كما قيلت في تلك . وهكذا قال طائفة من المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة : لامقام لكم هذه الأرض .

ونفي المَقَام بها أبلغ من نفي المُقَام . وإن كانت قد قرئت بالضم

أيضا [1]. فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان ، فكيف يقيم به ؟

قال الله تعالى ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان في آطام المدينة - يارسول الله ، إن بيوتنا عورة . أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل .

- وأصل العورة : الخالي ، الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: أعور مجلسك إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو -.

وقال مجاهد والحسن : أيْ ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلي العدو ، فلا نأمن على أهلنا، فائذن لنا أن نذهب إليها، لحفظ النساء والصبيان . قال الله تعالى ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ لأن الله يحفظها ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة .

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة ، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: مامقصودنا إلا حفظ العيال، ومايمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك ، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لودنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد ، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟ قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا

---

(١) وهي قراءة حفص، وقد سار الشيخ في تفسير الآية على قراءة أخرى .

بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ [الأحزاب: ١٤] فأخبر أنه لو دُخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طُلبت منهم الفتنة - وهي الافتتان عن الدين بالكفر، أو النفاق - لأعطوا الفتنة . ولجاءوها من غير توقف .

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم. ثم طلب منهم موافقته على ماهو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام- وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك . كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ، مابين ترك واجبات ، وفعل محرمات ، إما في حق الله ، وإما في حق العباد . كترك الصلاة ، وشرب الخمور ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين، وحريمهم . وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم ، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديما وحديثا في هذه الغزوة . فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولايفر ، ثم فر منهزما لما اشتد الأمر .

ثم قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الأحزاب: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لاينفع لا من الموت ولا من القتل، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ : « إذا وقع بأرض وأنتم بها

فلاتخرجوا فراراً منه » والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها . فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدا ، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره .

والتجربة تدل على مثل مادل عليه القرآن. فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم: بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم وقلّ في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولاقتل، بل الموت قلّ في البلد من حين خرج الفارون ، وهكذا سنة الله قديمًا وحديثا.

ثم قال تعالى : ﴿ وإذًا لاتمتعون إلا قليلا﴾ يقول : لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون ، فإن الموت لابد منه، وقد حُكِي عن بعض الحمقى أنه قال : فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل : إنهم يمتعون بالفرار قليلا، لكنه ذكر أنه لامنفعة فيه أبدًا ، ثم ذكر جوابًا ثانيًا : أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل ، ثم ذكر جوابًا ثالثًا ، وهو أنَّ الفار يأتيه ما قُضِي له من المضرة، ويأتي الثابت ماقُضِي له من المسرة، فقال: ﴿ **قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ١٧].

إلى أن قال : وقد ذكر أهل المغازي – منهم ابن اسحق– أن النبي

ﷺ قال في الخندق : « الآن نغزوهم ، ولايغزونا » فما غزت قريش ولاغطفان ، ولا اليهود المسلمين بعدها، بل غزاهم المسلمون : ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة . كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس، والمستعربة ، والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام : الآن نغزوهم ولايغزونا ويتوب الله على من يشاء من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق ، بأن ينيبوا إلى ربهم، ويحسن ظنهم بالإسلام، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم. فقد أراهم الله من الآيات مافيه عبرة لأولي الأبصار،كما قال: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً** ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا: ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم ، ولم ينالوا خيراً، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة ، كما كان همّ هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين ، فردهم الله بغيظهم ، حيث أصابهم من الثلج العظيم ، والبرد الشديد ، والريح العاصف، والجوع المزعج ، ما الله به عليم .

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة . وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة. وفيه لله حكمة وسر، فلاتكرهوه. فكان من حكمته أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم ، وهو

كان فيما قيل سبب رحيلهم . وابتُلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه . وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى ، يوم دخلتُ مصر عقيب العسكر واجتمعتُ بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ماألقاه ، فلما ثبَّت الله قلوب المسلمين صرف العدو، جزاء منه وبيانًا أن النية الخالصة و الهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار .

وذُكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباغضًا وتعاديًا ، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان، وبين اليهود . كما ذكر ذلك أهل المغازي ، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نَصِفَ فيه قصة الخندق ، بل من طالعها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازي ، مثل عروة بن الزبير ، والزهري ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموي ، ومحمد بن عائذ ، ومحمد بن اسحق ، والواقدي ، وغيرهم .

ثم تبقَّى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافا إلى عسكر حماة وحلب وماهنالك . وثبت المسلمون بازائهم، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة، وأذلهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار ، كما جرى في غزوة الخندق ، حيث قَتَل علي بن أبي طالب

رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين .

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين . وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم . وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات ، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات . وبعضهم في جزيرة فيها . فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم ، وخالطوهم وأصاب المسلمون بعضهم . وقيل : إنه غرق بعضهم .

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب [1]، بعد أن جرى مابين عبور قازان أوّلاً وهذا العبور - رجفات ووقعات صغار، وعزمنا على الذهاب إلى حماة غير مرة لأجل الغزاة، لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا ، وثبت بإزائهم المقدَّم الذي بحماة ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق ، وعزموا على لقائهم ونالوا أجرًا عظيما . وقد قيل : إنهم كانوا عدة كمانات ، إما ثلاثة ، أو أربعة . فكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يُلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل « تيزين » و « الفوعة » و « معرة مصرين » وغيرها مالم يكونوا وطئوه في العام الماضي .

وقيل : إن كثيرًا من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب الرفض، وأن عند بعضهم فرامين منهم ، لكن هؤلاء ظلمة ، ومن

---

(١) يعني من عام سبعمائة .

أعان ظالما بلي به ،والله تعالى يقول :﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وقد ظاهروهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب، من أهل « سيس » والإفرنج . فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم وهي الحصون - ويقال للقرون : الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب وقد فتح الله تلك البلاد . ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنفتح أرض العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه (١).

فهذه مقارنة جيدة تدل على علم واسع وفهم عميق لكتاب الله تعالى وواقع المسلمين وواقع أعدائهم ، كما تدل على فهم شيخ الإسلام ابن تيمية لأسباب النصر وأسباب الخذلان .

ومن هذه المقارنة وماسبق ذكره من بيان مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث المسلمين مع التتار يتبين لنا أثر هذا العالم الرباني في نصر المسلمين على أعدائهم وتوجيه المسلمين إلى الاعتقاد الصحيح والاستقامة في أمور الجهاد .

معركة شقحب :

سار قازان ملك التتار بجيوشه من العراق ونزل على الفرات، وبعث أمامه قائده قطلوشاه إلى الشام في ثمانين ألف مقاتل، وخرجَتِ العساكر المصرية إلى الشام مع الأمراء بيبرس وطغريل وكراي ولاجين ، ودخل بيبرس ومن معه دمشق في منتصف شعبان، ولبث يستحثُّ السلطان محمد بن قلاوون على الخروج .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٤٤٣/٢٨ - ٤٦٦ .

وبلغ التتار تجمُّع للمسلمين عند حماة فبعثوا إليهم طائفة كثيرة من جيش ليقتطعوهم ، فتوجه إليهم أَسَنْدَمُرَ كُرْجي نائبُ طرابلس، وبَهادُرْ آص، وكُجْكُن ، وإغزَلُّوا العادلي ، وتَمُر الساقي، ومحمد بن قَراسُنْقُر ، في ألف وخمسمائة فارس بمنزلة عُرْض - وهي بلد من أعمال حلب - في حادي عشر شعبان على غفلة فافترقوا أربع فرق، وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم ، وكان التتار - فيما يقال - أربعة آلاف ، وكان هؤلاء التتار قد هجموا قبل ذلك على التركمان ، فاستنقذ هؤلاء الأمراء التركمان وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار ، وهم نحو ستة آلاف أسير ، ولم يُفْقَد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أَنَص الجمدار المنصوري ومحمد ابن باشقرد الناصري ، وستة وخمسون من الأجناد، وأسروا من التتار مائة وثمانين (١) .

وهكذا انتصر ألف وخمسمائة من المسلمين على أربعة آلاف من التتار ، لَّما صبر المسلمون وكانوا يداً واحدة على أعدائهم ، وإنما كان المسلمون يُخذَلون أمام التتار لشدة فزعهم وعدم صبرهم واختلاف قلوبهم ، وكانت هذه المعركة الصغيرة بدايةً جيدة للِّقاء الكبير الذي تم بعد ذلك في شقحب ، حيث كان لهذه المعركة أثر في تحطيم معنوية التتار .

وذكر الحافظ ابن كثير أن التتار وصلوا إلى بلاد الشام ، وأن جيش حلب وحماة تقهقرا إلى حمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتار

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٥٨ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤ .

فساروا إلى دمشق وانضموا إلى جيشها في المرج ، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فسادا ، وقَلَقَ الناس قلقا عظيما، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان محمد بن قلاوون ببقية الجيش المصري، وقال الناس : لاطاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم ، وتحدَّث الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا أنفسهم ، ونُودي بالبلد أن لايرحل أحد منه فسكن الناس ، وجلس القضاة بالجامع وحلَّفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال (١) .

وهذا موقف جهادي مشكور لهؤلاء الأمراء الذين ثبَّتوا المسلمين وشجعوهم على القتال ولم يسمعوا لإرجاف المرجفين وكذلك قام القضاة بموقف جيد حينما حلَّفوا الفقهاء والعامة على الثبات والجهاد.

قال الحافظ ابن كثير : وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في « القطيعة » فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يَحْلِف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقا لاتعليقا ، وكان يتأول أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ [الحج : ٦٠] (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥ .

وهذا موقف جهادي رائع لشيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث سعى لتثبيت الجيش الإسلامي وتقوية عزائم أفراده، وذلك بخروجه أولًا إلى الجيش القادم من حماة وإعلامهم بما عزم عليه المجاهدون في دمشق من الثبات الذي وثقوه بالحلف ، ثم بقيامه ثانيا بالحلف أمام الأمراء والعامة بحصول النصر للمسلمين في تلك المعركة ، وذلك راجع إلى ثقته بنصر الله تعالى حينما تتحقق عوامل النصر من المجاهدين ، وقد لاحظ في تلك المرة تحقق تلك العوامل، كما أنه راجع إلى غزارة علمه حيث تأول قول الله تعالى ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ وقد بغى التتار كثيرًا على المسلمين وبالغوا في العدوان عليهم .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان حال المسلمين آنذاك في ترددهم في قتال التتار : وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار، من أيِّ قبيلٍ هو ! فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ماهم متلبِّسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بماهو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فتشجع الناس في قتال التتار وقوِيَتْ قلوبهم ونيَّاتهم ولله الحمد [1] .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥ .

وهذا مثل من رسوخ علم ابن تيمية حيث أبان للناس انطباق صفة الخوارج على التتـار الذين أظهروا الإسلام ولم يطبقـوا منه إلا قليلا، كما أن في هذا الخبر مثلا على ثقة المسلمين البالغة بابن تيمية سواء في ذلك أهل العلم أو العامة ، وبهذه الثقة التي تكونت من اتصافه بالعلم النافع والعمل الصالح استطاع أن يؤثر على المسلمين وأن يقودهم إلى الجهاد .

لقد كان لهذه الشبهة أثر في هزيمة المسلمين في معركتهم السابقة مع التتـار ، حيث تخـاذل المسلمـون في قتـالهم لكونهم يظهـرون الإسلام، وكان على أثر ذلك استيلاء التتار على بلاد الشام ومـاقاموا به من قتل الآمنين ونهب أمـوال المسلمين ، فلمـا قيض الله تعـالى للمسلـمين في ذلك الزمن عالما جليـلا يكشف لهم الشبـهات ويُجَلِّي لهم الحقـائق ويدفعهم إلى اليقين من سـلامة الاتجاه قويت مـعنويتهم وتوحد هدفهم وأقدموا على الجهاد بنفوس مطمئنة وعزائم قوية .

هذا وقد كان جيش مصر وصل إلى الشام بقيادة بعض الأمراء ثم وصل السلطان قبل وصول التتار إلـى دمشق ففرح بذلك المسلمون في الشام ، وقد ذكر الحافظ ابن كثـير أن عسكر الشام ندب شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسـار إليه فحثَّه على المجيء إلى دمـشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعا ، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القـتال ، فقـال له الشيخ : السُّنَّة أن يقف الرجل تحت راية قـومه، ونحن من جـيش الشـام لانقف إلا معـهم ، وحـرض السلطان على

القتال ويبشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقا لاتعليقا ، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضًا ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده لِيُعْلمهم أن إفطارهم - ليتقووا على القتال- أفضل فيأكل الناس ، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ « إنكم ملاقو العدو غدا، والفطر أقوى لكم » فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري [1] .

وقد كان وصول السلطان في يوم السبت ثاني شهر رمضان عام اثنين وسبعمائة ، وعند لقاء الأمراء به ورد إليهم الخبر بوصول التتار فلبسوا السلاح واتفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب، وعند وصولهم إلى هذا المكان صفوا جيشهم ، فصف السلطان محمد ابن قلاوون في القلب وبجانبه الخليفة المستكفي بالله ، ومشى السلطان والخليفة ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوِّقون إلى الجنة ، وصار الخليفة يقول : يامجاهدون لاتنظروا لسلطانكم وقاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم، والناس في بكاء شديد .

وزحفت كتائب التتار كقطع السليل، وذلك بعد الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور، وحمل قطلوشاه قائد التتار على ميمنة الجيش الإسلامي فثبتوا لهم، وقُتِل في ذلك الهجوم عدد من أمراء

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٧ .

المسلمين ونحو الألف من فرسانهم فلما وقع ذلك أدركهم الأمراء من القلب والميسرة وصاح سلاَّر : هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبرس والمماليك البُرجية فأتوه دفعة واحدة فأخذهم وصدم بهم العدو،وقصد مُقدَّم التتار قطلوشاه ، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت راحة .

وأبلى سلار في ذلك اليوم وبيبرس بلاء حسنا، وكانا المقدَّمان في أمراء مصر ، فلما رأى باقي الأمراء ذلك منهم ألْقَوا نفوسهم للموت، واقتحموا القتال وكان لسلار وبيبرس في ذلك اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين ، رحمهما الله تعالى ، واستمروا في القتال حتى كشفوا التتار عن المسلمين .

وجاءت طائفة من التتار لنجدة قطلوشاه ، ووقفوا في وجه سلار وبيبرس ومن معهما فخرج من عسكر السلطان عدد من القادة والمماليك السلطانية وأردفوا سلار وبيبرس وقاتلوا أشد القتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم ، واستمر القتال بين المسلمين والتتار إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال في المساء .

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كلَّه عساكر، والميسرة السلطانية ثابتةٌ وأعلامُها تخفق ، فبُهِتَ وتحير ،واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه .

أما القائد الآخر بولاي فإنه انهزم ومعه عشرون ألفا من التتار وفروا هاربين .

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل، وتلاحق بهم المنهزمون شيئًا بعد شيء على صوت الطبول السلطانية، وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار ، وصار سلار وبيبرس وقبجق والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ ، ووقفَ كل أمير في مصافِّه وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس .

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ، ونزلوا مشاةً وفرسانًا وقاتلوا العساكر ، فبَرَزَت المماليك السلطانية بمقدَّميها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا في قتالهم عملاً عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضًا بقتال مَنْ في جهتهم يتناوبون القتال أميرًا بعد أمير ، وألَحَّتِ المماليك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية مالايوصف ، حتى إن بعضهم قُتِل تحته الثلاثة من الخيل .

ومازال القتال دائرًا حتى انتصف نهار الأحد ، فصعد قطلوشاه الجبل بجيشه وقد اشتد عطشهم ، واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان وعرَّفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية وأنهم في شدة من العطش ، فاقتضى الرأي أن يفرِّج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقفيتهم، فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد، وساروا إلى النهر فاقتحموه ، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى

حصــدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعــوا فيهم السيــوف ومرُّوا في أثرهم قتلاً وأسرًا إلى وقت العصر .

وعاد المجــاهدون إلى السلطان وعرَّفوه بهــذا النصر العظيم وبات السلطان لَيْلَتَه و أصبح يوم الثلاثاء وقد خــرج إليه أهل دمشق ، فسار إليها في عــالم عظيم لايحصيهم إلا الله تعالى وهم يضــجُّون بالدعاء والهناء والشكر لله تعالى على هذه المنَّة .

أما المنهزمون من التتار فــإن كثيرًا منهم قُتلوا على يد الفرَقِ التي تَبِعَتْهم من الجيش وكذلك من رجال البادية وعامة المسلمين [١] .

وهكذا تم هذا الانتصــار الحاسم للمــسلمين على التتــار بعد عناء شديد وجهاد مرير ، ولم يتجرأ التتار بعدها على حرب دولة المسلمين في الشام ومــصر ، وكان وقع الهــزيمة شديدًا على ملك التتــار قازان حيث كان قد انتخب لتلك المعركة أفضل رجاله .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٦٣ .

فهرس الجزأين الخامس عشر والسادس عشر

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
– إنصافه الأعراب من بعض بني أميه	٩٣
– وصيته عُمَّا له بالتقوى والعدل	٩٤
– خبره مع المرأة التي فرض لبناتها	٩٩
– إنصافه الذميين من أهل نجران	١٠٣
– إنصافه الذميين من أهل قبرص	١٠٥
– إنصافه أحد المظلومين من اليمن	١٠٦
– سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز	١٠٦
– خبره مع الخوارج	١٠٨
– **جهوده في الدعوة والإصلاح**	١١٤
– من توجيهاته في آداب الصحبة	١١٤
– من تذكيره بالآخرة	١١٨
– من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة	١١٩
– إنكاره العصبية القبلية	١٢١
– اهتمامه بشكر النعمة	١٢٤
– اهتمامه بتعليم أهل البادية	١٢٥
– اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام	١٢٥
– اهتمامه بإصلاح المجتمع	١٢٨
– إباحته المراعي العامة للأمة	١٣١
– توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة	١٣٢
– إبطاله سب علي على المنابر	١٣٣
– اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عمن أسلم	١٣٣
– إحياؤه لسنة العطاء	١٣٦

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة